

العددان / ٩٧ - ٩٨ / آذار - حزيران / ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب – جامعة دمشق

السنة السادسة والعشرون /العددان/ ٩٧-٩٨/ آذار – حزيران

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الاشتراكات	للأفراد	للمؤسسات	للطلاب
في القطر العربي السوري	(٢٠٠) ل.س	(٤٠٠) ل.س	(١٠٠) ل.س
في الأقطار العربية	(٢٠) دولار أمريكي	(٤٠) دولار أمريكي	
في البلاد الأجنبية	(٣٠) دولار أمريكي	(٦٠) دولار أمريكي	

يمكن الاشتراك بمجموعات الأعداد الصادرة بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك إلى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ إلى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٣٣٢٣ / ٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب – مجلة دراسات تاريخية – جامعة دمشق

المكاتب: جامعة دمشق – هاتف /٢١٢٤٤٦١/ فاكس /٢١٢٤٤٦١/

شروط النشر في المجلة

إنّ مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الأساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدودي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الأمة العربية وأعطته خط مساره الخاص، وإيضاح ما لفه الغموض، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف إن وقع، وكل ما يمكن أن يثير جدلاً علمياً واعياً ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكم قلم يشارك في إغناء فكرتها وبكل مقترحاً ورأي في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به، على أن يراعى فيها ما يلي:

آ- أن تتوافر في البحث الجدة والأصالة والمنهج العلمي.

ب- أن لا يكون منشوراً من قبل.

جـ- أن يكون مطبوعاً على الآلة، خالياً من الأخطاء الطباعية.

د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئياً، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة أعلاه، والتعديلات اللازم إدخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن أن يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ- في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الأولى):

ذكر اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) إن كان متوفى، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط، عدد المجلات أو الأجزاء، اسم المحقق إن وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب- في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملاً، عنوان الدراسة كاملاً بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملاً، اسم المحرر أو المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة إن وجدت، مكان النشر ومحله، الصفحة.

جـ- في المجلات:

اسم الباحث كاملاً، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « »، اسم المجلة كاملاً وتحته خط، رقم المجلد أو السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.

ثم ذكر الرمز الذي يشار به إلى المجلة في المرات التالية.

د - في المخطوطات (للمرة الأولى):

اسم المؤلف كاملاً، عنوان المخطوط كاملاً، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الإشارة إلى وجهها (أ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به إلى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الأسماء الأجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( )، ويشار إلى الملاحظات الهامشية بنجمة * . وترقم الحواشي بأرقام تتسلسل من أول البحث إلى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والأعداد الصادرة خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

- **نصوص سومرية وأكدية من "إيمار"** ص ٣

د. فاروق اسماعيل

- **اليهود في بابل... بين التبلور الفكري والنهج العدائي** ص ٥٧

د. هديب غزالة

- **أثر حركة الأيقونات في فيسفساء كنسية يعمون** ص ٧١

د. نزار الطرشان

- **الجغرافيا التاريخية للمدن السعودية** ص ٩١

د. محمد محمود السرياني

- **المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود زنكي** ص ١١١

د. سميحة أبو الفضل

- **معركة ساحة الدم ٥١٣هـ / ١١١٩م** ص ١٣٩

د. وفاء جوني

- **ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها** ص ١٨٧

د. علي أحمد

- **طرق التقاضي وإقامة الدعاوى بالمحكمة الشرعية بالقدس ١٢٦٧-١٣١٨هـ/ ١٨٥٠-١٩٠٠م -دراسة من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية-** ص ٢١٥

د. محمد صلاح الدين الحزماوي

- **الأمير عبد الله والفترة التجريبية في إدارة شرقي الأردن: نيسان- أيلول ١٩٢١** ص ٢٧١

د. محمد أحمد الصلاح

نصوص سومرية وأكدية من "إيمار"

الدكتور فاروق اسماعيل

جامعة حلب

نصوص سومرية وأكدية من "إيمار"

الدكتور فاروق اسماعيل

جامعة حلب

لقد نشأت على أرض المشرق العربي منذ آلاف السنين حضارات مزدهرة متميزة بإبداعاتها المختلفة، ثم تحولت إلى أوابد صامتة أخفتها الظاهرات الطبيعية مع مرور الزمن حتى أيقظتها معاول المنقبين عن الآثار القديمة في العصر الحديث، وكشفت النقاب عن أسرارها وملامحها الزاهية، التي تقدّم دلائل على أن بلادنا موئل للحضارات ومنبع ثرّ للثقافات والإبداعات الفنية والأدبية.

تشكّل الآثار الكتابية القديمة المكتشفة مصدراً أساسياً لكتابة تاريخنا القديم؛ لما تتضمّنه من معلومات مباشرة عن طبيعة الحياة والتفكير الإنساني. وتعدّ المدن القديمة الرئيسية موطناً أساسياً لتلك الآثار الكتابية.

أشارت الكتابات المسمارية مراراً إلى مدينة باسم "إيمار" على نهر الفرات، وتبدو ذات أهمية تجارية لوقوعها على طريق القوافل التجارية، التي تربط بين سورية الداخلية وبلاد الرافدين. وقد تمّ الكشف عن هذه المدينة في موقع "تل مسكنة" على الضفة اليمنى لنهر الفرات؛ شرقي حلب بنحو (٩٠) كم، قرب مدينة مسكنة الحديثة؛ وذلك منذ ١٩٧٢، بفضل المكتشفات الكتابية لبعثة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ضمن حملة إنقاذ آثار حوض الفرات، قبل إنشاء سد الثورة (١٩٧٠- ١٩٧٦).

وأعتقد أنه من المفيد تقديم عرض سريع لأخبار مدينة إيمار ومملكتها في النصوص الكتابية المسمارية، التي تسبق تاريخياً النصوص المكتشفة في إيمار نفسها – والتي سنفصل الحديث عنها– وكذلك المكتشفات للتنقيبات الأثرية الجارية فيها.

أخبار إيمار في النصوص الكتابية المسمارية:

يمكن تتبّع الأخبار التاريخية لمدينة إيمار ومملكتها، التي كانت تمتد على ضفاف نهر الفرات بين كركميش (جرابلس) وجبل بشري بدءاً من النصف الثاني من الألف الثالث ق. م؛ فالوثائق الكتابة المكتشفة في إبلا (تل مرديخ) وتعود إلى القرن الرابع والعشرين ق. م– تتضمن أقدم الشواهد النصية عن إيمار، وهي تربو على مئتي شاهد[١]، وتشير بوضوح إلى علاقات سياسية واقتصادية متميزة بين المدينتين.

لقد تكرر فيها ذكر الزيارات التي كان يقوم بها حكام إيمار وممثلوهم إلى إبلا؛ ولاسيما في المناسبات الرسمية والدينية. كما أشارت إلى تبادل الموظفين بين المدينتين، وأوردت أسماء عدد كبير منهم، وتوضح نصوص إبلا الإدارية الاقتصادية وجود حركة نشيطة لتبادل البضائع بين المدينتين؛ فقد كانت إبلا تزوّدها بالمنتوجات النسيجية والمعادن النفيسة وغيرها، وكانت إيمار، تلتزم بدفع ضرائب سنوية لإبلا، وترسل إليها سبائك ذهبية وفضية أو قطعاناً من المواشي ومنتوجاتها ومواد حربية خشبية.

ونظراً لتميز الموقع الجغرافي لإيمار، عاملها حكام إبلا معاملة خاصة، وقدموا لها امتيازات معينة، وذلك ضماناً لدورها المهمّ في مراقبة المناطق الفراتية المتاخمة لمملكة ماري المنافسة لها، وفي رصد تحركات القبائل البدوية على أطراف البادية السورية وقمع المشاكل، التي تثيرها. يضاف إلى ذلك أنها كانت ميناء أساسياً على الفرات، وتعتمد إبلا عليه في تجارتها مع بلاد الرافدين.

إن استقراء نصوص إيلا يفيد في معرفة تفاصيل كثيرة عن علاقات المدينتين، ويساعد على معرفة أسماء عدد من مدن مملكة إيلا، الواقعة على الطريق نحو إيمار، أو قربها، ومنها المدن التالية: ماني (القريبة من إيمار)، أَدَني، أتنات، درسيجو، سادرو، شَدَب. كما يمكن الاستفادة منها في معرفة أسماء بعض حكام إيمار وأفراد أسرهم في أواخر الفترة التاريخية التي ترصدها نصوص إيلا ومنهم مملكة إيمار تيشاليم، التي كانت تحكم بالوصاية عن ابنها القاصر، وكانت معاصرة لملك إيلا يَرْكَبْ دو. ومنهم الملك إنزي دمو، المعاصر للملك الإبلوي نفسه، وقد زودتنا النصوص بأسماء عدد من أفراد أسرته، وهم: زوجته كيرسوت، زوجته داخوشم، ابنه ري دمو، ابنته سورسا دمو، أخوه إيدو مالك.

أما وثائق ماري (تل الحريري) فتتضمن مجموعة صغيرة تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد(٢)، وتعاصر وثائق إيلا. ويرد فيها أن حاكم ماري إشنوب إيشار قام بحملة إلى مناطق الفرات الأعلى، ووصل إيمار، وحولها إلى (كومة من الخرائب). كما قام خليفته إبْلُل إيل بحملة إلى المنطقة نفسها، ويبدو أنه تغلغل في مناطق خاضعة لنفوذ مملكة إيلا، لذا اضطرت إيلا إلى دفع ضريبة له في مدينة ماني القريبة من إيمار مقابل انسحابه، وبقيت إيمار موالية لإيلا وخاضعة لنفوذها وسيادتها غير المباشرة.

وتبيّن وثائق ماري العائدة إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م.(٣)، أن إيمار كانت تابعة لممكلة يَمخَد (حلب الأمورية). وقد غزاها ملك ماري يَخدون ليم (القرن التاسع عشر ق.م)، وسميت سنة الغزوة تلك المدونات التاريخية المملكية بـــ (السنة التي أوقع فيها يحذون ليم هزيمة ساحقة بأبناء (قبائل) يمينا وإيمار عند مدخل مدينة أبَتّم)(٤).

ازدادت الأهمية التجارية لإيمار في عهد ملك ماري زيمري ليم (١٧٧٥-١٧٦٢/ ١٧٦١ق.م)، وصارت أهم معبر فراتي، وتحسنت أوضاعها الاقتصادية بسبب استفادة

سكانها من أعمال الملاحة والتعبئة والنقل، وظهرت فيها فئة من التجار، مارست أعمالها في مناطق مختلفة، كما برزت فيها محاولات استقلالية، ولكنها لم تفلح.

ثمة إشارات قليلة إلى إيمار في الوثائق التالية تاريخياً؛ فقد ذكرت في وثائق ألالاخ (تل العطشانة) العائدة إلى أواخر القرن الثامن عشر وبداية السابع عشر ق.م. وقد كانت المدينتان إيمار وألالاخ خاضعتين لحكم (أبَّ إيل) ملك يمخد، وكانت بينهما علاقات اقتصادية(٥).

كما ورد ذكرها في وثيقة تجارية من القرن السابع عشر ق. م. اكتشفت في مدينة خَرادُم (خربة الدينية) غربي عانا(٦).

ونجد في وثائق ألالاخ المكتشفة في الطبقة الرابعة (القرن الخامس عشر ق. م)، إشارات إلى إيمار(٧). ولعل أشهر وثائقها هو نص السيرة الذاتية المدوّن على تمثال إدريمي ملك ألالاخ وُموكيش، ويذكر فيه إدريمي أنه حدثت اضطرابات في حلب فلجأ وأفراد الأسرة الحاكمة إلى أخواله سادة إيمار، ولكن لم يطب له العيش فيها طويلاً فغادرها(٨).

ويرد في وثائق ألالاخ هذه ذكر اسم المملكة التي كانت إيمار مركزاً لها آنذاك، وهي أشْتاتّا(٩)، وقد كثر ذكر هذا الاسم في الوثائق الحثية أيضاً(١٠)، وذلك في سياق الحديث عن حملات الملوك الحثيين إلى شمالي سورية. وقد تعرضت مملكة أشتاتا لهجماتهم، وخضعت لهم فترات من الزمن، حتى تنامت قوة المملكة الميتانية الحورية التي سيطرت على معظم مناطق سورية الشمالية من أقصى الجزيرة حتى أوجاريت، وذلك خلال القرن الرابع عشر ق. م.

ويتردد ذكر إيمار وأشتاتا في وثائق خَتوشًا (بوغاز كوي) الحثية ووثائق أوجاريت (رأس شمرا)، العائدة إلى القرن الثالث عشر ق.م، ولكن أهم المصادر لتاريخها في هذا القرن هي الوثائق المكتشفة فيها نفسها، وهي تمتد زمانياً إلى العقد الثاني من القرن الثاني عشر ق.م، إذ دمّرت المدينة.

التنقيبات الأثرية في إيمار وبالس "تل مسكنة":

قام الباحثان سار E.Sarre وهرتسفلد E. Herzfeld في العشرينيات من هذا القرن بجولة أثرية في مناطق الفرات ودجلة[١١]، ووصفا خلالها أهم المعالم الأثرية فيها، ومنها تل مسكنة. وقامت بعثة فرنسية سنة ١٩٢٩ بأعمال تنقيبية جزئية في الموقع انصبّت على الكشف عن مسجد من العصر الأموي.

بدأ التنقيب في الموقع من جديد خلال السنوات (١٩٧٠-١٩٧٦)، من قبل بعثة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق بإدارة ل. غولفان L.Golfan و أ. ريمون A. Rimond. وقد انصبّت أعمالها على الكشف عن الأوابد الموجودة في المنطقة الإسلامية من الموقع (بالس)[١٢]، كما أجرت أسباراً عميقة فيها مكّنت من الوصول إلى آثار العصرين البيزنطي والروماني.

عثر خلال أعمال سنة ١٩٧١، على رقيم مسماري ومذبح وبقايا أوانٍ فخارية من الألف الثاني ق. م، في المنطقة الشمالية الغربية من الموقع؛ مما دفع إلى تكليف ج. ك. J. Clamargueron المختص بالآثار الشرقية القديمة بالتنقيب هناك. وقد بدأ أعماله في السنة التالية، وكشفت عن سويات استطيان من العصر البرونزي المتأخر (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م)، وتضمنت آثاراً وشواهد عمرانية مدنية ودينية ومجموعة رُقُم دوِّنت عليها نصوص مسمارية تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م -وهي موضوع هذا البحث-. وقد تمكن لغوي البعثة د. آرنو D. Aenaud خلال الاطلاع الأولي على الرُّقُم من تحديد الاسم القديم للموقع (إيمار). توقفت أعمال غولفان وريمون في المنطقة الإسلامية (بالس) سنة ١٩٧٣، أما أعمال مارغرون في المنطقة (إيمار) فقد استمرت حتى ١٩٧٦[١٣].

لقد اتصفت التنقيبات الفرنسية في الموقع بالسرعة، وخلت من الدقة العلمية، ولم تراعِ أصول التنقيب، ولعل اقتناع البعثة بأن المياه ستغمر كامل الموقع حملتها على إنقاذ ما

يمكن إنقاذه وكانت السبب الرئيسي في ذلك. وعلى الرغم من مرور أكثر من عشرين سنة على انتهاء أعمالها، فإنها لم تنشر نتائجها ومكتشفاتها كاملة بعد.

لقد كان اكتشاف مدينة إيمار حدثاً علمياً مهمّاً، وأثار في الأوساط العلمية تساؤلاً هو: أين آثار المدينة التي ترقى إلى العصور السابقة للمكتشفات؛ أي إلى الفترات التاريخية التي تحدثت عنها الوثائق التي عرضنا لها، وهي تشكل مرحلة تاريخية طويلة تبلغ أكثر من ألف سنة (٢٤٠٠-١٤٠٠ق.م)؟

ومن أبرز الآراء المطروحة كتوضيح لذلك الرأي القائل: إن المدينة لم تكن آنذاك في الموقع الحالي بالضبط؛ وإنما بالقرب منه جهة الشرق أو الجنوب الشرقي، وقد جرفتها مياه الفرات في وزمن قديم عندما غيّر مجراه، وهو أمر تكرّر عبر التاريخ.

لقد أُهمل الموقع وصارت آثاره عرضة للنهب، وبقي أمل في الكشف عن آثاره القديمة لو جرت فيه تنقيبات شاملة متأنية، ذلك أن مياه حوض بحيرة الأسد لن تغمر إلا جزءاً منه.

ولذلك كله اتفقت جامعة حلب والمديرية العامة للآثار والمتاحف سنة ١٩٩٠، على تشكيل بعثة أثرية مشتركة لاستئناف التنقيب في الموقع. وقد أنجزت البعثة أربعة مواسم تنقيبية (١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٤، ١٩٩٥)، دام كل موسم نحو شهر[١٤].

استغرق الموسم الأول (١٩٩١) زمناً قصيراً، وجرت فيه أعمال تمهيدية، وانصبّ العمل خلال الموسم الثاني (١٩٩٢)، على المنطقة الإسلامية؛ وكشف عن أجزاء من سور مدينة (بالس)، كما تمّ التنقيب في ستة مربعات في المنطقة القديمة (إيمار)، بالقرب من السور، وكشفت فيها عن مجموعة قبور وبعض الأساسات الحجرية لمبانٍ.

استمر العمل خلال الموسم الثالث (١٩٩٤)، في المنطقتين السابقتين، وبدأ حفر مربعات جيدة في المنطقة القديمة، وكشف خلال ذلك عن شواهد عمارية مدنيّة

وأساسات حجرية ودمى طينية وقطع فخارية متنوعة، كما تمّ الكشف عن أجزاء جديدة من سور المدينة الإسلامية.

أما الموسم الرابع (١٩٩٥)، فقد انصبّ العمل خلاله على الكشف عن آثار قصر من العهد الأموي يقع بعيداً عن التل، حيث تنتصب مئذنة مسكنة حالياً بعد نقلها من موقعها الأساسي في المنطقة المغمورة، وذلك خلال فترة التنقيبات الفرنسية في الموقع.

في سنة ١٩٩٦، انضمّ إلى البعثة فريق عمل من جامعة توبنجن Tuebingen الألمانية، وأصبحت البعثة السورية – ألمانية مشتركة[١٥]. وكان الموسم الخامس (١٩٩٦) ضخماً، شارك فيه كثيرون. أنجز خلاله مختصان بالطبوغرافيا من الجانب الألماني المخطط الطبوغرافي الشبكي Pan Topographical للموقع من جديد وبشكل كامل، وحدّدت عليه مواضع التنقيب الفرنسية والسورية السابقة؛ وانصبّ العمل على أربع قطاعات Area متباعدة (A, B, E, F, G) .

تمّ توسيع إطار الحفر في القطاع (A) حيث عثر سابقاً على تمثالين ضخمين لأسدين مهشمين، وهما من نماذج الأسود التي كانت توضع عند مدخل المعابد. ويبدو أن هذا الجزء الغربي من الموقع كان منطقة معابد، وقد كشفت البعثة الفرنسية عن معبدين للإلهين (بعل، عشتارت).

وفي القسم الجنوبي من القطاع تمّ الكشف عن شواهد أثرية لطبقتين حضاريتين منفصلتين؛ تعود الأولى إلى العصر البرونزي المتأخر Late Bronze Age (١٦٠٠–١٢٠٠ق.م)، والثانية إلى العصر البرونزي المبكر – المرحلة الرابعة (IV) Early Bronze Age (نحو ٢٣٥٠–٢٠٠٠ق.م)، وتكتسب شواهد الطبقة الثانية أهمية خاصة، لأنه يكشف عنها لأول مرة في الموقع.

أما في القطاع (B) جنوبي التل فقد كشفت عن أجزاء شبه متصلة من سور المدينة القديم (العصر البرونزي المتأخر)، وهو مبني من الآجرّ فوق أساسات حجرية، ويبلغ عرضه نحو ثلاثة أمتار.

وفي الجنوب أيضاً (القطاع E-F) تمّ العمل في مربعين متجاورين، وكشف عن شواهد أثرية مختلفة من العصر البرونزي المتأخر؛ أهمها طبعة خاتم أسطواني Cylinder Seal على سدادة طينية (٦×٨سم)، وتمثل رسومها مشهداً من مشاهد تقديم النذور.

أما القطاع (G) فيقع في المنطقة الإسلامية (بالس)، وقد كشفت فيه عن أجزاء من سور المدينة البيزنطي المحيط بمبانٍ إسلامية من النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وقد عثر فيها على أباريق وصحون فخارية ملونة مزخرفة مزجّجة وفي حالة كاملة.

إضافة إلى ذلك؛ فقد تمّ خلال هذا الموسم رسم مخططات بعض الأعمال القديمة، التي نفذتها البعثة السورية خلال ١٩٩٣ في القطاعين (C,D)[١٦].

الكتابات المسمارية المكتشفة في إيمار:

كشفت البعثة الفرنسية خلال (١٩٧٢-١٩٧٤)، عن أكثر من ألف وخمسمئة رقيم Tablets دوّنت عليها نصوص بالكتابة المسمارية Cuneiform Writing، وبلغات شرقية قديمة عديدة هي: السومرية، الأكدية، الحورية، الحثية. وهي تعود إلى الفترة الواقعة بين أواخر عهد الملك الحثي موشيلي الثاني (١٣٤٩-١٣٢٠ ق.م)، ودمار المدينة من قبل مجموعات من الفرنجيين نحو ١١٨٧ق. م[١٧]؛ ولكن غالبيتها العظمى تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م. إذ خضعت المدينة للاحتلال الحثي في بعض الفترات. وهي تعاصر بذلك المكتشفات الكتابية المسمارية المكتشفة في أوجاريت، وربما التي اكتشفت في تلال الشيخ حَمَد (دور كاتليمو) وخُوَيْرة (خِرْبَة) وصبي أبيض(؟). وقد حُفظت الرقم في متحف حلب الوطني.

كشف عن الرقم في أماكن مختلفة من الموقع؛ منها القصر الشمالي الغربي ومعابد الآلهة بعل وعشتارت وأدد، ومعبدان آخران يرمز إليهما بـ (م١ ، م٢)، وقدّم المعبد (م١) القسم الأكبر منها، وكانت تشكل مكتبة أحد عرّافي المدينة. ويلاحظ أن قسماً كبيراً منها تعرض للكسر، ولذلك فإن عدداً كبيراً من النصوص المدوّنة عليها رُكّب – عند النشر – من كسر عدة.

وضعت البعثة خطة لنشر تنقيباتها في سبعة مجلدات، وخصصن ثلاثة منها (الخامس والسادس والسابع) للوثائق الكتابية، وقد صدر منها المجلد السادس، الذي يضم النصوص السومرية والأكدية، في أربعة أجزاء، وقام بنشرها لغوي البعثة دانييل آرنو Daniel Arnaud[١٨].

احتوى الجزآن الأول والثاني على نسخ يدوية للنصوص، تضمن الثالث قراءتها وترجمتها إلى الفرنسي، أما الرابع فقد خصص لقراءة النصوص المكتشفة في "مكتبة العرّاف" وترجمتها.

بلغ عدد النصوص المنشورة في هذا المجلد (٧٩٣) نصاً؛ بينها عدد من النصوص الطويلة المؤلفة من أكثر من مئة سطر. أما بقية النصوص فستنشر الباحثة الفرنسية ي. لاروش E. Laroche الحثية منها في المجلد الخامس، وسينشر الإيطالي م. سلفيني M. Salvini الحورية منها في المجلد السابع من السلسلة.

النصوص السومرية والأكّدية:

كانت الأكّدية (الآشورية – البابلية) هي اللغة الأكثر انتشاراً في المنطقة خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق. م، أما السومرية فقد ضعف دورها بتأثير انتشار السيادة الأكّدية، وانحصر استخدامها في المجالات الدينية وفي تدوين النصوص اللغوية المعجمية؛ ولاسيما ثنائية اللغة، وهو أمر نلاحظه بوضوح في نصوص إيمار.

وتنتمي إيمار الأكدية إلى مرحلتها التاريخية اللغوية المعروفة بالبابلية الوسيطة(١٩)، وهي تمتد زمانياً بين نهاية سلالة بابل الأولى (سلالة حمورابي)، ١٥٩٥ ق.م، ونهاية الألف الثاني ق.م. وقد كتب بها مدونات بلاد الرافدين خلال فترة سيادة الكاشيين والحوريين الميتانيين عليها، والمدونات السورية خلال فترة الصراع الميتاني، الحثي، المصري عليها. وأهم شواهدها مجموعات النصوص المكتشفة في العاصمة الكاشية الجديدة دور كوريكالزو (عَقَرْقُوف في أطراف بغداد)، وفي نُوزي (يورغان تَبَه قرب كركوك)، وفي تل العمارنة بمصر والعاصمة الحثية ختوشا وفي المواقع السورية: إيمار، أوجاريت، ألالاخ، قطنا (اتل المشرفة)، تل الشيخ حمد، تل خويرة، صبي أبيض، تل مُنباقة (ممباقة).

تبحث النصوص السومرية الأكدية المكتشفة في إيمار في موضوعات مختلفة يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أ- نصوص إدارية اقتصادية:

تشكل هذه النصوص القسم الأكبر من نصوص إيمار، وتبلغ أكثر من ثلاثمئة نص، وهي مدونة باللغة الأكدية مع وجود بعض المصطلحات والكلمات السومرية ضمن النص الأكدي. تبحث في موضوعات جزئية متنوعة، وتقدم صورة شاملة عن الحياة الإدارية والاقتصادية في المدينة والمملكة.

إنها تشمل عقود شراء وبيع وتتعلق بالأراضي العقارية والبيوت السكنية والحقول والبساتين والعبيد، ووثائق تصفية ذمم وديون، وسندات بالديون والقروض، وعقود رهن وإقراض ومصالحة مالية، وإقرارات بتوزيع الميراث، وإيصالات تسلم، وأوامر وقرارات ملكية، وجداول حسابية تتضمن تسليم مواد وتوزيع أسلحة وأدوات، وقوائم طويلة سُجّلت فيها أسماء أشخاص أو مواشٍ وحيوانات أو حبوب وجرار، وسجلات عقارية تتضمن أسماء المالكين وأوصاف أملاكهم، وطائفة من النصوص التي تبحث في مسألة التبني.

وقد صيغت العقود بأسلوب دقيق؛ إذ كانت تتضمن اسمي البائع والشاري فالسعر، ثم أسماء شهود على صحة العقد، وآخرين ختموه بخاتمهم، وتظهر طبعات الأختام على الرقم الطينية[٢٠].

كما تتضمن أحياناً وصفاً دقيقاً لموضوع العقد وشروطه الآنية والمستقبلية، وهي –عامةً– بسيطة في أسلوب صياغتها اللغوية.

تعكس النصوص حالة الثراء التي كانت تتمتع بها الأسرة الحاكمة، وتصوّر علاقتها الوثيقة مع مجلس "شيوخ المدينة"، وقد كان الحكام يعتمدون على هذا المجلس في نشر روح القناعة والرضا لدى عامة السكان، ويلاحظ فيها انصراف الحكام إلى الاهتمام بالشؤون الداخلية وابتعادهم عن المسائل والحملات العسكرية، ويظهر فيها إشراف الحكام المباشر على الحياة الاقتصادية، فكان القصر الملكي مركزاً لإدارة شؤونها وتنظيمها ولإصدار القرارات اللازمة لها.

ويمكن اعتماداً عليها – وعلى نصوص أخرى– تجديد أسماء عدد من ملوك إيمار وأفراد أسرهم، وتتبع ثلاثة أجيال منهم[٢١] ، وهم:

١– جيل الملك أَدَد كَبَر بن يَصي دَجَن.

٢– جيل أبنائه، وقد ذكرت النصوص أسماء عشرة منهم، ومن حكم منهم بعده.

أ– زو عشتارت.

ب– فِلْسو دَجَن. ويبدو أنه حكم فترة طويلة.

٣– جيل أحفاده. وقد حكم منهم إلّي بن فِلسو دَجَن، وربما حكم بعده ابنه الذي سمي نسبة إلى جد أبيه (أدد كبر).

ومن المثير للانتباه في النصوص الإدارية الاقتصادية كثرة أسماء الأشخاص، ويفيد ذلك في معرفة البنية السكنية للمملكة. إن تحليل تلك الأسماء التي تتجاوز المئات تحليلاً لغوياً يحتاج إلى دراسة علمية مستقلة، ولكن النظرة الشاملة السريعة إليها تظهر

غلبة الأسماء الآمورية والحورية فيه، وتبيّن الطابع الديني لمعانيها وعناصر ها التركيبية.

كما تتضمن هذه النصوص –أكثر من غيرها- عدداً من أسماء الأمكنة القريبة من إيمار والبعيدة عنها؛ والمعروفة في نصوص مواقع أخرى وغير المعروفة. وهي تشكّل بذلك إضافة مهمّة إلى علم دراسة الأسماء Onomastics والجغرافية التاريخية القديمة لسورية؛ ولاسيما لمناطق وادي الفرات، وهي تحتاج أيضاً إلى Toponymy دراسة علمية تفسّرها لغوياً، وتسعى إلى مطابقتها بالتلال الموجودة في المنطقة، اعتماداً على معطيات الشواهد النصية والتنقيبات وأعمال المسح الأثري.

يبلغ عدد أسماء الأمكنة المذكورة فيها نحو ستين اسماً، وأشهر الأسماء المعروفة منها هي: بلاد أمورو، بلاد آشور، آسو (تل الحديدي، شمالي تل مسكنة نحو ٣٢٠ كم)، بابل، إيلا، حلب، بلاد ختّي (الحثيين)، كاردونياش (الصيغة الكاشية لاسم بابل)، كركميش (جرابلس)، كيزو (قادش، تل النبي مند)، قطنا (تل المشرفة)، بلاد سوبارتو (الجزيرة السورية العليا)، سوخي (منطقة الفرات الأوسط، شرقي مدينة ماري)، توتول (تل البيعة).

وفيما يأتي نقدم ترجمة لطائفة من النصوص، تشكّل نماذج متنوعة عن أهم الموضوعات الإدارية اقتصادية في نصوص إيمار:

١- **بيع بيت**[٢٢]: (انظر منسوخات النصوص /١/).

" دَجَن تاليخ بن خيما"

٢/٤) باع بيتاً لـــ عشتارت بن [*] كَبَر"[٢٣]

مقابل ٧١ مثقالاً (نحو ٥٩٠ غ) من الفضة ثمناً له

---

٥) شاهد: "دَجَن كَبَر بن بيلو دَجَن"

شاهد: "يادي يالا بن رَشَف إيلو"

شاهد: "زو عشتارت بن كَلالو"

شاهد: "دَجَن بيلو [ ]

بن إنارا"

١٠) شاهد: "زو عشتارت" أخوه

خاتم: "زو عشتارت

بن كَلالو"

خاتم: [•] •

٢- **بيع كَرْم محدّد المساحة والحدود**[٢٥]: انظر منسوخات النصوص رقم /٢/)

كَرْمٌ – بقدر ما يكون– في مدينة أوري

طوله ثلاث أضلاع من حقل مساحته "إيكو"[٢٦] واحد (١٨٠م٢)

عرضه ضلعان من حقل مساحته "ايكو" واحد (١٢٠م٢)

الأرض المجاورة له في الجهة العليا تخصّ: " إيا مُدَمّيق بن زكريا"

٥) الأرض المجاورة له في الجهة السفلى تخصّ: "شيئي بيلو بن أخياو"

في جهة العرض الأول (أرض): "خَبو بن مادي" من أهالي مدينة وري

في جهة العرض الثاني (أرض): "بُوراقو بن مَجالي"

(هذا هو) كرم "بوتو خولاسي بن إيلي أخو"

وقد باعه "بوتو خولاسي بن إيلي أخو"

تشير الحاصرتان [ ] في النصوص إلى مواضع مكسورة في الرقيم.

١٠) إلى "ريبي دَجَن بن أبي ليخمو"

بثمن قدره ستون مثقالاً (٥٠٠غ) من الفضة.

في المستقبل

من يطالب بالكرم

عليه أن يعطي كمية مماثلة من الفضة إلى "ريبي دَجَن"

١٥) ويأخذ الكرم.

أما الآن فإن هذا الرقيم بكامله

سيوضع في خزانة سيدي.

أمام: "لاخيا" مدير المنطقة.

أمام: "بيلو مالك بن مَتْكالي دَجَن".

٢٠-٢٩) (أمام عشرة شهود آخرين يذكرون بالاسم الكامل)

٣- **قرض كفالة**[٢٧]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٣/)

١٥٠ مثقالاً (١٢٤٥غ) من الفضة

إلى [ ]

أعطاه [ ]

أعطاه [ ]

٥) "ريبا [ ]"

يكون كفيلاً له.

خمسة أحمال (١٥٠ كغ) من حجر الشب[٢٨]

- حسب مكيال السوق التجارية-

موضوعة في بيت " دَجَن كَبَر"

١٠) وهي تشكّل كفالة

كمية الفضة البالغة ١٥٠ مثقالاً.

خاتم: "فَخْريلا [ ]"

خاتم: [ ]

٤- **في التبنّي**[٢٩]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٤/)

"أَبدي إيلي بن أخي دَجَن" ، هكذا

قال: "[ ]

"سين رابو [ ]"

مقابل ٨٠ مثقالاً (٦٦٤غ) من الفضة، كامل الثمن [ ]

٥) وجَعَلَ "أبدي إيلي أخي دَجَن"

"شمش رابو "في بنوّته،

وأعطاه "عشتار كيمي "ابنته

زوجةً له.

وليتقاسما -وفقاً للأعراف المدنية- أبناء "شمش رابو"

١٠) فيما بينهما

إذاً – في المستقبل –

[ ]

[ ]

[ ]

[ ]

ليأخذ،

١٥) وليذهب حيثما يرغب قلبه.

إذا ما قال "أَبْدي إيلي" و [ ]

لابنهما "شمش رابة":

"أنت لست ابننا"،

جازَ له أن يأخذ يد زوجته وأبنائه،

٢٠) ويدفع ٨٠ مثقالاً من الفضة،

ويذهب حيثما يرغب قلبه.

خاتم: [ ]

[ ]

[ ] دَجَن [ ]

٢٥) أمام: "أَقْقي دَجَن بن كو [ ]"

أمام: "تيري دَجَن بن سيليم [ ]"

٥- **بيع حفيد**[٣٠]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٥/)

" أسدا أخي" زوجة "أمودو"

من أهالي مدينة "إيريب دا"

أعطت "بيلو تاليخ" ابن ابنتها

مقابل ٤٢ مثقالً (٣٤٩غ) من الفضة، كامل الثمن،

٥) بإرادتها التامة، ومن أجل الخدمة،

إلى "بعل بيلو" و "أبدي سين" ابني "ايرأم دَجَن".

ميتاً أو حياً

هو عبد لـــ بعل بيلو وأبدي سين".

إذاً – مستقبلاً

١٠) في الأيام الآتية – تقدّم أحدهم

باعتراض (على ذلك)،

فإن هذا الرقيم سيواجهه.

خاتم: "قوردو" من أهالي مدينة "آسو"

خاتم: : أدَد قَرّاد

١٥) ابن كَنارو"

خاتم: " إفقي دجن بن إي"

خاتم: "توري
ابن إيلو باني"

**

ب- نصوص دينية:

تشكّل نصوص إيمار الدينية قسماً كبيراً من مجموع نصوصها، وهي تتميز بطولها وإغراقها في التفصيلات، وتقدم معلومات كثيرة عامة عن المعتقدات الدينية في سورية خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وتكمل بذلك معلوماتنا عنها المستقاة من نصوص أوجاريت.

إنها تتحدث عن الهبات والنذور والأضاحي وأنواعها وعن الشعائر الدينية، التي كانت تُمارس خلال الاحتفالات والأعياد، وتساعد على معرفة أسماء الآلهة المعبودة ونعوتهم ووظائفه وموصفاتهم ومكانتهم، كما تكشف حقائق عن دور الكهنة في المجتمع ومراتبهم علاقاتهم مع الأسرة الحاكمة وعامة العشب،

تسهب النصوص في وصف جزئيات الشعائر الدينية المتبعة خلال الاحتفالات والأعياد، ومن أهمها الآتية:

١- عيد الذكر :

يعرض لنا نص طويل(٣١)، يقع في مئتين وأربعة عشر سطَراً، تفاصيل الشعائر الدينية، التي كانت تمارس هلال عيد معيّن يدعى في الأكدية (زُكْر). ورغم أن الأعياد والمناسبات الدينية معروفة على نطاق واسع في نصوص التراث الأكدي؛ فإنه لم يرد ذكر لهذا العيد في أي نص أكدي سابقاً.

وردت كلمة (زُكْر) مرة واحدة في رسالة من ماري، تؤرخ بمطلع الربع الثاني من الألف الثاني ق. م، أرسلها أحد الولاة إلى ملكها زيمري ليم (١٧٧٥-١٧٦٢/ ١٧٦١ ق.م). ولكنها لا تدل على عيد أو احتفال، وإنما جاءت معطوفة على كلمة (أَرْخ: أي

البقر)، ولذلك فُسّرت في المعجمات –دون حزم– بأنها تدل على الحيوانات المذكرة أو الذكور من العبيد[٣٢].

بعد نشر نصوص إيمار جرت محاولات لتحديد دلالة الكلمة، فذهب مارك ي. كوهين[٣٣]، Mark E. Cohen إلى أنها ذات صلة بالمواشي؛ بحجة أن جوهر شعائر الاحتفال هو صلتها بتكاثر قطعان المواشي، وإن إله العيد الرئيسي هو دَجَن الذي يُنعت بـــ "سيّد المواشي أو الأبقار"، ومعظم الأضاحي التي تقدم خلاله هي المواشي.

ولكنه لم يستطع دعم رأيه بأي شاهد معجمي مقارن من اللغات الشرقية (السامية) الأخرى. كما إن وصفه لجوهر الشعائر غير دقيق وللإله دجن نعوت أُخرى كثيرة، إذ ينعت في النص نفسه بـــ "سيّد الجبل، سيّد المخيمات، سيّد المستوطنات، سيّد الوادي..." أيضاً.

ورأى فلمنغ D.E. Fleming خلاف ذلك، واستبعد دلالتها على المواشي والحيوانات المذكّرة؛ ولاسيما أنه لا تلاحظ في النص أية خصوصية لها ضمن الحيوانات المنذورة، ورجّح صلتها بالطابع العام والهدف المنشود من إقامة الشعائر وهو التعبير عن التقوى والورع والخضوع، وفسرها بمعنى "الدعاء والابتهال"، واستشهد بدلالات مماثلة للجذر اللغوي (زكر) في الأكدية والعبرية، وأعتقد أنه رأي مقبول (ريثما تتوافر شواهد أخرى)، ونجد في العربية دلالات مماثلة للجذر (ذكر)[٣٥]، ولذلك اخترنا تسميته بـــ "عيد الذّكر".

كان هذا العيد المهرجان الاحتفالي الأكبر في إيمار. ويتميز بطول فترته الزمنية وشعائره الكثيرة، وتنوّع أضاحيه، ونذوره، وكثرة عدد الآلهة المشاركة فيه –نحو ثلاثين إلهاً– إلى جانب الإلهين الرئيسين: دَجَن كبير آلهة المجمع الديني في إيمار، نينورتا آلهة المدينة، ويعتقد أنها قرينة الإله دجن.

كان الاحتفال يتمّ سنوياً، ويبدأ عندما يصير القمر بدراً خلال الشهر الأخير من السنة (شهر زَرَت أي الزراعة والبذار)[٣٦]، وذلك في اليوم الرابع عشر – الخامس عشر منه.. ويستمر خلال الشهر الأول من السنة الجديدة (شهر رِش شِتّي أي رأس السنة)، وينتهي بعد نحو أسبوع من الشهر الثاني (شهر نِقَل أي المنجل). أي إنه كان يدوم سبعة أسابيع، وتجري شعائره خارج سور المدينة عند البّوابة الرئيسة التي كانت تنتصب على جانبيها حجارة، وتدعى في النص "بوابة الحجارة المنتصبة".

يفصل النص في وصف الشعائر حسب الأيام. فقد كانت توضع منضدات للتقدّمات والنذور والأكل والشراب، وتذبح الأضاحي (عجول، أغنام، خراف...)، وتحضّر أنواع من الخبز. وكان الإله دجن يأتي إلى الاحتفال بوساطة، ويستقبله سائر الآلهة، ويتمّ الاحتفال ويتخلّله الأكل والشراب والغناء.

يرصد النص تفصيلات ذلك خلال الأيام ١٤–٢٥ من الشهر الثاني عشر، ثم تستأنف مرة أخرى عند تمام القمر في منتصف الشهر الأول، فيجتمع الآلهة من جديد عند البوابة، ويحتفلون هم وعامة الشعب، وبعد الأكل والشراب يدهنون كل الأنصاب الحجرية بدهن الأضاحي ودمائها، وتعود الآلهة إلى مساكنها ليلاً. وفي اليوم العشرين منه توزّع النذور على جميع آلهة المدينة والقرى والمدن المجاورة لها، وتمرّ عربة الإله دَجَن بين أنصاب البوابة، ويسير الآلهة خلفها. وعندما تتوقف العربة يُكشف عن وجه الإله دَجَن، وتقدّم النذور له، ويُحتفل بحضوره . وبعد الأكل والشراب والارتواء من الخمرة يغطون وجه دجن وتمرّ عربته بين المذبحين المقدسين عند البوابة وتركب معه الآلهة نينورتا، وتسير عربتهما ووجهاهما مغطيان، ويعودان إلى المدينة. وتتكرر الشعائر نفسها في الشهر الثاني.

ويذكر النص في آخره مجموع الأضاحي التي تنذر خلال الاحتفال وهو: (٧٠٠) حملٍ، (٥٠) بقرة، (١٢) عجلاً[٣٧].

لا نلاحظ في الشعائر دوراً متميزاً واضحاً للأسرة الحاكمة والمعبد الديني والكهنة، ولكن الحاجات واللوازم كانت تُحْضَر من المخزن الرئيسي المركزي. ويبدو أنه كان عيداً شعبياً يشارك فيه أهل البادية أكثر من أهل المدينة، والراجح أنه ذو جذور قديمة ترقى إلى العصور السابقة للقرن الثالث عشر ق.م.

إن الإجابة عنها تحتاج قبل كل شيء إلى شواهد نصية أوفر، ولكن يمكن الذهاب مبدئياً إلى أنه يمثّل دورة السنة وتجديد الولاء والخضوع للسلطة السياسية ممثلة بالآلهة في حبكة مسرحية تمثيلية. فالزمان المختار له (آخر السنة الماضية ومطلع القادمة)، يشير بوضوح إلى دورة السنة، كما أن المكان يتّفق والمواقع المتطرفة (أكيتو)[٣٨]، خارج أسوار المدن، حيث كانت تقام احتفالات رأس السنة في بلاد الرافدين، كما في مدن نيبور وأور وأوروك وأدب وآشور...

ولا يخفى أن الأدوار المنسوبة إلى الآلهة الرئيسية والثانوية ذات طابع رمزي، والأرجح أن الملك والملكة والشخصيات القيادية المساعدة؛ المدنية منها والدينية، هي التي كانت تمثل أداور الآلهة دجن ونينورتا ومجموعة الآلهة الأخرى.

ويمكن القول -باختصار- إن هذه الشعائر هي مسرحية سياسية مغلّفة بإطار ديني يوحي بأن حكم البلاد صادر عن إرادة إلهية مفروضة، ويجب تجديد الولاء لها.

٢- عيد العرش:

تتحدث مجموعة صغيرة من النصوص عن عيد يدعى (كِسّو)[٣٩]، أُقيم لآلهة عدة بشكل منفرد "دجن، إيريش كي جال، إيا، إشخارا ونينورتا، نين كور"، وقد تباينت شعائرها، ولكنها لم تخلُ من مظاهر مشتركة.

اختلف الباحثون في تحديد دلالة الاسم (كِسّو)[٤٠]، الذي لا نملك شواهد أخرى عليه في غير نصوص إيمار. والراجح أن صيغته محرّفة عن كلمة (كُسّو) – بضم الكاف لا كسرها – وتعني "الكرسي، العرش".

يشكل النصان اللذان يصفان عيد العرش المخصص للآلهة "دجن وإيريش، كي جال ونين كور" أوضح نصوص المجموعة وأكملها[٤١]. أما الأخرى فهي إما موجزة أو غير كاملة بسبب الكسر.

كان يُحتفل بالإله دَجَن في عيد العرش في معبده بمدينة شَتَبي القريبة من إيمار، ويبدو أن شخصيات الاحتفال الرئيسة (الملك، العرّاف، كبير الكتبة...) كانت تحضر من إيمار. وكانت نذور العيد ومستلزمات الاحتفال به متنوعة، وشعائره محددة بدقة. وفيما يأتي نقدم ترجمة كاملة لأحد النصين تبيّن ذلك[٤٢]:

رقيم شعائر عد العرش في مدينة شَتَّبي.

عندما يحتفل أهالي مدينة شَتَّبي بعيد العرش للإله دَجَن (يتمّ ما يأتي):

في اليوم الأول: (توضع) خلاصة العطر على المنضدات،

يكرّمون آلهة المدينة بكميات من أنواع الخبز والجعة (البيرة)؛ وكذلك العرّاف وكبير الكتبة أيضاً.

٥) يدعون الإله نين كور يرقد في معبده، يقدّمون بقرة وخروفاً إلى نين كورا قرباناً.

تجاه الإله نين كور. يضعون أربع منضدات؛

منضدة الإله دَجَن، منضدة إشخارا ونينورتا،

منضدتا ألال وأمازا، يضعونهما بينهم على سطح الأرض.

١٠) في اليوم الثاني: يقدّمون اللحوم وخبز المؤونة قرباناً،

يوزعون خبز النذور في معبد دَجَن مرة لكل واحد، وعلى آلهة مدينة شَتَّبي أيضاً.

يضحّون خروفين على المبخرة الموجودة داخل المعبد قرباناً،

ويولّون وجههما شطر الآلهة.

يأكل الرجال منظّمو مراسيم التقديس ويشربون في معبده ثلاثة أيام.

١٥) في اليوم الثالث: يقدّمون لهم عادةً خروفين قرباناً،

كاهنة إله العاصفة وكاهنة مدينة شُومي وكاهنة مدينة شَتَّبي

[ ] منضداتهم، جرار الجعة وجرار "مَخَّر"

يتلقون باستمرار. وبالمقابل يُدخلون أربع قطع من خبز النذور،

ويضعونها في هذا اليوم أمام الآلهة.

٢٠) يضعون قطعة من الخبز المجفف، وواحدة من المجفف المعجون بالفواكه باستمرار.

في اليوم الرابع: يدعون الإله نين كور ينهض، خلال يومين يقدّمون فتاتين إلى الحارس الليلي.

وبعد أن يُدخِلوا الخبز والجعة إلى معبد الإله أُوذخا،

يدخل المنشدون، وينشد الإله شوالا نرجال، يأخذون (الدرب) أمامهم،

يدخل المنشدون،

و(كذلك) الرجال منظمّو شعائر التقديس، ثم يأخذ كل منهم من خبز النذور ثلاث مرات.

٢٥) يباركهم ملك البلد والعرّاف وكبير الكهنة بخبز الـ (خُكّ) وبجرّة من الجعة.

يعطون ثلاثين (مثقالاً) من الفضة إلى الإلهة إيريش كي جال.

في يوم مباركة عيد العرش

الخاص بالإلهة إيريش كي جال، يباركون الإلهة إيريش كي جال بخبز الـــ (خكّ)

وقطعة من الخبز المجفف المعجون بالفواكه وجرار من الجعة. يذبحون بقرة وثلاثة خراف في بيت صاحب المكان.

٣٠) خلال يومين؛ يضحون رأس بقرة ورؤوس خراف وأربعة أرغفة من خبز النذور وأربع قطع من الخبز المجفف؛ تكون واحدة منها معجونة بالفواكه.

يسير المنشدون إلى أمام الأضاحي، ويضحون بها للإلهة إيريش كي جال؛

يملؤون كؤوس الآلهة بالخمرة والجعة؛

يملؤون سبعين جرة بالجعة أمام الإلهة إيريش كي جال؛ ويضعون أمامهم سبعين رغيفاً من خبز الـــ (خُكّ) وسبعين قطعة لحم،

٣٥) كما يقدّمون أربع جرار كاملة أيضاً.

يتقاسم المرتّلون الذين قاموا بإحياء كلّ ما في الجرار.

يطوف المرتّلون الذين قاموا بإحياء المباركة في معبده؛ يأكلون ويشربون، وكما في السابق يأخذ الرجال الطاهرون منضدتين.

* *

٣- عيد تنصيب كاهنة بعل إله العاصفة[٤٣]:

كان الاحتفال بهذا العيد يدوم عشرة أيام. تُختار خلاله إحدى الفتيات من عامة الشعب لتكون كاهنة للإله بعل، وتقبل الزواج منه، وتنتقل إلى بيت الحداد (Bit Bukki)، ضمن معبد الإله بعل.

كان التصديق على قرار اختيار الفتاة من قبل مجلس شيوخ المدينة، ولم يكن للقصر الملكي دور في ذلك. ومن الشعائر الاحتفالية بهذا الزواج انتقال الفتاة من بيت أبيها إلى معبد بعل، ثم العودة. وفي اليوم الأخير يُقام العرس المقدس، وتنتقل الفتاة إلى المعبد نهائياً.

تبدو في شعائر هذا العيد بعض المظاهر التي تمثل فكرة القربان والتضحية بالنفس وبعض الممارسات الرمزية مثل دهن الرأس بالزيت وقصّ العشر. والراجح أن الزواج فيه عنصر رمزي، إذ إنه يخلو من تشخيص العروس (المذكر)، وأُغفلت مشاركته في الشعائر.

لقد كانت المعتقدات الدينية في إيمار قائمة على التعددية الإلهية، كما في سائر مناطق الشرق القديم، وكان فيها عشرات الآلهة؛ ولكل وظيفته ونعوته ومظاهره ورموزه الخاصة، وكان أغلبهم من الآلهة المعروفة لدى الشعوب الشرقية القديمة.

وتتضح الأهمية الدينية لإيمار من خلال المعابد والأماكن المقدسة الكثيرة المكتشفة فيها أو المذكورة في النصوص، فقد كشفت عن معابد للآلهة دَجَن وعشتارت وبعل ونيورتا، وتتحدث النصوص عن أماكن مقدسة عدة مثل: بيت الحداد، بيت العَوْن، بيت الآلهة، بت السرير... وغيرها.

إن وقوع إيمار في وسط عوالم حضارية كبرى في المنطقة مثل حضارة بلاد الرافدين والحضارة الحورية والحثية والسورية جعلها معرّضة للتأثّر بها، ولكنها رغم ذلك حافظت على ملامح سورية فراتية خاصة في مجال المعتقدات الدينية؛ وقد تمثل ذلك -كما رأينا- في الشعائر الدينية الاحتفالية وفي بنية المجمع الديني، وكذلك في طابع العمارة الدينية المتميز من الناحية الأثرية الفنية.

ج- نصوص لغوية معجمية:

تقدّم لنا هذه النصوص –التي تبلغ سبعة وستين نصاً مركباً من رُقم وكسر كثيرة[٤٤]– شواهد على بواكير التفكير اللغوي المعجمي في سورية، وتغني معارفنا المستخلصة من نصوص إيلا المعجمية الأقدم زمناً، ومن نصوص أوجاريت المعاصرة لها.

إنها تدلّل على حسّ لغوي متميز كان يمتلكه مصنّفو تلك الفهارس الثنائية اللغة (سومرية– أكدية) الجامعة للمفردات أو العلامات الكتابية، والمرتبة وفق معايير معنوية أو لفظية. كما تعكس حقيقة أن مستخدمي اللغة الأكدية لم يستطيعوا التخلص من تأثير اللغة السومرية التي ظلت مهيمنة نفسياً وروحياً في سائر مناطق بلاد الرافدين وسورية، رغم انتهاء النفوذ السومري السياسي والانتشار الواسع للأكدية.

من أبرز تلك النصوص أجزاء من سلسلة معجمية سومرية أكدية معروفة تعدّ من أضخم التصانيف المعجمية في الشرق القديم،، وعنوانها (HAR-ra=hubullu)[٤٦] أي "الفوائد[٤٧].

تتألف من اثنين وعشرين نصاً طويلاً[٤٧]، صنفت فيها الرموز أو الكلمات السومرية ومعادلاتها الأكدية بشكل متجاور وبأساليب مختلفة، أهمها:

١) الحقول الاشتقاقية:

عُرض فيه رمز سومري محدّد ثم الدلالات المشتقة منه بوساطة إلصاق رموز أخرى، وذُكرت مقابلها المترادفات الأكدية لها، كما في المثال الآتي[٤٨]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٦/).

,di	*dīnu*	"القضاء الحكم"
di. ku_5	*dayyānu*	"القاضي، الحاكم"
di. ku_5. gal	*diqugallu*	"القاضي الكبير، كبير القضاة"
di. ku_5. gal	*šāpiṭu*	"قاضي المنطقة أو حاكمها"
di.ku_5. uru	*dayyān āli*	"قاضي المدينة"
di. ku_5. lugal	*dayyān šarri*	"قاضي الملك"
di. ku_5. en. ne	*dayyānšunu*	"قاضيهم"

٢) الحقول الدلالية:

يغلب هذا الأسلوب التصنيفي على نصوص إيمار المعجمية، إذ صنفت مواد لغوية كثيرة وفقاً للإطار الدلالي المعنوي الجامع بينها، ومنها[٤٩]:

- أسماء الشجر والمواد المصنعة من خشبها (أكثر من ٥٠٠ اسم).
- أسماء المصنوعات الجلدية (نحو ٣٠٠ اسم).
- أسما مواد وأدوات معدنية (برونزية، وفضية، وذهبية)، بعضها منفصل عن بعض (نحو ٣٠٠ اسم).
- أسماء الحيوان (نحو ٣٠٠ اسم).
- أسماء أعضاء جسم الحيوان (نحو ٩٠ اسماً).
- أسماء الحجارة والمعادن.
- أسماء الأسماك والطيور.

٣) الحقول المقطعية:

وهي على نوعين، هما:

أ- مقطعية مركّبة:

تركيبات سومرية مختلفة تعتمد على تكرّر مقطع صوتي معيّن في مقطعية مختلفة، وبإزائها المعادلات الأكدية المتولدة والمختلفة في معانيها، كما في الشاهد الآتي الذي يعتمد على المقطع الصوتي (ni)(٥٠):

"السّكْر، الرتّاج"	*ši- ga- ru*	ni . a
"الامتلاء؟"	*še- ḫu*	a . ni
"الجابي، المُتسلّم"	*ma- ki- su*	tab . ni
"المعسكر، المخيم"	*ka- ra- šu*	kas. ni
"الدّهن والصقل"	*še- i - qu*	ni. mu. ba
"متقلّص"	*kal - ṣu*	be . ni
"أداة من القصب"	*gu₄ - šu- ú*	be. ni. ḫi

ب- مقطعية مفردة:

جُمعت فيها ألفاظ أكدية مختلفة في اللفظ والمعنى، ومتفقة في المقطع السومري المفرد الذي يرادفها، كما في الشاهد الآتي(٥١): (انظر منسوخات النصوص رقم /٦/):

"حرف تعليل بمعنى: بسبب لأن..."	*aššu*	mu
"امرأة"	*iššu*	mu
"اليمين، القَسَم"	*nīšu*	mu
"الكلمة، الاسم"	*zikru*	mu
"التكلّم، التسمية"	*zakāru*	mu
"الاسم"	*šumu*	mu
"السنة"	*šattu*	mu
"الخالة"	*ḫāltu*	mu
"الطبّاخ"	*muḫatimmu*	mu

٤) جداول أسماء الأعلام:

ثمة جداول عدة تضمّنت أسماء آلهة أو أمكنة؛ منها نص مطوّل يضم أسماء أكثر من مئة إله[٥٢]، وآخر يشكّل قائمة جغرافية بأسماء أبرز المدن في بلاد الرافدين (مثل: نيبور، أور، سيبار، كيش، جيرسو، أكّد، لَجَش، كَزَلّو، بيربتم، دينيكتو، إشنونا، أرَّبخا، بابل،....)، أو في المناطق المجاورة لها (مثل: سوبير، أمورو، مَرْخاشي، عيلام، ديلمون، ملُوخَا،....)، وأشهر المدن السورية القديمة (مثل: حلب، حاصور، قطنا...)، أو الأناضولية (مثل: كانيش، بُرُشْخندا). ويبلغ عددها نحو (٢٨٠) موقعاً جغرافياً[٥٣].

كما صنفت في جدول آخر[٥٤]، أسماء جبال (مثل: جبال الفضة أي طوروس، جبل بَشَر أي البشري)، وأسماء أنهار (مثل: دجلة، الفرات، نهر الأسماك، نهر العقارب، نهر العصافير، نهر الجنة، النهر الحديث، النهر القديم، نهر آشور، الزّاب، أنهار منسوبة إلى ملوك من سلالة بابل الأولى...). ولا شك في أن كثيراً منها يدلّ على قنوات وروافدَ نهرية.

٥) سلسلة " رَجُلُها awīlša"[٥٥]

توجد بين نصوص إسمار مجموعة تشكل نصاً مؤلفاً من (٤٣٣) سطراً، ويبدأ بالعنوان "رُجُلها"، حيث تعرض معادلات أكدية مختلفة لكلمة "الرَّجُل" في السومرية، وهي: (هو، الذي، أيّ، مَنْ، السيّد، الرجل، الملك).

ثم يستطرد كاتب النص في إيراد صفات خاصة بالرجال ومراتبهم ووظائفهم الإدارية ومهنهم اليدوية وأعمالهم الخدمية. وينتقل بعدها إلى النساء فيورد طائفة من أعمالهن وصفاتهن؛ فهناك الكاتبة والهائمة في الطرقات والعاهرة والعاملة في خدمة المدينة والمشتغلة في الحقل وغير ذلك.

كان مصنّفو هذه الأعمال المعجمية حريصين على تدوين أسمائهم في أواخرها، وغالباً ما تضمنت التذييل الآتي:

"دُوَّن بي (فلان بن فلان) الكاتب، خادم الآلهة شيوخ مدينة إيمار، عبد الإله نَبُو (إله الكتابة والحكمة)، والإلهة نيسابا (إلهة القلم والمعرفة)، والإله مَرْدوك وقرينته صَرْبَنيتم (الإلهان الرئيسان في مدينة بابل).

وقد يذكر الكاتب أسماء آلهة أخرى أيضاً. ومن أولئك الكتّاب نذكر: بعل مالك، بعل بيلو، إشما دَجَن، رَشَف أبو، ريبي دَجَن، وغيرهم.

د- نصوص أدبية[٥٦]:

هنالك ثمانية نصوص متفاوتة في الطول. وهي ذات أهمية خاصة بسبب قلة النصوص الأكدية المكتشفة في سورية، وتميزها بموضوعاتها الفكرية.

يقدّم لنا النص الأول مقطعاً قصيراً من ملحمة جلجامش (الرقيم الرابع). ويتضمن الثاني تسعة وأربعين سطراً من الملحمة (الرقيم السادس)، وهو المقطع الذي تحاول فيه الآلهة عشتار إغراء جلجامش كي يتزوجها، ولكنه يرفض؛ بل يوبّخها ويذكّرها بأفعالها السيئة مع عشاقها السابقين، ويخاطبها قائلاً[٥٧]:

(أنتِ) بابٌ خلفيّ لا يصدُّ الريحَ،

فيلٌ يطرحُ رَحْلَه، ، قارٌ

يلوّث حامله، قُربةٌ تُبلِّلُ

حاملها، كبش يهدِّم حائط (الأصدقاء)،

حذاء يَخزُ السّائر

....

أما النصّان الثالث والرابع فيتضمنان مناظرة هجائية بين شجرتي الأثل والنخلة، وهو نص فريد من فنّه الأدبي وقدمه التاريخي، ويشكل أنموذجاً من إبداعات الشرق القديم ذات الطابع الجمالي.

وفي النص الخامس نجد أنموذجاً من أدب الحكمة في صيغة حوار بين أب وابنه. نقرأ فيه آراءً هادئة عميقة الأبعاد عن الحياة وسيرورتها؛ فهو يبدأ ببيان أهمية آراء الأسلاف وتجاربهم، ثم يحضّ الأب فيه ابنه على السفر، ويزوّده بنصائح تفيده. ولكن الابن – كما يبدو– يخالف أباه في الرأي، ويعرب عن حزنه تجاه واقع أبناء جلدته ومعاناتهم وقلقهم وعدم جدوى سعيهم وكدّهم، ويؤمن بأن الحياة الحرة الكريمة لا تتحقق من غير الاستقرار والتحرر من العبودية والانصراف إلى الأبناء، وبأن الموت حقّ والخلود البشري وهم.

ونقرأ في النص السادس تأملات فكرية في مسألة الحياة والموت تتكرّر بأن حياة البشر ماضية إلى الفناء، وتكرر الفكر نفسها في النص السابع الذي جاء فيه ما يأتي(٥٨):

الحياة كلّها ليست سوى عمى العين

حياة البشرية ليست شيئاً

أين الملك ألولو الذي حكم (٣٦٠٠) سنة؟

أين الملك إنتنا الذي صعد إلى السموات؟

أين القائد جلجامش الذي نشد مراراً الحياةَ الأبدية مثل زيوسدرا؟

أين خواوا؟

أين إنكيدو الذي شاعت قوته في البلاد؟

أين بازي؟ أين زيزي؟

أين الملوك العظام الذين – منذ الأزل حتى الآن–

لم يُنجَب مثلهم بعد، لم يولدوا بعد؟

ما معنى الحياة بلا مجد؟ ماذا سنأخذ منها إلى الموت؟

أما النص الثامن فهو دعاء للملك بطول الأيام والسنوات ومباركة الآلهة له ومنه الحياة السعيدة ووهبه فن الكتابة والقوة الجسدية وبهجة القلب والخير الوفير وطمأنينة النفس والروح.

تبدو هذه النصوص متأثرة بأدب بلاد الرافدين، وهي تعكس بذلك الوحدة الحضارية القديمة في المنطقة. كما تقدم لنا شواهد على أسبقية الإبداعات الشرقية الأدبية على الإغريقية وتفوّقها في جمالياتها الفنية ومضامينها الفكرية العميقة.

هـ- تعويذات وتكهّنات:

كان تأليف التعويذات في الشرق القديم يعدّ من الفنون الأدبية، وقد صيغت بلغة تصويرية متميزة عن لغة النصوص السياسية والاقتصادية أو غيرها. وتشكّل مجموعة نصوص التعويذات المكتشفة في إبلا أقدم الشواهد الأدبية المدوّنة بلغة شرقية قديمة (سامية)[٥٩].

كانت التقاليد الشعبية تفرض على الكتّاب -ومعظمهم من الكهنة- ضرورة معرفة صياغة التعويذات، وقد كانت تلبّي حاجة روحية نفسية، وتساعد في حل كثير من الأزمات. وكانت التعويذات في غالبيتها أدعية موجهة إلى الآلهة، وتنشد في احتفالات شعائرية تضمنت تقديم أضاحٍ، وترافقها شعائر معينة تختلف بحسب نوع المرض أو المشكلة.

ويتضح من نصوص التعويذات المكتشفة في مواقع عدة أنها كانت ذات أهمية في المعالجات الطبية لأمراض مختلفة، مثل أمراض العين، أمراض الأطفال، والرضّع، أمراض الفم، الإمساك، اليرقان، آلام المخاض، الحرارة، الشلل، لدغ الأفاعي، طرد الأرواح الشريرة، وغير ذلك[٦٠].

نجد بين نصوص إيمار عشرة نصوص تتضمن تعويذات؛ ستة منها باللغة السومرية، وأربعة بالأكدية، وهي تشكل إضافة مهمّة إلى الشواهد المماثلة المكتشفة في مراكز حضارية سورية أخرى، مثل إيلا، وأوجاريت، وآلالاخ، وقطنا، وحماة، من أهمها وأوضحها ثلاث تعويذات باللغة السومرية أُلِّفت للوقاية من الأرواح الشريرة[٦١]، واثنتان باللغة الأكدية لمعالجة مرض الشلل، وفيما يأتي نقدم ترجمة لواحدة منهما[٦٢]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٧/).

(يا أيها) الشَلَلُ الشلل؛ شلل اللحم (الجسد)، شلل العضلات،

شلل الأفعى، شلل العقرب، شلل الموت،

الذي وُجِدْتَ في الجسم، ولدت في لحمه،

استحوذت على ركّبه، أضعفت عضلاته، أهلكتَ،

٥) آذيتَ لحمه، شوّهتَ [ ]

هيئته، غيّرت ملامحه، ملأته بالرعب

والتشجنات والكدّر (؟)، أصبته بالخوف والقلق

وبألم الرأس والجلد وأنزلت به شلل الجسد.

لماذا تسعى إلى التهام لحمه وتناثرِ لحم عظامه؟

١٠) سوف تَخرج وتُخرج سمومك. أنت الذي تلسع كالنحل،

الذي تمزّق جسد (المريض)، الذي تغيّر ملامحه،

الذي تجعل قَسَمات وجهه متجهمة، الذي تلدغ كالأفعى،

الذي تجعله يتلوّى و[ ]

وتجعل قسمات وجهه متجهمة [ ]

١٥) لماذا تُصيب الفتى والفتاة، وتجعل العجوزَ يهذي،

وتجعل الطفل يدور حول نفسه؟ تلدغ كالأفعى، تلسع كالعقرب،

تضرب بقرنيك، وتَخرُ بذيلك،

تُبعد الفتى عن حضن الفتاة، وتبعد الفتاة عن حضن الفتى؟

ليحجزك –أيها الشلل – [ ]

٢٠) ليقبض عليك "نين حيرسو" سيد التعويذات [ ]

ستخرج أيها الشلل مثل الريح من الشّرج،

مثل [ ]

مثل [ ] ستخرج أيها الشلل.

لتوجهم [ ] الإلهية، ليواجهك الباب.

٢٥) [ ] يبعد،

[ ]، لتواجهك الإلهة عشتار، وبلاد [ ]

ليواجهك كبريت [ ]

[ ]

[ ]

٣٠) [ ]

[ ]

مثل [ ]

سيهدأ المرض إذا ما حملوك، ليكسره الإله أدد.

٣٥) يا تعويذة "إنْ إنْ أورو"[٦٣]

المواد اللازمة للشعائر المرافقة هي[٦٤]: حجر الـ "نير بَيّر دِلّو"، حجر العقيق، اللازورد، ذرات الـ "أشجيج"،

الشبّ، ياقوت(؟) الجبل، [ ]

خبز الشعير، حجر البلق، نبات الـ "إلّيل"،

٤٠) حجر الـ "سكِلّ"، حجر الـ "موص"، حجر الـ "زلق"،

عجينة الزجاج، عجينة الزجاج الأسود، النحاس المنكر، الحديد، مرجان البحار، الكبريت، الكبريت الأصفر، شمع العسل.

* *

وثمة عدد كبير من النصوص التي تنضوي في إطار الكهنة أو العرافة. وهي نصوص سُجلت فيها ملاحظات دقيقة تتعلق بشؤون الزراعة من حيث أوقاتها المناسبة والأعمال اللازمة لها، وذلك في صورة جداول شبه يومية، ويمكن عدّها "تقاويم زراعية"[٦٥].

ومنها نصوص تتضمن تكهنات فلكية تتعلق بالكواكب، وأخرى تعرض فيها تكهنات مستوحاة من الخطوط الثنيات والأشكالَ الموجودة في كبد الحيوان[٦٦]. وقد كانت "العرافة الكبدية" شائعة في سورية قبل ذلك، وقد كشف عن مجموعة نصوص تمثّل شواهد عليها في ماري (تل الحريري)، وتعود إلى القرن الثامن عشر ق.م.

و– رسائل:

يبلغ عدد الرسائل الأكدية المكتشفة ثماني عشرة رسالة، وهو عدد قليل، ولا يفيد كثيراً في التعرف إلى أوضاع المملكة وعلاقاتها السياسية؛ وهو أمر ينعكس عادة في الرسائل الرسمية.

إنها رسائل متبادلة بين حكام المدينة وولاتهم في المدن الأخرى أو التابعين لهم، وهي تتفق في أسلوب صياغتها وأسلوب كتابة الرسائل الرسمية، خلال القرنين الرابع عشر

والثالث عشر ق.م؛ كما في رسائل تل العمارنة بمصر وأوجاريت. وفيما يأتي أنموذج من رسائل إيمار[٦٧]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٨/).

إلى "مدير المنطقة"؛
سيدي، قلْ
ما يأتي: من "شيني صوري"
خادمك.

---

٥) على قدمي سيدي، من بعيد،
أركع مرتين؛ سبع مرات.

وعندما تكون الأحوال في بيت سيدي
وفي المدينة
سليمة تماماً كلها،
١٠) وأحوال سيدي فيها
سليمة تماماً
فليرسلوا إليّ خبراً

عندما تجوّلت في مدينة شاّبي
كان (كل شيء) سليماً تماماً
١٥) فيما يتعلق بـ [ ]

فهو تحت تصرّف "كيلي شرُما"

ما إن قَدِمَ

الأخلاميّان(٦٨)

من بلاد سوخي(٦٩)

٢٠-٢١) حتى قالا ما يأتي:

"لقد غزا حاكم بلاد سوخي

بعرباته وجنوده

بلاد قطنا(٧٠) بقوة"

٢٥) وبعد (انتهاء)

هذا الحدث،

عن كل الأسلاب

التي نهبوها

سأكتب إلى سيدي.

٣٠) لابني "أخي مالك"

قلْ

ما يأتي – من"شيني صوري" – :

الأمور سليمة عندي

وإن تكن هناك، عند "مدير المنطقة"،

٣٥) وعندك سليمة تماماً،

٣٦-٣٧) فليرسلوا إليّ خبراً.

فيما يتعلق بذاك الرسول

٣٩-٤٠) الذي تحدثتَ عنه، فقد نقلته إلى السجن

[ ] إلى "إشبي دَجَن"

[ ] سليمة.

* *

ز- وصايا:

ثمة مجموعة نصوص تبلغ خمسة وثلاثين نصاً، تتضمن وصايا شخصية تتعلق بالميراث وتنظيمه بين الأبناء، ويقر فيها الموصي أو الموصية بتوريث ممتلكاته من بيوت أو بساتين أو أراضٍ أو أدوات، أو يوصي بتزويج بناته من رجال معينين بعد وفاته.

يُلاحظ فيها تأكيد الموصي على تقييد تنفيذ الوصية بالرعاية الحسنة له من قبل الموصي - ابناً أو ابنةً-، وذلك خلال الأيام الباقية من حياته، وإذا ما حصل خلاف ذلك فلا يحق الميراث له؛ بل يتوجّب عليه مغادرة مسكنه.

وقد حُرِّرت الوصايا أحياناً بحضور وجهاء المدينة وشيوخها، كما حُرِّر بعضها أمام ملكين من ملوك مدينة كركميش (جرابلس)[٧١]. وقد كانت كركميش آنذاك خاضعة للاحتلال الحثي ومركزاً عسكرياً لهم، ينطلقون منه لقمع تمردات المدن السورية.

كانت الوصايا تُذيّل بأختام معروفة، ويرد في آخرها ذكر أسماء شهود، وقد يُذكر اسم كاتب الوصية. وكأنموذج لها نورد النص الآتي[٧٢]: (انظر منسوخات النصوص رقم /٩/).

"ألاخي" زوجة "شجال بن كوزي"
قالت ما يأتي: هاهي ذي
"يموت دماري "ابنتي،
لقد عاشت أيام "ألاخي" أمها.
٥) ليت ابنتي "يموت دماري" تعتني بي!
إن تعتن بي أهبها
-بعد أن يأخذني قدري-
بيتي وأملاكي. (نعم) إلى "يموت دماري"
ابنتي، ولا يوجد وريث (آخر)
١٠) أشركه (معها).

إن - في المستقبل-
تقل "يموت دماري" أمام
"ألاخي" أمها ما يأتي:
"أنتِ لست أمي، ولن
١٥) أعتني بك، فإنّ "يموت دماري"
لا تملك حقوقاً على أبنائها. ولتضع ثيابها على الكرسي،
وتذهب حيثما تشاء.

وفي المستقبل لا يحق لأي شخص
أن يدّعي ضد "سموت دماري"
٢٠) من تدعي شيئاً،
فإن هذا الرقيم يواجهها.

خاتم: "دَجَن بيلو
ابن زو بعلي"

خاتم: "سين تالي
ابن موتو"

خاتم: "زوعشتارت
ابن خوروخوما"

شاهد: "تيري دَجَن"
الرجل السُوتي(٧٣)

لقد كانت مدينة إيمار مركز مملكة فراتية صغيرة، ولكنها تمتعت بأهمية جغرافية لموقعها المتوسط بين ممالك أساسية ظهرت في المنطقة خلال فترات تاريخية متتالية؛ مثل إيلا وماري والمملكة الحثية ومملكة ميتاني. فاستفادت من الحركة التجارية النشطة في مرفئها الذي كان محطة تربط سورية الداخلية ببلاد الرافدين، ومملكة ميتاني شرقاً وببلاد الحثيين في الأناضول شمالاً. وحقق ذلك ازدهاراً اقتصادياً فيها تجلى بوضوح في النصوص الإدارية والاقتصادية المكتشفة فيها.

كان الاستقرار الاقتصادي عاملاً أساسياً في ازدهار المظاهر الحضارية المختلفة فيها، وفي تميزها بملامح خاصة انعكست في معظم وثائقها الكتابية.

لقد حاول هذا البحث استقراء جميع وثائقها السومرية والأكدية (البابلية الوسيطة)، وتقديم لمحة شاملة عن أهم موضوعاتها وأساليبها،وحرص على تقديم نماذج منها متنوعة منها، تترجم من لغتها الأم إلى اللغة العربية أول مرة.

ولكن مما لاشك فيه أنها تحتاج إلى دراسات معمقة أكثر تفصيلاً لجوانبها المختلفة، وأن نشر نصوص إيمار المدونة باللغتين الحثية والحورية سيزيد معارفنا عن تاريخها السياسي والحضاري، ويوضّح إلى حد كبير مكانتها وإسهاماتها الحضارية في تاريخ سورية والشرق القديم عامة خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق. م.

الهوامش

(١) راجع: A. Archi: Imâr au IIleme millénaire d'après les archives d'Ebla. M. A. R. I. 6 (1990) 32-38.

(٢) نشرت هذه المجموعة في: D. Charpin Tablettes présargoniques de Mar M. A. R. I. 5 (1987) 65 - 127.

(٣) راجع الدراسة المفصلة لها: J-M. Dumad: La cité - état d'Imar a l'époque des rois de Man. M. A. R. 1. 6 (1990)39- 92.

(٤) تقع مدينة أبتُّم (في الأصل أبرتُم، أي: المعبر، العابرة) بحسب الشواهد النصية المختلفة على الضفة اليسرى للفرات بين إيمار وتوتول (تل البيعة، قرب مدينة الرقة)، لم تحقق مطابقتها مع إحدى التلال هناك بعد.

(٥) راجع نصوص ألالاخ ذوات الأرقام الآتية: ٣٤٨، ٢٦٩، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٣٨ في الكتاب D. Wiseman: The Alalakh Tablets. London 1953.

(٦) F. Joannes: Une mention d'Emar dans on Texte dc 1-Harâdum M A R 1 6 (1990) 121 - 122.

(٧) راجع النصين ١٨١، ١٦١ من نصوص آلالاخ.

(٨) راجع الترجمة لنقش إدريمي في:

عيد مرعي: **أدريمي ملك آلالاخ**. دراسات تاريخية، ٢٩-٣٠ (١٩٨٨)، ص ١٠٣- ١٢٦.

(٩) راجع النص ٣، ٨٩ من نصوص ألالاخ.

(١٠) راجع سجل المواقع الجغرافية في النصوص المسمارية (أطلس توبنجن) المعروف بالاختصار (RGTC)، الجزء السادس، ص ٤٨ وما بعدها.

(١١) E. Sarre, E. Herzfeld; Archaeologische Reise in Euphrat- und Tigris- Gebiet. Berlin 1911- 1920.

(١٢) راجع: **التقرير الأولي عن أعمال البعثة في**: دليل معرض مكتشفات الحملة الدولية لإنقاذ آثار الفرات (المتحف الوطني بحلب ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٤)، ص ١١٠-١١٤.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٩٠-٩٢.

(١٤) أدار البعثة من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف د. شوقي شعث، وشاركه العمل في البداية وضاح محيي الدين والمرحوم محمد لحلوح. أما فريق الجامعة فقد أداره في البداية د. عبد المعطي الخضر (كلية العمارة)، ثم تولى إدارته بدءاً من الموسم الثالث ١٩٩٤ د. فاروق اسماعيل، د. محمد صالح الآلوسي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، وشارك في موسمي ١٩٩٤-١٩٩٥ الطلاب: نصر الحمدو، عمر محمود، عبد الرحمن العبيد.

(١٥) تكوّنت البعثة السورية- الألمانية خلال موسم ١٩٩٦ من السادة: د. شوقي شعث، د. فاروق اسماعيل، د. أوفة فينبايتر، د. محمد صالح الآلوسي، د، صخر علي، د. توماس لايستن، د. بريجيت فينباينر، جرتي برويس، سوزان فليهلم، بتينافايست، دانيل شفمر، ديتر موللر، روبرت بوش، هاينكه بيترس، إدريس حسين، نصر الحمدو، أحمد الراوي.

(١٦) تعتمد هذه المعلومات عن نتائج موسم ١٩٩٦ على تقرير أولي قدمته البعثة إلى المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق.

(١٧) هذا هو رأي دانيل آرنو المنشور في: D. Arnaud: Les textes suméro- Meskene- Emar, dix ans de accadiens; un flonilège. in: D. Beyer; travaux 1972- 1982. Mission anchéologique de Meskéné- Emar. Paris 1982. p. 43

وأعتقد أنه من الأفضل تأريخ دمار المدينة بسنة ١١٨٦ق.م. لأن النص ذا الرقم (٢٦) من نصوص المجموعة (Emar VI) مؤرخ بالسنة الثانية من عهد الملك بابل الكاشي (مليشيخو) الذي حكم بين ١١٨٧-١١٧٣ق.م.

(١٨) D. Arnaud: Recherches au pays d'Aštata, Emar IV, 1-4, paris 1985-1987.

ومما يجدر ذكره وجود عدد كبير من رقم إيمار التي كشف عنها خارج إطار التنقيبات الرسمية، وقد وصلت عن طريق تجار الآثار وبطرق غير مشروعة إلى اليابان وأميريكة وألمانية وإسبانية والقدس، وقد نشر قسم منها في دوريات علمية معروفة. راجع على سبيل المثال:

M. Signist, JCS 34 (1982) 242 - *252.*
J. Huehnengand, RA 77 (1983) 11 -43.
A. Tsukimoto, Acta sum. 6(1984), 8(1986), 10(1988), 14(1992).
K. Deller- A. Tsukimoto: Ba. M. 16 (1985) 317 - 326.
K. Watanabe: Acta sum. 9 (1987) 277 -291.
D. Arnaud: SMEA 30(1992)195 -245.

(١٩) عن المراحل التاريخية للغة الأكدية راجع. د. فاروق اسماعيل، **اللغة الأكدية**، الموسوعة العربية بدمشق (قيد الطباعة).

(٢٠) نشر د. بير تقريراً أولياً موجزاً عنها في:

D. Beyer; Meskéné- Emar. clix ans de travaux 1972- 1982. pp. 61-68.

وسينشرها كاملة ضمن المجلد الرابع من نتائج التنقيبات الأثرية في الموقع (Emar IV).

(٢١) راجع F.M. Fales: Notes on- the Royal Family of Emar. Mélanges p. Garelli. Paris 1991. pp. 81- 90.

(٢٢) النص رقم (٨١) من نصوص إيمار المنشورة (Emar IV).

(٢٣) ربما يكون ابن أدد كَبَر الملك.

(٢٤) في الأكدية: شقل وهي وحدة وزن قديمة تعادل ٨,٣ غرامات.

(٢٥) النص رقم (٩٠) من نصوص إيمار.

(٢٦) إيكو وحدة مساحة أكدية تعادل ٣٦٠٠م٢ (٣٠×٦٠م).

(٢٧) النص رقم (٨٧) من نصوص إيمار.

(٢٨) الشَّب حجر معروف يشبه الزاج، يدبغ به الجلود (لسان العرب: ١ : ٤٨٣)، وفي الأكدية (جبّ، جبّي)، ويتضح من شواهده النصية أنه كان يجلب من مصر وسيناء وبلاد الأناضول، ويستعمل لصناعة الزجاج ودباغة الجلود والمنسوجات، وكذلك لأغراض طبية، حيث كان يدهن به الجسم بعد خلطه بالزيت. راجع معجم اللغة الأكدية : von Soden; AFIw, 272.

(٢٩) النص رقم (٢٩) من نصوص إيمار.

(٣٠) النص رقم (٧) من نصوص إيمار،

(٣١) هو النص رقم (٣٧٣). وهناك نصوص قصيرة أخرى في الموضوع نفسه (٣٧٤-٣٧٧). وقد استغنينا عن تقديم منسوخات النصوص الدينية في القائمة الموجودة في آخر البحث نظراً لطولها وتألفها من رُقم وكسر كثيرة جداً.

(٣٢) راجع المعجمين: AHw1536,CAD/Z, 153.

(٣٣) Mark E. Cohen: The Cultic Calendars of the Ancient Near East. CDL Press, Bethesda, Maryland. 1993. p. 346.

(٣٤) F. Fleming: The Installation of Baal's high Priestess at Emar: A D. Window on ancient Syrian Religion. Diss. Harvard Uni. 1990. p. 327 (n. 109).

(٣٥) انظر **لسان العرب**، ٤ : ٣١٠.

(٣٦) عن أسماء الشهور في الشرق القديم، راجع كتاب كوهين لمذكور في الحاشية (٣٣).

(٣٧) في السطرين ٢١٣-٢١٤.

(٣٨) راجع الدراسة المفصلة عن احتفالات رأس السنة (أكيتو) وشعائرها في كتاب كوهين (الحاشية ٣٣)، ص ٤٠٠-٤٥٣.

(٣٩) عددها سبعة نصوص، هي ذوات الأرقام (٣٨٥-٣٩١). وهناك نص آخر نشره الباحث الياباني تسوكسموتو. راجع:

A. Tsukimoto, Acta sum. 14 (1992) 299 if (Nr. 49).

(٤٠) ذهب د. آرنو في البداية إلى أنها كلمة حورية، ثم اقترح بعد ذلك مقابلتها مع الكلمة العبرية (كِسِه) أي: (البدر). ورأى مارك كوهين أنها مشتقة من الجذر اللغوي (ج ز ز)، بمعنى الجزّ والقص، أما د. فلمنغ فقد رجّح تبدلها عن كلمة (كُسَّو بضم الكاف) أي الكرسي والعرش، وقد شوهد من النصوص نفسها توضح حصول مثل هذا الإبدال اللفظي. وهي رأي مقبول، وقد اعتمدناه في الترجمة.

(٤١) هما النصان (٣٨٥-٣٨٨) من نصوص إيمار.

(٤٢) النص رقم (٣٨٥).

(٤٣) نجد وصفاً مسهباً لهذا العيد في النص رقم (٣٦٩) المؤلف من ثمانية وتسعين سطراً. ويشكل هذا النص عماد أطروحة د. ي. فلمنغ المذكورة في الحاشية (٣٤).

(٤٤) هي النصوص (٥٣٧-٦٠٣) من نصوص إيمار.

(٤٥) دُوِّنت هذه السلسلة المعجمية على ثمانية عشر رقيماً نشرها ب. لاندس برجر. انظر:

B. Landsberger: The Series HAR- ra= hubullu tablets I- IV (MSL 5, Roma 1957), VII (MSL 6, Roma 1957),
VIII- Xli (MSL 7, Roma 1959), XIII (MSL 8 / 1, Roma 1960), XIV , XVIII (MSL 8/H, Roma1962).

(٤٦) راجع معجم اللغة الأكدية (AHw 351) ، ولاحظ أن استعمال الكلمة يقتصر على الدلالة التجارية لها.

(٤٧) هي النصوص (٥٤١-٥٦٢)، ويضاف إليها أجزاء من القيمين الحادي عشر والثاني عشر من السلسلة مدوّنة على رقيم من إيمار في سبعة أعمدة (١٦٦ سطراً) اقتناه- بالشراء من تجار الآثار - متحف التقاليد الشعبية في فرايبورج بألمانية عام ١٩٧٥، وقد نشره الباحث الياباني ك. وتَنابه. انظر: K. Watanabe, Acta sum. 9 (1987) 277- 291.

(٤٨) النص رقم (٥٤٢)، السطور ١٨-٢٤.

(٤٩) راجع النصوص ذات الأرقام: ٥٤٣- ٥٤٥، ٥٤٨-٥٥٠، ٥٥٣-٥٥٥.

(٥٠) النص رقم (٦٠٣)، السطور ١١٥-١٢١.

(٥١) النص رقم (٥٤٢)، السطور ١٤٣-١٥١.

(٥٢) النص رقم (٥٣٩).

(٥٣) النص رقم (٥٥٨).

(٥٤) النص رقم (٥٥٩).

(٥٥) النص رقم (٦٠٢).

(٥٦) تستحق هذه النصوص الأدبية تفصيلاً أكثر، ولكننا آثرنا تقديم لمحة سريعة عنها، ونحيل القارئ على الترجمة العربية الكاملة، التي نشرناها في مجلة المعرفة السورية، العدد ٢٦١ تشرين الأول ١٩٩٣، ص ١٣٦-١٦١.

(٥٧) النص رقم (٧٨٢)، السطور ١٤-١٨.

(٥٨) النص رقم (٧٦٧)، السطور ٩-١٩.

(٥٩) راجع: Röllig: Literatur. RLA VII (1987) 48.

(٦٠) راجع: W. Farber: Schlaf, Kindchen, Schlati Mesopotamische Baby-

Beschworungen und - Rituale.I,(n.)Winona Lake 1989.

B. R. Foster: Before the Muses. An Anthology of Akkadian Literature. CDL press, Bethesda, Maryland 1993. vol. 1, pp. 113 - 145.

(٦١) النصوص ذوات الأرقام (٧٢٩- ٧٣١).

(٦٢) النص رقم (٧٣٥).

(٦٣) نوع من أنواع التعويذات.

(٦٤) يصعب تحديد المترادفات العربية لكثير من أسماء المعادن والنبات السومرية والأكدية، ويحتاج ذلك إلى دراسة علمية لغوية خاصة. بذلك آثرنا ذكر صيف الأسماء غير الواضحة مكنا وردت.

(٦٥) هي النصوص ذات الأرقام (٦٠٥-٦٤٩).

(٦٦) النصوص ذات الأرقام (٦٦٩-٦٧٧).

(٦٧) النص رقم (٢٦٣).

(٦٨) الأخلامو أقدم القبائل الآرامية المعروفة. كانت مضاربها الأساسية في مناطق الفرات الأوسط بين بلاد سوخي (مناطق عانا) وكركميش (جرابلس).يرد أقدم ذكر لهم في رسالة من تل الدير (سيبار أمنانوم) جنوب غربي بغداد تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر ق.م. وصارت النقوش الملكية الآشورية تصفهم بـــ "الأخلامو الآراميين" بدءاً من القرن الحادي عشر ق.م. للاستزادة راجع: د. فاروق اسماعيل: **اللغة الآرامية القديمة**، منشورات جامعة حلب ١٩٩٧.

(٦٩) تقع بلاد سوخي في مناطق الفرات الأوسط، ومركزها مدينة خانات (عانا).كانت موطناً لقبائل بدوية خضعت لسيادة ملوك ماري في القرن الثامن عشر ق.م. وقد عرف أفرادها بنزعتهم الحربية، خضعت مناطقهم للحكم الآشوري منذ المملكة الآشورية الوسطى (أواخر القرن الرابع عشر ق.م.) حتى

أواخر القرن السابع ق. م. وقد ازداد شأن الآراميين فيها خلال القرن الثامن ق.م. وتفرّد بعض شيوخه بالحكم في بعض أجزائها ولاسيما الغربية.

راجع: Fine N. Háklár: Die Steflung Subis in der Geschichte. Zwischenbilanz, Or. An. 22 (1983) 25 - 36.

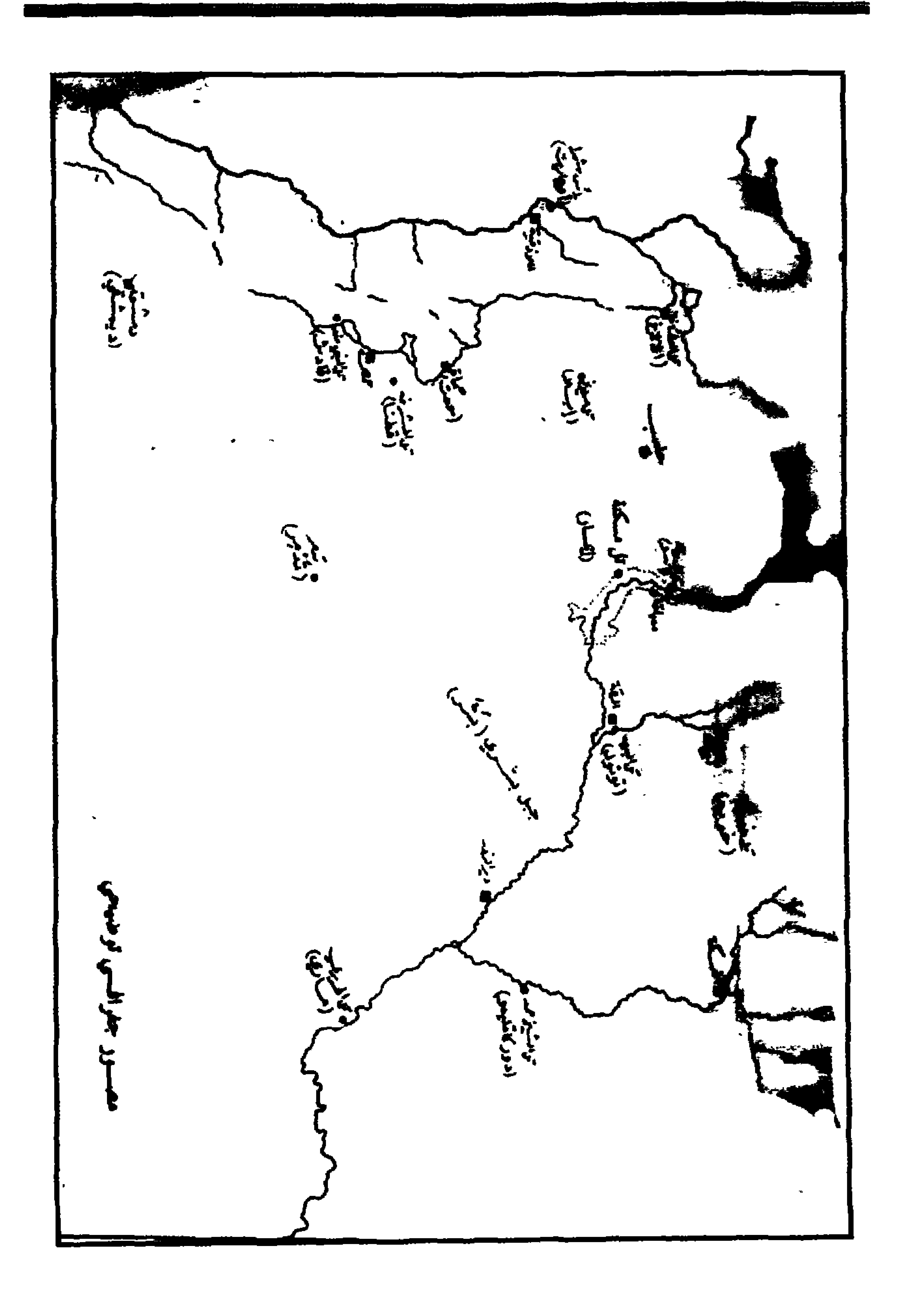
(٧٠) قطنا (تل المشرفة، ١٨ كم شمال شرقي حمص) مركز مملكة أمورية هامة خلال القرن الثامن عشر ق.م. كما كانت من أهم المدن السورية الداخلية خلال فترة الصراع الحثي المصري الحوري على سورية (القرون ١٥-١٣ ق.م). نقبت فيها بعثة فرنسية بن ١٩٢٤-١٩٢٩، واستأنفت بعثة سورية بإدارة الدكتور ميشيل المقدسي التنقيب في الموقع بدءاً من عام ١٩٩٤. عن أخبار قطنا في وثائق العهد البابلي القديم راجع: د. فاروق اسماعيل: قطنا "المشرفة" في وثائق العهد البابلي القديم. الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٤٢، ١٩٩٦، ص٩٧-١٠٢.

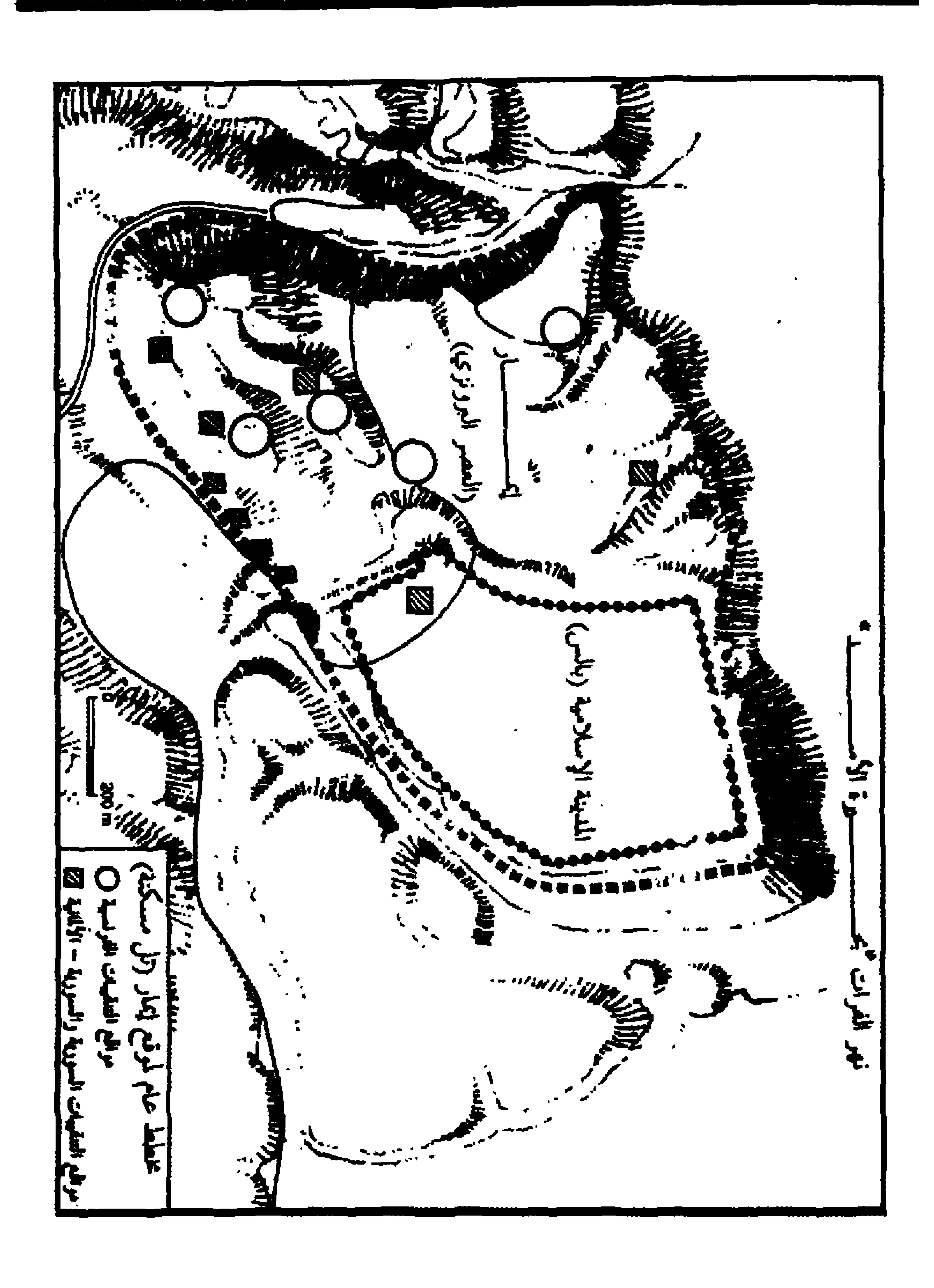
(٧١) مثال النصين: ٣١، ١٧٧ اللذين حُرِّر أمام الملكين شخورونوا، ابني تيشوب (أواخر القرن الرابع عشر –القرن الثالث عشر ق.م).

(٧٢) النص رقم (٣٢).

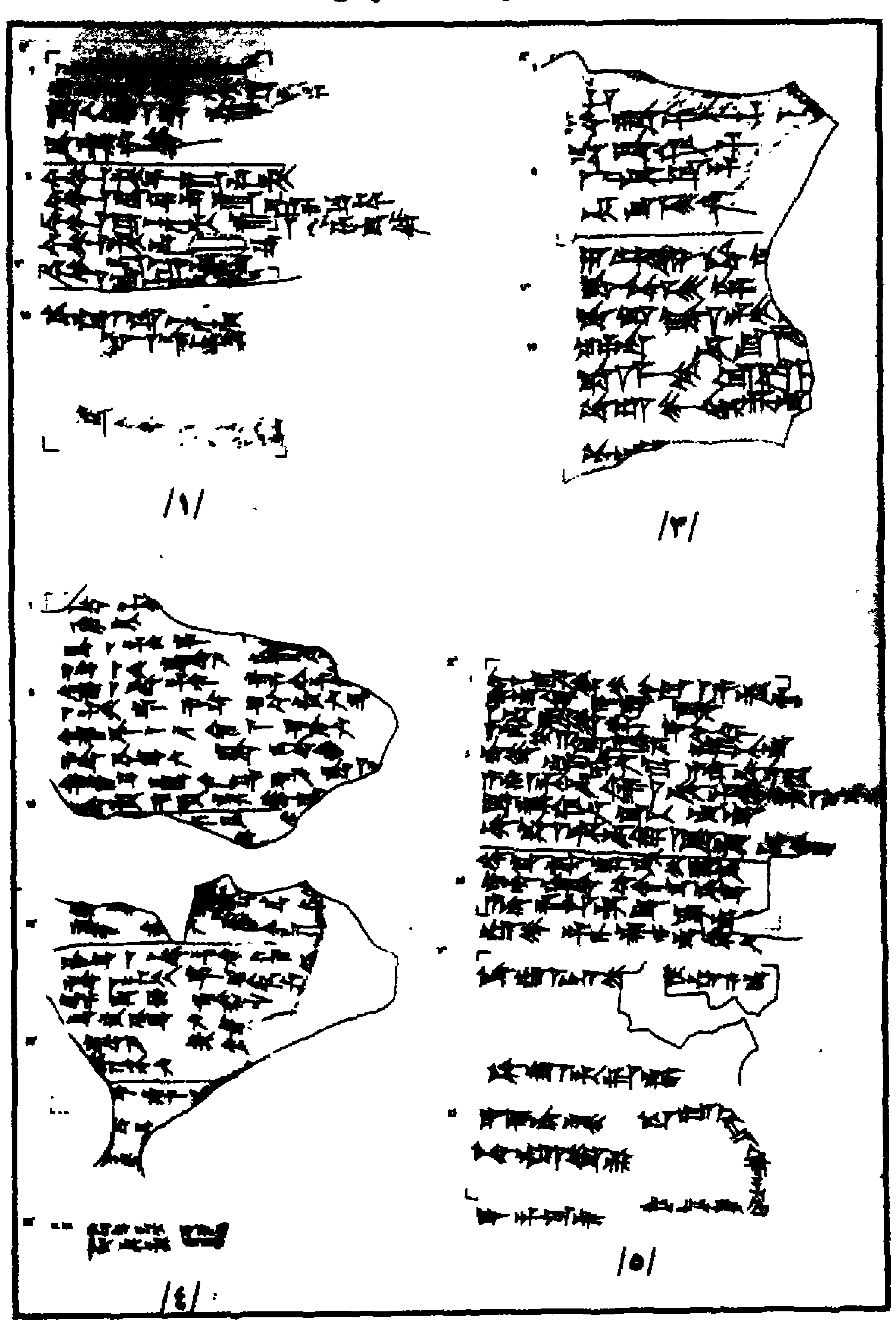
(٧٣) السُّوتيون من القبائل البدوية التي كانت تعيش في أطراف البادية العربية – السورية، ولاسيما في المناطق الواقعة جنوبي الفرات الأوسط. تتواتر أخبارهم منذ مطلع العهد البابلي القديم (أواخر القرن التاسع عشر ق.م) في نصوص من مواقع مختلفة. ويبدو منها أنهم اعتمدوا في معيشتهم على النهب والغزو واعتراض القوافل التجارية. ويعتقد أنهم –مثل الأخلامو– من القبائل الآرامية القديمة.

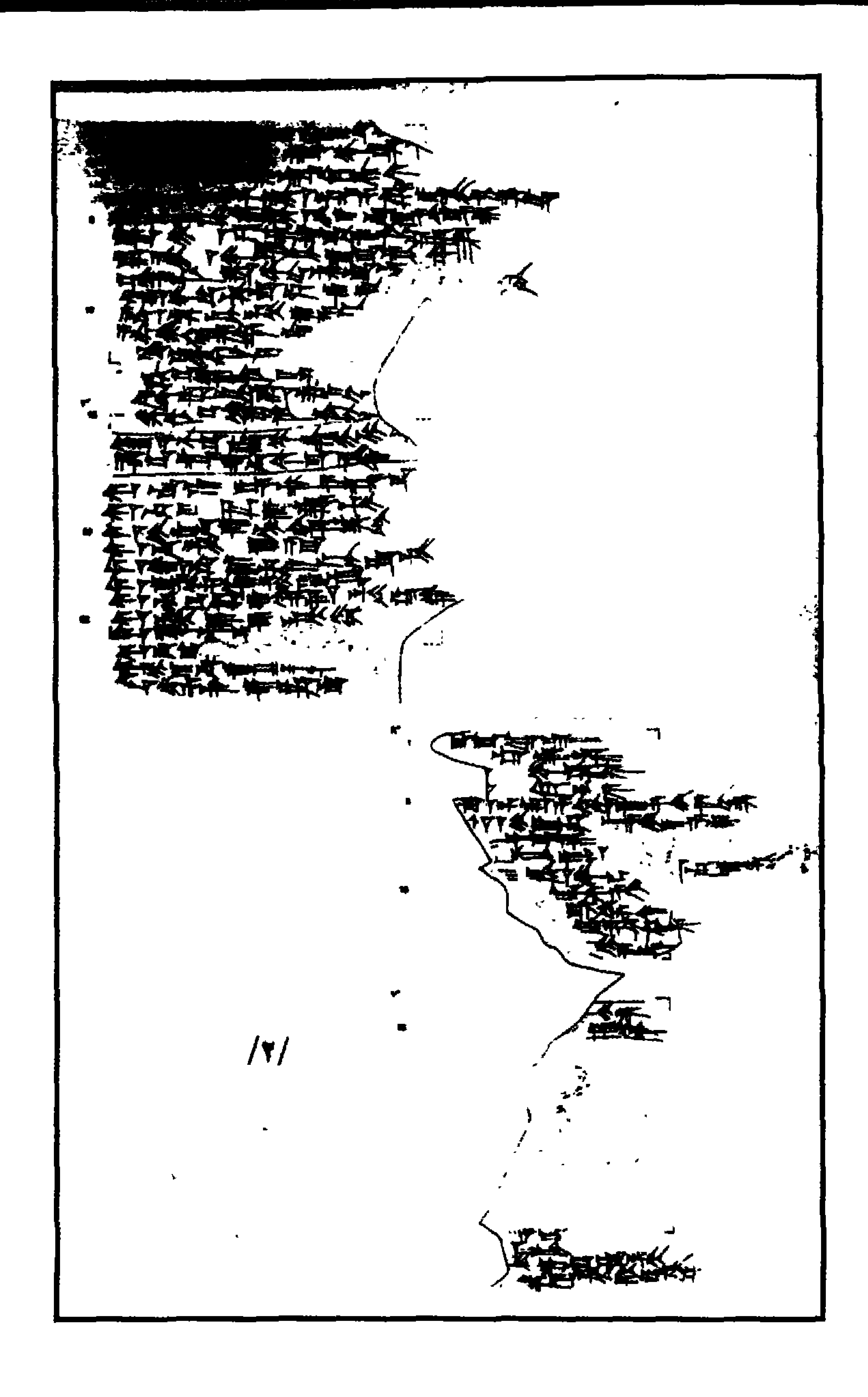
راجع الدراسة المفصلة عنهم: Heltzer: The Suteans, Naples 1981 .M.

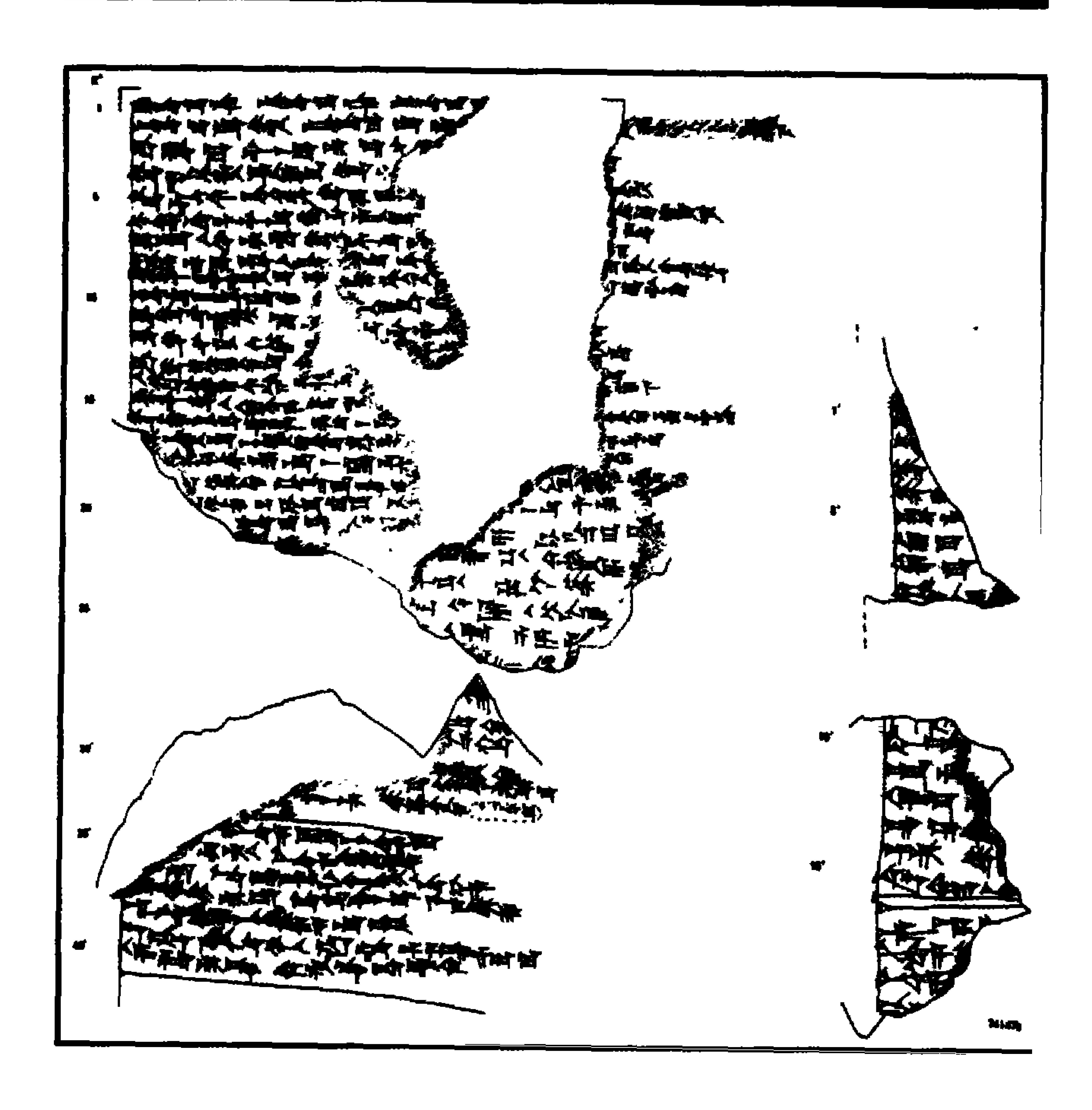


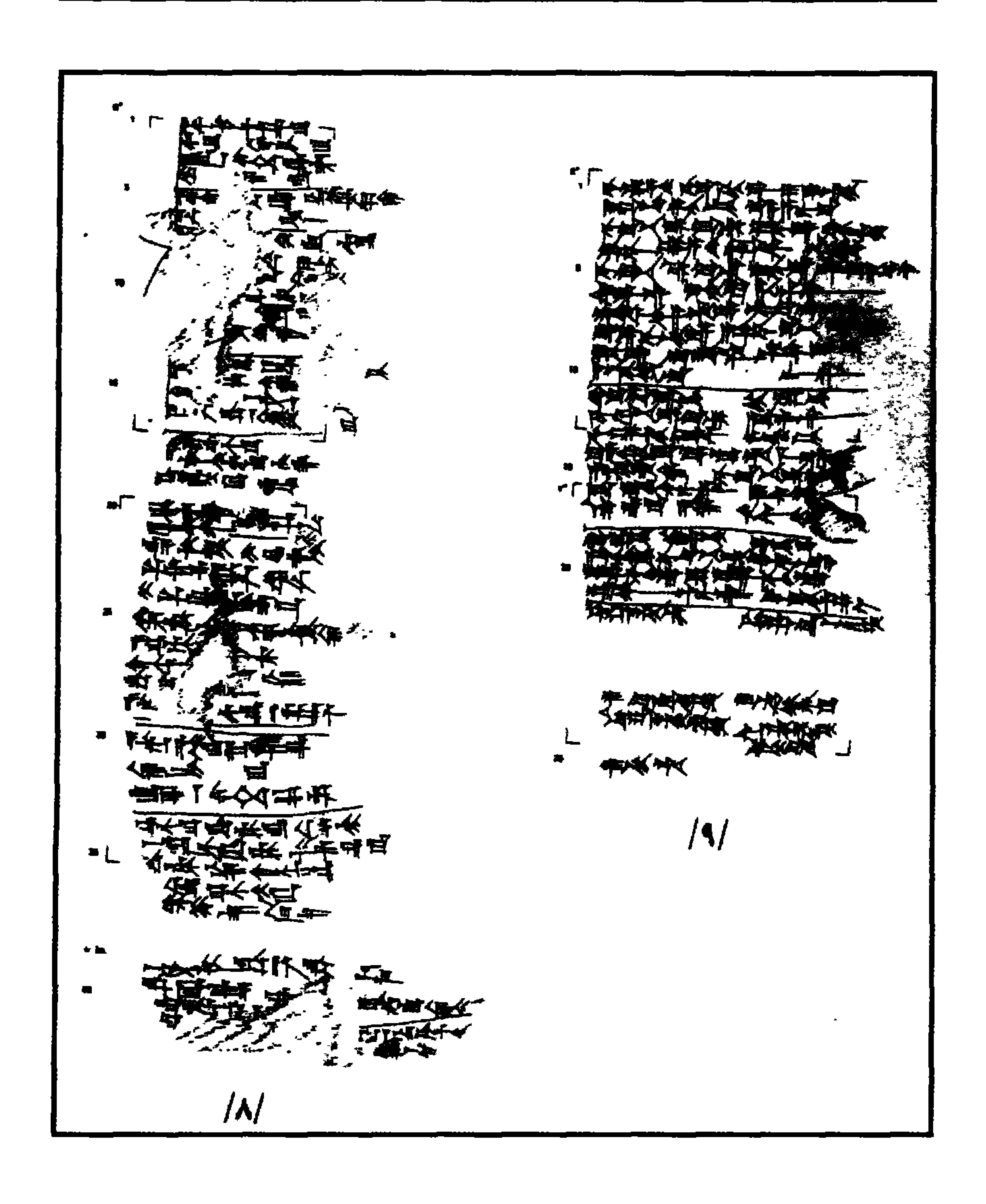

نهر الفرات "بحيـــــرة الأســـــد"
المدينة الإسلامية (بالس)
إيمـــار
(العصر البرونزي)
مخطط عام لموقع إيمار (تل مسكنة)
مواقع التنقيبات الفرنسية
مواقع التنقيبات السورية والسورية - الألمانية
0
200 m

منسوخات النصوص




/٢/




/٨/ /٩/

اليهود في بابل ... بين التبلور الفكري والنهج العدائي

الدكتور هديب غزالة

كلية التربية

جامعة القادسية

العراق

اليهود في بابل ... بين التبلور الفكري والنهج العدائي

الدكتور هديب غزالة

كلية التربية

جامعة القادسية

العراق

مقدمة:

بعد تسلم نبوخذ نصر الثاني العرش البابلي عام ٦٠٤ق. م. إثْر وفاة والده نابوبلاصر، قام بفعاليات عسكرية في الجهة الغربية من بلاد وادي الرافدين (بلاد الشام)، حيث بسط نفوذه العسكري على الدويلات السورية، وأخذ الجزية من عدة مدن[١] مثل: دمشق وصيدا وأورشليم، في حين ظلت مملكة يهوذا تتقلب في سياستها بين الخضوع إلى الحكم البابلي الجديد بقيادة نبوخذ نصر الثاني وبين ولائها لمصر. ولسوء حظ ملكها يهوياقيم (٦٠٨-٥٩٧ ق.م.)، فإنه سار في خط معارضة الحكم البابلي والتجأ للتحالف مع مصر، وكان هذا إيذاناً ببدء الجيش البابلي بالزحف على مملكة يهوذا عام ٥٩٧ق.م، بقيادة الملك نبوخذ نصر، الذي حاصر أورشليم وأسر ملكها يهوياكين ابن الملك السابق، ومعه ٧٠٠٠ من الجند ونحو ٣٠٠٠ من الصناع والحرفيين، وتم إجلاؤهم إلى بابل، وكان من بينهم حزقيال (ذو الكفل في المصادر العربية). وقد عرف هذا الجلاء باسم الجلاء البابلي الأول لليهود، وقد تم بعد ذلك تعيين صدقيا (٥٩٧-٥٨٦ ق.م)، حاكماً على يهوذا، الذي ظلّ محافظاً على ولائه للملك البابلي. ولكن هذا الولاء لم يستمر إذ سرعان ما انجرف وبتحريض من مصر

ليعلن عصيانه على نبوخذ نصر الثاني، وهذا دعا الأخير إلى القيام بمحاصرة أورشليم وتم إجلاء نحو ٥٠٠٠٠ شخص من اليهود الأسرى إلى بابل، وهذا ما يعرف في التاريخ باسم الجلاء البابلي الثاني لليهود. وبذلك أصبحت جميع مدن الشام خاضعة للسيطرة البابلية[٢]. ويذكر العهد القديم حدوث جلاء ثالث لليهود في عام ٥٨٢ق.م، إثر بعض الفتن التي أثارها اليهود في أورشليم، وقد تم إجلاء ٧٤٥ يهودياً آخر إلى بابل[٣].

حياة اليهود في بابل:

يشير نصان بابليان يؤرخان في الفترة بين ٥٩٥-٥٩٠ ق.م، إلى أن الحصص التموينية التي شملت الشعير والزيت كانت تقدّم للسكان اليهود في بابل والمناطق المجاورة لها. حيث نقرأ في هذين النصين أسماء بعض اليهود الذين كانوا يستفيدون من تلك المؤن مثل: سماخيا، وجدايل (Gaddiel) وشيلميا[٤]. وتشير النصوص التوراتية إلى أن اليهود لم يعاملوا معاملة العبيد، بل إنهم كانون يتمتعون بحرية نسبية، ساعدتهم على العيش حياة عادية، وأن يسكنوا إلى جانب البابليين ويتعاملوا معهم بسلام، وأن يتزوجوا ويزرعوا الأرض، حيث كانت الزراعة الحرفة الرئيسة التي مارسوها ليأكلوا من ريعها[٥]. ويطلب أرميا من اليهود الدعاء بالخير للبلاد التي آوتهم (بابل) حيث قال ما نصه: "اعملوا لخير المدينة التي سبيتكم إليها، وصلّوا من أجلها. ففي خيرها خيركم"[٦].

كما طلب منهم الإخلاص إلى الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني[٧]. ووردت في العهد القديم إشارات إلى بعض المستوطنات التي سكنها اليهود بعد جلائهم. فكان المركز الرئيسي لليهود على ضفتي نهر الخابور (وربما هي قناة خيبار) التي يعتقد أنها وردت في النصوص المسمارية وكانت تمتد بين بابل ونفر، كما نشأت مستوطنات يهودية في مواقع تل أبيب Tel – Abib التي ربما كانت بالقرب من خيبار (ولا نعلم أنه كان المقصود هو نهر الخابور في شمال وادي الرافدين)[٨]، وتل الملح وتل هرشا

وقد مثلت هذه المواقع اليهودية مركزاً لنشاطهم الزراعي[٩]، في حين تدلّ نصوص موراشو[١٠]، على أن مدينة نفر، كانت تمثل المركز الرئيس لاستيطان اليهود في حدود القرن الخامس. وقد مارسوا العمل التجاري والصيرفي في العصر الأخميني (٥٣٩-٣٣١ ق.م)[١١]. وفي هذه المستوطنات تمكّن اليهود من العمل والاختلاط والتزاوج مع الناس واتصلوا حضارياً مع الأمم الأخرى، الأمر الذي أفقدهم صفاتهم الخاصة الضيقة وصار الدين يهودياً بعد أن كان إسرائيلياً[١٢]، قبل استيطانهم في بابل ومقتصراً على جنس وقوم معينين هم الإسرائيليون. أما بعد الاستيطان والاختلاط في بابل، فقد فضّل الباحثون إطلاق اسم الدين اليهودي عليه، لأنه صار ديناً عالمياً غير مقتصر على فئة معينة[١٣]، بعد أن كان اليهود أمة متعصبة في عقيدتها، عدائية في نهجها، ليس لها تاريخ ولم يكن لديها فنون ولا علوم ولا حرف ولا أي شيء تقوم به حضارة، حيث إنها لم تسهم في إنشاء صرح العلوم والمعارف الإنسانية[١٤].

النهضة الفكرية والأدبية لليهود في بابل:

لقد كان لعوامل الاستقرار والمعاملة الحسنة لليهود في بابل، واطلاعهم على الموروث الحضاري لبلاد وادي الرافدين من علوم وآداب قديمة كالسومرية والبابلية، إضافة إلى الموقع الجغرافي المتميز للعراق سهّل من اتصالاتهم بحضارات البلدان المجاورة، إذ تشابكت تلك العلاقات بين الدول ولاسيّما في الألف الأول قبل الميلاد وأخذ بعض الملوك الآشوريين والبابليين يجلبون بعض أصحاب الخبرات والكفاءات والمعارف إلى بلدانهم بما فيهم المصريون وسكان البلدان الغربية[١٥]. وراح اليهود في بابل يدونون بعض كتبهم. ونقرأ في المزمور (الربور Psalm) السابع والثلاثين بعد المئة ما يشير إلى أبرع ما كتبه من المزامير والذي يؤشر إلى مدى قدرة الكاتب الأدبية والتعبيرية[١٦]، لوصف حالة اليهود الذين نقلوا إلى بابل بالقول:

"على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عند تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين رنموا لنا ترنيمات صهيون(١٧)".

ويشير هذا المزمور إلى أنه كتب في بابل، لكننا نعلم أن المزامير تنسب إلى النبي داود (ع) أصلاً، عندما يرددها أثناء عباداته مطلع الألف الأول ق.م.(١٨)، إذن فهذه إشارة إلى التطور الفكري الذي أضافه اليهود إلى التوراة الموسوية. ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن سفر دانيال دُوِّنَ في حدود ١٦٨-١٦٥ق.م.، وهذا لا ينفي كون دانيال قد عاش في بابل في عهد نبوخذ نصر حتى الاحتلال الفارسي لبابل عام ٥٣٩ق.م. وكانت روايات سفر دانيال مدونة أصلاً بالآرامية، لكن أجزاء من بدايته ونهايته ترجمت إلى العبرية لكي تسهّل مهمة دمجه بالكتب اليهودية المقدسة(١٩)، ويذكر أن الذي قام بتدوينه في هذه الفترة أنطيوخوس سوتر الرابع الذي كانت لديه بعض الوثائق التاريخية والدينية المهمة من عهد نبوخذ نصر حتى عام ١٦٧ق.م. بداية تدوين وجمع هذا السفر، الذي تعرض إلى النقد والشك في دقة رواياته، ذلك لأنه يفتقر إلى المعطيات التاريخية والجغرافية أكثر من أي سفر آخر من أسفار التوراة وهذا يعني تعرضه إلى التحريف المتعمّد(٢٠)، ولهذا نجد العديد من الروايات الباطلة والمغالطات التاريخية في هذا السفر ضد الملك نبوخذ نصر الثاني.

ونتيجة لاحتكاك اليهود المبدعين في بابل بآداب وفنون حضارات منطقة الشرق كالسومرية والبابلية واليونانية والمتعلقة بمفهوم الحياة والموت والكون والثواب والعقاب والملاحم البطولية والشعرية والتنبؤات الغيبية، فقد برزت هذه الأمور بشكل واضح في المدونات التاريخية والدينية والأدبية التي ظهرت في كتب التوراة والتلمود(٢١)، ولهذا السبب ازدادت مؤخراً الاهتمامات بالناحية الأدبية للتوراة، لأنها مثلت أهم الأعمال الأدبية التي دونها كبار كتاب اليهود وبرزت من بينها المقالات والحكم والأمثال والنبوءات والفلسفة والتاريخ والقصص(٢٢). حيث تناولت كل قصة

مسلسلة كاملة الأجزاء مترابطة الحوادث كما يكتب في التاريخ وتناولتها لغرض تاريخي بحت، ومن هنا نرى أن القصص التي ذكرت في القرآن الكريم تختلف في غرضها عن قصص التوراة من أنها لم تذكر للتاريخ في ذاته وإنما ذكرت على الأخص للعظة والاستفادة من أحداثها كدروس تذكير[٢٣] وإرشاد وتوجيه للناس، لهذا ينبغي الالتزام بالحيطة العلمية من الاستدلال على الأحداث التاريخية المذكورة في التوراة[٢٤].

بدأ اليهود في بابل وأورشليم بتدوين شروحات وتعليقات الأحبار ورجال الدين التي عرفت بـ (التلمود)[٢٥]، وقد كانت لغة تلمود أورشليم هي العبرية وتتضمن كلمات وعبارات آرامية غربية في حين كتب تلمود بابل بلغة تخللتها عبارات عربية وسريانية ويونانية ولاتينية وكلدانية وقد تعرض تلمود أورشليم إلى الحذف والتحريف المتعمّد وإهمال فصول منه[٢٦]. ويتكون التلمود من المشنا، وجمارا، إذ مثلت المشنا أول لائحة يهودية أساسية بعد التوراة. وقد جمع هذه اللائحة شخص يدعى يهوذا هاناسي في حدود القرن الثاني الميلادي، وذلك بعد قرن تقريباً من تدمير تيطس الروماني أورشليم.

وعبرت المشنا عن مآثر وعادات وتقاليد اليهود، وتضمنت بعض الأسفار التوراتية التي ادعى مدونوها أنها مشابهة لصحف موسى الأصلية التي نزلت عليه في الجبل بأرض سيناء، ثم نقلها أصحابه هارون ويشوع ومن ثم الأحبار اليهود[٢٧].

أما جمارا فقد جمعت شروحات وتفاسير ومناظرات الأحبار اليهود التي جرت في مدارس طبرية وكانت تدور حول شرح وتفسير مادة المشنا (التي تعني المثنى) وزعم اليهود أنها نزلت على النبي موسى (ع).

بدأ العمل بجمع جمارا في حدود القرن الرابع الميلادي وانتهى العمل منه في القرن الخامس الميلادي وبهذا ظهر لنا جمارا بابل الذي تضمن شروحات المشنا. إذ يتكون

تلمود بابل من مشنا وجمارا بابل، بينما يتكون تلمود أورشليم من مشنا وجمارا أورشليم[٢٨].

ويتكون التلمود من ستة أسفار، هي سدر زراعيين (تابذور)، وسدر مواعيد (الأعياد والمواسم)، وسدر ناسيم (النساء)، وسدر نزيكين (الأضرار)، وسدر قداشيم (المقدسات)، وسدر طهوروت (التطهيرات). وقد مثلت هذه الأسفار وجهة نظر اليهود عن الحياة والكون التي ورثوها عبر ألف عام من الزمان[٢٩].

ثم أخذت الفروع تمتد من هذه الأبواب الستة وتزداد الآراء والشروح جيلاً فجيلاً، حتى رست مواد التلمود في (١٢) اثني عشر مجلداً ضخماً. وهذه الأبواب قسمت على ٦٧ مبحثاً في ٥٢٣ فصلاً أو حكماً[٣٠]. وقد نظمت أبواب التلمود وفصوله بحيث يكون اسم الباب أولاً ثم الفصل الأول منه وهذا كله يكتب بحروف بارزة. ثم أول سطر من أول فقرة كلمة (مشنا) بأحرف كبيرة، ثم عبارات الفقرة التي تتضمن الحكم وبعد هذا فاصل، وبعد الفاصل يرد شرح المشنا، المسمى (جمارا) فترد كلمة (جمارا) في أول السطر بحروف كبيرة كما وردت كلمة مشنا ثم الشرح، وقد يكون الشرح في عشرين إلى ثلاثين صفحة أو أكثر أو أقل لحكم واحد هو في عبارة المشنا في أسطر، ولهذا تضمنت مجلدات التلمود مع مرور الوقت[٣١]، ولا بد هنا من الإشارة بأن كل ما يتعلق بمخطط اليهود للاستيلاء على العالم وتعمل له اليهودية العالمية الخفية بأجهزتها السياسية والاقتصادية العلنية والخفية خطوطه واضحة في التلمود[٣٢]، وفيه تأكيد واضح لمبدأ الاستيلاء والتفوق العنصري اليهودي على بقية شعوب الأرض وجعل الناس عبيداً لليهود، على اعتبار أنهم الشعب المختار وأن الله اصطفاهم دون سواهم من شعوب الأرض[٣٣].

من الجدير ذكره أن الخط الآرامي الذي كان مستخدماً في بابل قد قاد اليهود إلى تطوير ما عرف بالخط العبري المسمى (بالمربع)[٣٤].

ومع كل ما هيأته بلاد بابل من مناخ ثقافي مناسب لإيقاد النهضة الفكرية والأدبية لليهود، إلا أنهم كانوا أول المتآمرين عليها عند تعرضها للغزو الأخميني عام ٥٣٩ق.م.، حيث كان لتآمرهم الأثر الكبير لسقوطها في أيدي الفرس الأخمينين كورش[٣٥].

وتوضح التوراة خطط اليهود في إنهاء بابل بعد أن كانت كما أسمتها (دهشاً بين الأمم) وكيف نصبت الإشراك لتنتهي دون أن تشعر وتنسب التوراة أيضاً للرب يأمر فيه كورش أن يخلص اليهود:

"اصعد إلى الأرض الشديدة والتمرد وإلى السكان المستوجبين للعقاب"[٣٦].

حيث اعتبر كورش بمنزلة "المسيح المنقذ" وورد في سفر أشعيا ما نصه:

(هكذا يقول الرب لمسيحه كورش الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أمماً وأحقاء أحل لافتح أمامه المصراعين والأبواب لاتغلق)[٣٧].

وأوضح اليهود حقدهم الدفين صراحة من خلال ما جاء في سفر أرميا:

"اصطفوا على بابل حواليها يا جميع الذين ينزعون في القوس ارموا عليها. لا توفروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها. قد أعطت يدها سقطت أسسها نقضت أسوارها لأنها نقمة الرب هي فانقموا منها كما فعلت بها. اقطعوا الزارع من بابل وماسك المنجل في وقت الحصاد"[٣٨].

ثم أخذوا يحصدون ثمار ما قدموه من عمل خياني بعد أن سمح لهم كورش بالعودة إلى ديارهم[٣٩]، حيث عاد بضعة آلاف منهم بقيادة رجل اسمه زيرو بابل (الاسم البابلي ومعناه بذرة بابل لأنه ولد فيها)، الذي هو حفيد ملكهم المتمرد يهوياكين[٤٠]، ثم عمّر كورش معبدهم وأعاد لهم بعض محتوياته وأضاف إلى كنوزه أموالاً أخرجها من خزانته الخاصة، وأبقى كورش بعضاً من اليهود الذين بقوا في بابل يتبوؤون الوظائف المرموقة فشغل أحدهم وظيفة ساقي الملك، وهي من الوظائف المهمة، كما شغل آخر

منصب مدير الغابات[٤١]، ووصل الأمر بكورش أن نصّب أحد رجال دينهم والمدعو في العهد القديم باسم دانيال وزيراً له في بلاطه، ثمناً لما قدمه من مساعدة وغدر ضد بلاد بابل[٤٢]، التي منحتهم الاستقرار والسلام الذي انعكس بدوره على حياة فكرية جديدة كانوا يجهلونها قبل اطلاعهم على الحضارة الرافدية واحتكاكهم مع من جاورها من أمم كانت تتمتع بموروث حضاري فلغتهم مقتبسة من الآرامية وشرائعهم مأخوذة من الكنعانيين والبابليين والمصريين أي إأنهم تسلموا حضارة متكاملة كانت من نتاج غيرهم[٤٣]، دون أن يكون لهم نتاج حضاري يضيفونه، بينما أضافوا المزيد من العداء والحقد الدفين لبلاد وادي الرافدين وعبر مختلف العصور التاريخية اللاحقة.

الهوامش

(١) ANET., P 291

(٢) باقر، طه **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج٢، بغداد، ١٩٥٦، ص ٢٩٥-٢٩٦. وللتوسع في معرفة المزيد عن تفاصيل الأحداث التي رافقت الجلاء البابلي الأول والثاني لليهود إلى بابل، انظر:

محمد ، حياة ابراهيم، **نبوخذ نصر الثاني**، بغداد، ١٩٨٣، ص ٧٩ وما بعدها.

Wiseman, F. B. A., Nebuchadrezzar and Babylon, London, 1985, p. 21f

(٣) أرميا ٥٢: ٣٠

(٤) ANET., P 308

(٥) **أرميا** ٢٩: ٥-٧.

(٦) **أرميا** ٢٧: ٧.

(٧) **أرميا** ٢٧ : ٩-١٠.

(٨) **حزقيال** ٣: ١٥-١٧.

(٩) محمد، حياة ابراهيم، **المصدر السابق**، ص ٨٣.

(١٠) وهي من الأسر اليهودية التي أجليت إلى بابل في الجلاء الثاني لليهود وحققت ثراءاً كبيراً في مدينة نفر. انظر:

كونتينتو، جورج، **الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور**، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٥٦-١٥٧.

(١١) Diaches, S, **The Jews in Babylonia in the time of Ezra and Nehemiah according Babylonia Inscriptions**, London. 1910, p 4.

(١٢) ربما اشتقت هذه الكلمة من اسم (عابر) وهو الجد الخامس للنبي ابراهيم (ع) أو أنها تعني العبور والتي أطلقت على النبي ابراهيم (ع) لعبوره نهر الفرات أثناء توجهه من العراق إلى فلسطين. انظر: **ANET., P 487**

الشوك، علي، **الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة**، لندن، ١٩٨٧، ص ١١ وما بعدها.

(١٣) الأحمد، سامي، سعيد، **تاريخ فلسطين القديم**، بغداد، ١٩٧٩، ص ٣٤.

(١٤) لوبون، غوستاف، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٥.

(١٥) Williams, R. J. "**Relations between Egypt and Mesopotamia**" in Bulletin, 101985, P. 3.

Wiseman. O. J. "**Some Egyptians in Babylon**. In Iraq 28. 1966, p. 154 ff.

(١٦) Walter. A. F., Mesopotamia the civilization that rose out of clay, p 112.

(١٧) **المزمور** ١٣٧: ١-٣.

(١٨) إن عدد السور التي نزلت على النبي داود (ع) هي (١٥) سورة وتسمى (الربور) وهي ذات طبيعة شعرية فيها تسبيح وتقديس لله عز وجل ومواعظ مختلفة. انظر:

الشريف، محمود **الأديان في القرآن**، القاهرة، ١٩٧٦، ١٥٤-١٥٥.

(١٩) سومر، دوبون،، "**الآراميون**" ، ترجمة البيرايونا، سومر، ج١، ٢، المجلد ١٩، بغداد، ١٩٦٣، ص ١٤٣.

(٢٠) تابوي، نبوخذ نصر: **عظمة بابل وإحراق نينوى وتدمر مملكة يهوذا**، ترجمة مروان السابق، بيروت، ص ٢٨٩.

(٢١) انظر:

Grayson, A, K., "**Akkadian Prophecies**" Bibliane Oriante, vol25, 1964. p. 10.

علي، فاضل عبد الواحد، من ألواح سومر إلى التوراة، بغداد، ١٩٨٩، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢٢) Wilson, J. B., **English Literature, Asurvcy for students**, London, 1958, p 52.

(٢٣) وافي، علي عبد الواحد، **اليهودية واليهود**، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٢.

(٢٤) الناظوري، رشيد، **المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني**، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٦٩.

(٢٥) الكلمة بابلية المصدر (Lamadu) وتعني علم وبذلك يصبح معنى التلمود (التعليم). انظر: **AHw.** P 531.

(٢٦) خان، ظفر الإسلام، **التلمود تاريخه وتعاليمه**، ط٢، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٤ وما بعدها.

(٢٧) خان، ظفر الإسلام، **المصدر السابق**، ص ١١-١٢.

(٢٨) باقر، طه، **المقدمة**، ج٢، ط٢، ص ٣٠٧.

(٢٩) رزوق، أسعد **التلمود والصهيونية**، ١٩٧٠، ص ١٤٩ وما بعدها.

(٣٠) نويهض، عجاج، **بروتوكولاتِ حكماء صهيون**، ج٤، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٥٤.

(٣١) نويهض، عجاج، **المصدر السابق**، ص ١٦٤.

(٣٢) نويهض، عجاج، **المصدر السابق**، ص ١٧٩.

(٣٣) سوسة، أحمد، **العرب واليهود في التاريخ**، بغداد، ١٩٧٢، ص ١٧٤.

(٣٤) سوسة، أحمد، **المصدر السابق**، ص ١٥٨.

(٣٥) ساكز، هاري، **عظمة بابل**، ترجمة عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص ١٨١.

(٣٦) ابراهيم، جابر خليل، "**الأخطار الخارجية اليهود، الفرس**" تاريخ العراق قديمه وحديثه، بغداد، ١٩٩٨، ص ١٥٠-١٥١.

من الجدير ذكره هنا أنه في عام ٣٣٢ ق.م. أعاد اليهود الموقف نفسه تجاه الاسكندر المقدوني عند دخوله القدس حيث خرجوا لاستقباله واعتباره المنقذ لهم من ظلم الفرس.

انظر: الأحمد: سامي سعيد، **المصدر السابق**، ص ٣٨.

(٣٧) **أشعيا** ٤٥: ١.

(٣٨) **أرميا** ٥٠: ١٤-١٦.

(٣٩) **عزرا** ٦: ٣-٥.

(٤٠) الأحمد: سامي سعيد، **المصدر السابق**، ص ٣٦.

(٤١) الأحمد: سامي سعيد، **المصدر السابق**، ص ٣٤.

(٤٢) **دانيال** ٢:٦.

(٤٣) حول تلك الجوانب الحضارية المقتبسة من قبل اليهود انظر:

سوسة، أحمد، **المصدر السابق**، ص ١٧٩ وما بعدها.

الناظوري، رشيد، المصدر السابق، ص ١٦٩ ومابعدها.

أثر حركة الأيقونات في فسيفساء كنسية يعمون

الدكتور نزار الطرشان

معهد الآثار

جامعة اليرموك

إربد - الأردن

أثر حركة الأيقونات في فسيفساء كنسية يعمون

الدكتور نزار الطرشان
معهد الآثار
جامعة اليرموك
إربد – الأردن

الموقع:

يقع تل يعمون الأثري شمال الملكة الأردنية الهاشمية على بعد ٢٥ كم إلى الجنوب من مدينة إربد، وعلى بعد نحو ٣ كم جنوب قرية النعيمة، ويرتفع التل عن مستوى سطح البحر نحو ٨٢٨م، شكل (١) وقد دلت نتائج المسح الأثري، ومن خلال الملتقطات الفخارية أن الموقع تتمثل فيه العصور البرونزية والحديدية والرومانية والبيزنطية والإسلامية ولاسيّما الأموية[١]. ويتكون الموقع الأثري من ثلاثة أقسام هي التل الرئيسي، والمقابر التي تعود للعصور البرونزية في الجهة الشمالية من التل، والمقابر الرومانية والبيزنطية في الجهة الجنوبية من التل[٢].

وعلى هامش أعمال أقسام الأنثروبولوجيا العضوية في جامعة اليرموك وجامعة أركنسو الأمريكية، قامت جامعة اليرموك ودائرة الآثار العامة الأردنية بالتنقيب في التل الرئيسي، وذلك لفهم التتابع الطبقي للموقع، وكان أن كشفت أعمال التنقيب عن كنيسة هامة نظراً لما عانته أرضية الفسيفساء فيها من حركة التدمير الأيقوني[٣].

وصف الكنيسة:

يمكننا وصف الكنيسة من خلال مرحلتين، أولاً المرحلة الإنشائية (عمارة الكنيسة)، والمرحلة الفنية (الزخارف الفسيفسائية)، وقد جاءت هذه التجزئة لتيسير متابعة الوصف، وللفصل بين الوصف المعماري والوصف الفني كما سبقت الإشارة.

الوصف المعماري:

بنيت كنيسة يعمون على النظام البازلكي، وهو من أكثر الأنظمة المعمارية شيوعاً في كنائس بلاد الشام[٤]. فقد بنيت من الأجزاء التالية: الصحن الأوسط (Nave) وهو أعرضها، والجناحين الجانبيين الشمالي والجنوبي (Asiels) وهما أقل عرضاً من الوسط، والناحية المتجهة إلى الشرق، ثم مؤخرة الكنيسة في الجهة الغربية التي تتكون من المنطقة المتقدمة (Marthex)، والمنطقة المتأخرة (Atrium)، وقد فتحت في هذه المنطقة ثلاثة أبواب تؤدي إلى الصحن والأجنحة، وفصلت الأجنحة الجانبية عن الصحن الأوسط بواسطة قواعد أربع وضعت بشكل متوازن لتحمل السقف الجملوني، التي تتقابل مع أربعة أكتاف موازية خرجت من الجدارين الشمالي والجنوبي، وأربعة أكتاف أخرى اثنان منها موازيان لمنطقة (Chancel)، واثنان عند مؤخرة الكنيسة من الجهة الغربية، مع وجود منطقة الحاجز (Cgancel screen)، الذي يفصل حنية الكنيسة عن الأجنحة الجانبية المعدة لجلوس المصلين شكل (٢).

وخلال أعمال التنقيب لوحظ أن بناة الكنيسة قد أسسوا لها وبشكل متقن، حيث حفروا الأساسات اللازمة لإقامة البناء وبنيت حجارة الأساس المشذبة بشكل منتظم ومتوازن، ثم جرى بناء الجدران من الحجارة الكبيرة المشذبة، ويبدو أن السقف كان من الخشب الذي غطي بالقرميد (Tiles) بسبب العثور على كميات وافرة متناثرة على الأرض. وقد أُرّخت الكنيسة إلى القرن السابع الميلادي استناداً إلى نص مكتوب بالفسيفساء عند منطقة الحاجز.

الوصف الفني: شكل (٣)

ولتسهيل الوصف الفني حتى يتسنى متابعة ذلك، فقد رأيت أن أتبع منهجية الوصف المعماري نفسه مع مراعاة توزيع المساحات الأرضية المغطاة بالفسيفساء على النحو التالي:

- الأشكال الفنية في أرضية الحنية ومحيط منطقة الحاجز:

احتوت منطقة الحنية على سجادة من الفسيفساء بأشكال هندسية عبارة عن مربعات تتقابل رؤوسها معاً وزعت بينها مربعات أصغر حجماً، وقد وضع أمامها أشكال أخرى نباتية وحيوانية بوجود منظر أفعى تلتف حول رقبة أوزة وأشكال أسماك متقابلة، أما منطقة الحاجز فقد وضع بها مربعان كبيران متجاوران، احتوى أحد المربعين الهندسيين على أربع مزهريات وضعت في أركانه، وانبثق منهما أغصان وأوراق وعناقيد العنب، ثم وضعت دائرة كبيرة لامست أضلاع المربع من الوسط وفي داخل الدائرة عل الفنان ثماني دوائر أصغر حجماً على مدار محيط الدائرة الكبيرة، ومن الداخل جرى وصلها معاً بخطوط مستقيمة حيث انبثقت الخطوط من مراكز هذه الدوائر وكونت معاً شكلاً مربعاً في الوسط احتوى على رسم غير واضح.

- الأشكال الفنية في الجناح الجنوبي:

تكونت الأشكال الفنية في هذا الجناح من مجموعة كبيرة من الدوائر الصغيرة ذات أطراف معقودة، بلغ عدد هذه الدوائر تسعاً وتسعين دائرة مما يعني أن الرقم نفسه من الأشكال الفنية قد وضع بداخلها حيث تعددت المواضيع، ولم يبقَ من هذه الأشكال الفنية إلا بعض المزهريات والأوراق النباتية والشجيرات، وبعض الأشكال الحية كالطيور والأسماك، ومن أبرز الأشكال المتبقية رسم يمثل قفص الطيور والسكين والفاكهة، أما أهم الأشكال الفنية فقد وضعت في إطارين مربعي الشكل، واحد مستطيل

يبرز من زخارفها شكل قبة مقامة على أربعة أعمدة يتدلى من منتصفها مصباح للإنارة ورسم تاج قد يكون استخدم فوق رأس شخص ما في مربع آخر.

- الأشكال الفنية في الجناح الشمالي:

تتألف زخارف هذا الجناح من لوحتين، الأولى في الجهة الغربيةـــ، وتتكون من زخارف هندسية مكررة تمثلت في المربعات وأشكال الصليب المعقوف (Swastica)، وأشكال خطوط متموجة في بعض المربعات بصورة قطرية.

أما اللوحة الفنية الثانية، فقد تألفت من نماذج نباتية، أبرزها شجرة الرمان بأوراقها وأغصانها وأزهارها وثمارها، بحيث جاءت متناسقة بشكل لافت للانتباه، هذا فضلاً عن وجود رسم تظهر فيه أدراج صاعدة يرتكز عليها سلم وضعت بداخل إطار الشكل القوسي، وفوق الأدراج كتابة تحوي على الأحرف الأبجدية اليونانية، ألفا، بيتا، جاما... إلخ، ويلفت الانتباه في هذه اللوحة وجود أشكال حية أبرزها الأسماك، وأشكال آدمية وفوق النصف العلوي لأحدها كتبت أسماء الأشخاص الثلاثة فوقهم.

-الأشكال الفنية في صحن الكنيسة (Nave):

يتصدر مجموعة الأشكال الفنية النص التأسيس الذي كُتب بستة أسطر باليونانية*، وصحن الكنيسة كما ذُكر مستطيل الشكل وأكثر اتساعاً، لذا جاءت الأشكال الفنية أكبر حجماً وأكثر تنوعاً، فالإطار الخارجي وضعت أركانه الأربع أربع مزهريات خرجت منها أغصان وأوراق وثمار العنب لتلف وتلتقي معاً مكونة أشكالاً دائرية بلغ عددها أربعاً وأربعين دائرة، عَمَدَ الفنان إلى وضع العديد من الرسومات بداخلها خاصة الأشكال الحية كالحيوانات والطيور وغير واضحة المعالم، وسيكون لها وقفة خاصة عند دراسة حركة الأيقونات، وأثرها في الكنيسة لاحقاً. أما المستطيل الداخلي فقد

* عثر في أرضية الكنيسة على مجموعة من الكتابات باليونانية، إضافة إلى النقش التأسيسي، وهذا ما سيكون مجالاً لعمل آخر قادم.

جرى تقسيمه إلى عشرة أشكال ثمانية وضعت بين أربع دوائر في وسط المستطيل، وقد راعى الفنان في إنتاج هذه الأشكال جميعاً مبدأ الخطوط غير المنتهية التي كونت هذه النماذج إضافة لملء الفراغ الحاصل بين جميع الدوائر والأشكال الثمانية بأشكال زخرفية معينية في وسطها دوائر معقوفة الأطراف. هذا فضلاً عن إحاطة الأشكال الثمانية قريب الإطار بنماذج أنصاف دوائر شعاعية بلغ عددها عشر دوائر تنطلق فيها الخطوط الشعاعية من منتصف نصف قطر الدائرة إلى محيطها.

أثر حركة الأيقونات في أرضية الفسيفساء:

في البداية يجب حصر مواقع الأشكال الحية (الآدمية والحيوانية) في الأرضية حتى يتسنى تتبع أشكال التدمير الأيقوني**، ويمكن رسم الإطار العام لهذه الأماكن على النحو التالي:

١- رسومات الأشكال الحية في منطقة الحاجز.

٢- رسومات الأشكال الحية داخل الدوائر الصغيرة (الجناح الشمالي).

٣- رسومات الأشكال الحية داخل الإطار المستطيل والمربعين في الجناح الشمالي.

٤- رسومات الأشكال الحية داخل الإطارات الثمانية والدائرية (صحن الكنيسة).

٥- رسومات الأشكال الحية في الجناح الشمالي.

** كيف جرت عملية التدمير: لقد قام ذوو العلاقة بمسألة التدمير باستخدام مكعبات الفسيفساء نفسها التي كونت شكلاً ما باستخدام المكعبات نفسها ولكن بعد بعثرتها من أماكنها الأصلية في أماكن أخرى حتى يختفي الشخص الحقيقي المنفذ، وبذلك تختفي معالم الصورة الأصلية ولا يبقى منها إلا إطارها الخارجي الدال في أغلب الأحيان على الشكل الأصلي.

يستطيع القارئ تتبع هذه المواضيع، فقد جرى الإشارة إلى عملية التدمير الأيقوني للأشكال الحية داخل تلك الأماكن باتباع أسلوب تظليلها بخطوط قطرية متقاربة من اليسار إلى اليمين (انظر الشكل (٣)).

١- منطقة الحاجز:

تحتوي مقدمة حنية الكنيسة على شريط فني يضم أشكالاً تمثل الطير الذي تلتف حول رقبة الأفعى، وسمكتين متقابلتين وشكل ثمَّر تماماً في منتصف الشريط، إضافة لشكل طائر لم يبقَ منه سوى رقبته ورأسه.

وجاء تدمير آخر في منتصف الشكل المربع الزخرفي لا يمكن تحديد إطاره الفني، ومعرفة إذا كان يمثل شكلاً حيوانياً أم شكلاً آدمياً، إلا أن الكتابة المحاذية له قد تفسر ذلك بأنه يمثل شكلاً آدمياً.

٢- رسومات الأشكال الحية في الدوائر الصغيرة في الجناح الشمالي:

ذكرنا سابقاً أن هنالك تسعة وتسعين شكلاً دائرياً في هذا الجناح، مما يعني وجود العدد نفسه من الأشكال الفنية سواء الهندسية أو النباتية، أو الحيوانية، أو الآدمية، ورغم أن كثيراً من هذه الأشكال اختفت بسبب حركة التدمير الأيقوني، أو بسبب العوامل الطبيعية، إلا أنه يمكن مشاهدة بعض بقايا الأشكال الحيوانية، ومن أكثرها بقاء صورة تمثل طيراً، وأخرى تمثل سمكتين وضعت بشكل متقاطع.

٣- أما الإطارات المربعة والمستطيلة وهي من أكثر الأشكال تمثيلاً لحركة التدمير الأيقوني، ويمكننا وصفها على النحو التالي:

أ- **الشكل المستطيل** فقد احتوى كما سبقت الإشارة على القبة المحمولة على أربعة أعمدة يتدلى منها مصباح ضوئي، بحيث لوحظ وجود ثلاثة أشكال مدمرة أيقونياً بدليل استخدام حبيبات من الفسيفساء الأكبر حجماً بدلاً من الأصلية، والأشكال الثلاثة تمثل صورة ثلاثة أشخاص كأنهم يسيرون بعضهم خلف بعض، إلا أنه لا

يمكن معرفة من هم هؤلاء على وجه التقريب بسبب غياب المؤشرات التي تدل على ذلك، خاصة الكتابات التي قد تساعد في معرفة هؤلاء الأشخاص.

ب- **الشكل المربع الأوسط:** وهو شكل تعرض للتدمير الأيقوني كسابقه، ويبدو أن الشخص الذي يظهر هنا كان يلبس تاجاً مشعاً (Radiated crown)، وربما هنالك أشخاص آخرون في هذا الرسم لأن المساحة تحتمل ذلك، إلا أنه لا يوجد ما يشير إليهم بسبب التدمير الأيقوني.

ج- **الشكل المربع الثاني:** احتوى هذا الحيز المكاني مساحة شغلت شكلاً آدمياً أو حيوانياً، لم يظهر منه ما يشير إلى طبيعته وماهيته، إلا أن سياق الأشكال في هذا الجناح يدفعنا لترجيح وجود شكل آدمي دمر تماماً بحيث لا يمكن معرفة خطوطه الفنية العامة.

٤- رسومات الأشكال الحية داخل الإطارات الثمانية والدائرية (صحن الكنيسة):

يمكن هنا تقسيم الأشكال الحية ضمن إطاراتها، وهي على النحو التالي:

أ- الإطارات الثمانية.

ب- الإطارات الدائرية بين صفي الأشكال الثمانية.

ج- إطارات دوائر شجرة الكرمة.

أ- الأشكال الثمانية: احتوى صحن الكنيسة على عشرة أشكال ثُمانية على صورة صفين، كل صف مكون من خمسة إطارات متشابهة من حيث الشكل والحجم والمساحة، وقد لوحظ وجود تدمير أيقوني واسع فيها، فقد توسط كل إطار ثُماني شكل آدمي أو حيواني، وعلى الأرجح شكل آدمي حيث يُستشف ذلك من خلال كتابة موجودة على الإطار ثُماني الأول في الصف الأول من اليمين، إلا أن

أعمال التدمير قد أتت عليها بحيث لا يستطيع المرء تحديد الرسومات المنفذة سابقاً. (شكل (٤)).

ب- الإطارات الدائرية بين صفي الإطارات الثُمانية، وهي تمثل أربع دوائر جرى تدمير أشكالها الداخلية كما حصل في السابق. شكل (٥).

ج- إطارات دوائر شجرة الكرمة: يلتف شريط طويل من أغصان الكرمة التي تخرج من مزهريات أو جرار صغيرة ركنية، وضعت في إطارتها الدائرية العديد من الأشكال الحيوانية التي يمكن ذكر أمثلة منها لأن خطوطها العامة الخارجية لا تزال تشير إلى الشكل الحيواني المنفذ، ومن أمثال ذلك: الثعالب، والكلاب، والأسود، وأنواع من الطير بمشاهد حركية تنمّ على قدرة الفنان في تمثيلها بشكل حقيقي واقعي.

٥- رسومات الأشكال الحية في الجناح الشمالي:

يظهر في هذا الجناح تأثير حركة الأيقونات في أربعة مواضع ضمن إطار واسع تعرضت فيه الأشكال الحية إلى التدمير، ولم يبقَ منها سوى رسمٍ يمثل الجزء العلوي لأحد الوجوه الآدمية، ورسمٍ يمثل سمكتين.

لماذا حدثت حركة الأيقونات؟

إن مسألة التصوير في الفن البيزنطي بدأت بشكل عفوي ولم يكن لها في الأساس صفة دينية، غير أن ذلك قد تطور إلى حماس ديني مؤثر، أصبح مع الأيام يمثل اتجاهات دينية خالصة، الأمر الذي أثر في العقيدة المسيحية بشكل كبير[٥].

وتشير بعض الدراسات إلى أن إعلان الإمبراطور ليو الثالث ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس الحرب على تقديس الأيقونات، وبالتالي فإن المعارضين للأيقونات آمنوا بأن الصور ليست ذات صفة سامية ومقدسة، لذلك حقروها وحطوا من شأنها، وعليه فقد ظهر نظام عسكري قوّض تقديس الصور وحطّمها وقلل من شأنها كثيراً[٦].

ومن ذلك نخلص إلى أن الاتهام الموجه للمسلمين حول هذه الحركة ليس له أي سند حقيقي، ولم يكن المرسوم المزعوم عن الخليفة يزيد الثاني بهذا الخصوص (تحطيم الصور) ذا أصول، لأن جلّ المصادر الإسلامية المبكرة لم تشر إلى هذه الرسوم، إنما جاء في مصادر أخرى متأخرة مثل المقريزي في خططه، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة...[٧]. ولكن يبدو أن هذه الحركة قد نبعت من الكيان المسيحي نفسه، لأن الناس لجؤوا إلى عبادة هذه الصور وتقديسها، فرفضت في أماكن خاصة وأحيطت بعناية فائقة[٨]. لذلك ظهرت الأحزاب المعادية للأيقونات عموماً، أقواها الحزب الذي اتخذ من آسية الصغرى مركزاً له، وكان يرأسه كلوديويولس وقسطنطين أسقف ناكوليا الذي أُطلق عليه اسم الأسقف الهرطقي[٩].

ولكن هل تعرضت مواقع أخرى في بلاد الشام لهذه الحركة؟ الأمثلة على ذلك كثيرة من بينها: أرضيات فسيفساء كنيسة الخارطة، وسياغة المخيط في الأردن وكنائس عين حنينا وخربة أسيدا في فلسطين، والأمثلة كثيرة في منطقة بلاد الشام ولا يمكننا حصرها في هذا المقام[١٠]، وقد تكشف الأثرية في المنطقة عن المزيد من الأرضيات الفسيفسائية التي عانت من آثار هذه الحركة.

نتائج البحث:

يمكن إجمال نتائج البحث حول هذه الكنيسة في مسألة رئيسية تتلخص في أن منفذي التدمير الأيقوني هنا قد ركزوا كثيراً في عملهم على الأشكال الحية خاصة الآدمية، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال بقاء عدد لا بأس به من الأشكال الحية (الحيوانية) في أماكن مختلفة من الأرضية الفسيفسائية، مما يشير إلى أن أعداء الأيقونات في هذا الموقع كان همهم الخلاص فقط من الأشكال الآدمية التي أتوا عليها جميعاً.

ومسألة أخرى يمكن الاستدلال عليها تتعلق بوجود مرحلتين للتدمير، الأولى جرى فيها إعادة رصف الأماكن المنتزع منها الأشكال الحية بالمكعبات نفسها مع إعادة بعثرتها

لطمس ملامحها، والثانية استخدام مكعبات أكبر حجماً وذات لون أبيض، ويبدو أن هذه المرحلة حدثت في وقت لاحق بسبب الخراب الذي أثر في تفكك مكعبات الفسيفساء الأصلية من أماكنها[١١].

ويمكن ملاحظة أن المساحات التي جرى تدميرها والتي تحتل أشكالاً حية شكلت النسب التالية:

- الأشكال الحية المدمرة في الجناح الشمالي ٦,٤م٢ مجموع المساحة.
- الأشكال الحية المدمرة في الصحن ٢٠,٠٥م٢ مجموع المساحة.
- الأشكال الحية المدمرة في الجناح الجنوبي ٣١,١٨م٢ مجموع المساحة.
- المجموع ٥٧,٢٧م٢.
- المساحة الكلية للأرضية الفسيفسائية ٢٠٣,١م٢.

من ذلك نخلص إلى أن ما يعادل أكثر من ربع مساحة الأرضية الفسيفسائية كان مزيناً بالأشكال الآدمية والحيوانية التي أصابها التدمير الأيقوني.

وعليه فإننا نرى أن هذه النسبة المرتفعة لمساحة الأشكال في كنيسة يعمون تشير إلى أن التدمير الأيقوني كان واسعاً حتى أتى على كل هذه المساحة، ولم يبقَ غير أجزاء بسيطة متناثرة هنا وهناك كما سبقت الإشارة، خاصة بعض الطيور والأسماك، وهذا ما يدفعنا للاعتقاد بأن المساحات الأكثر تدميراً تمثل أشكالاً آدمية في أغلب الأحوال، ولا يعني هذا الضرورة أن الأشكال المدمرة لم تكن حيوانية.

المراجع والهوامش

(١) جيروم روز، محمود النجار، نزار الطرشان، الموسم الأول للتنقيبات الأثرية بموقع يعمون ١٩٩٩، **مجلة أبناء معهد الآثار والأنثروبولوجيا**، جامعة اليرموك، العدد ٢٢/٢٠٠٠، ص ٨-١١.

(٢) قامت جامعة اليرموك ممثلة بمعهد الآثار والأنثروبولوجيا بإشراف محمود النجار وجامعة أركنسو الأمريكية بإشراف جيروم روز، ودائرة الآثار العامة الأردنية، بأعمال التنقيب في الموقع لغايات تدريب طلبة الجامعتين على الأعمال الميدانية في حقل الآثار والأنثروبولوجيا، وكذلك الحصول على معلومات تتعلق بعادات الدفن والأمراض والتغذية السائدة خلال العصرين الروماني والبيزنطي.

(٣) حركة التدمير الأيقوني، حركة دينية هدفها تدمير صور الأشكال الحية من أشكال آدمية أو حيوانية في الأماكن الدينية خاصة الكنائس، مما ترتب عليها تشويه جميع هذه الأشكال بصورة ملفتة للانتباه.

- نزار الطرشان، **المدارس الأساسية للفسيفساء الأموية في بلاد الشام**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية.
- عبد الرحمن محمد العبد الغني، إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات، ومدى تأثيره في سياسة الإمبراطور ليو الثالث الأيقونية، **دراسات تاريخية**، جامعة دمشق، السنة ١٧، العددان ٥٧-٥٨ أيلول - كانون أول ١٩٩٦، ص ٧١-١٠٨، مع قوائم المصادر والمراجع المرفقة مع كلاهما.

(٤) نزيه كواكبي، **تاريخ العمارة، عمارة فجر المسيحية والبيزنطية**، المطبعة التعاونية، ١٩٨٢، ص ٤٠ وما بعدها.

(٥) نبيه عاقل، الإمبراطورية البيزنطية، دمشق، ١٩٦٩، ص ١٣٧.

(٦) Franzius, E: History of the Byzantine Empire Mother of Nation Funk and Wangnalls, Newyork, 1967, p. 146.

Barnard: the Graeco- Roman and Oriental back groung of the Iconclastic Controversy. E. J. Brill, Leiden, 1974. p. 3-4.

(٧) المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج٢، دار صادر، بيروت، ٤٩٣.

- ابن تغري بردى، **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ط١، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص ٢٥٠.

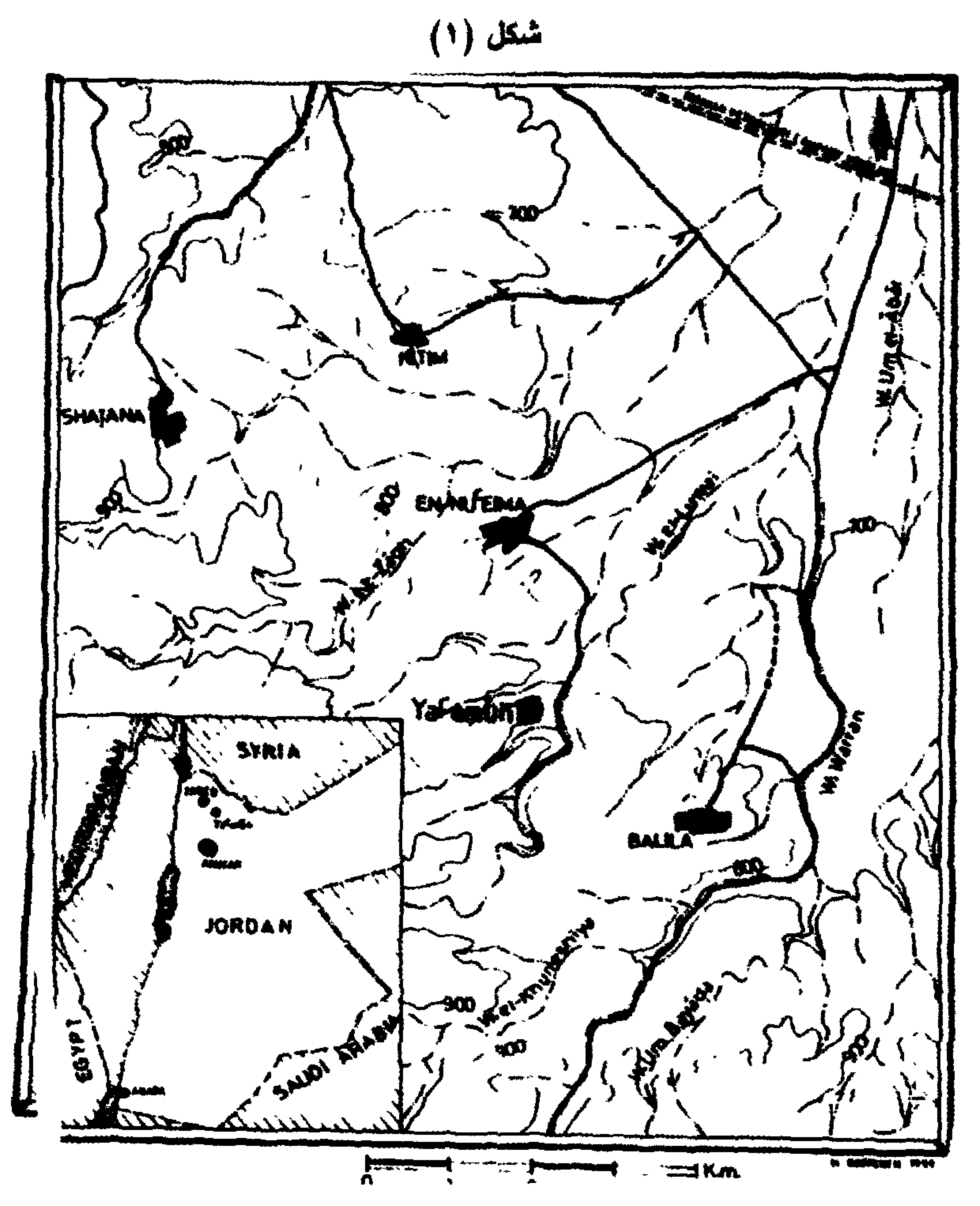
(٨) نزار الطرشان، ص ١٥.

(٩) نبيه عاقل، ص ١٤٨-١٤٩.

(١٠) نزار الطرشان، ص ١٧-١٨، لمزيد من التفاصيل انظر المرجع المذكور.

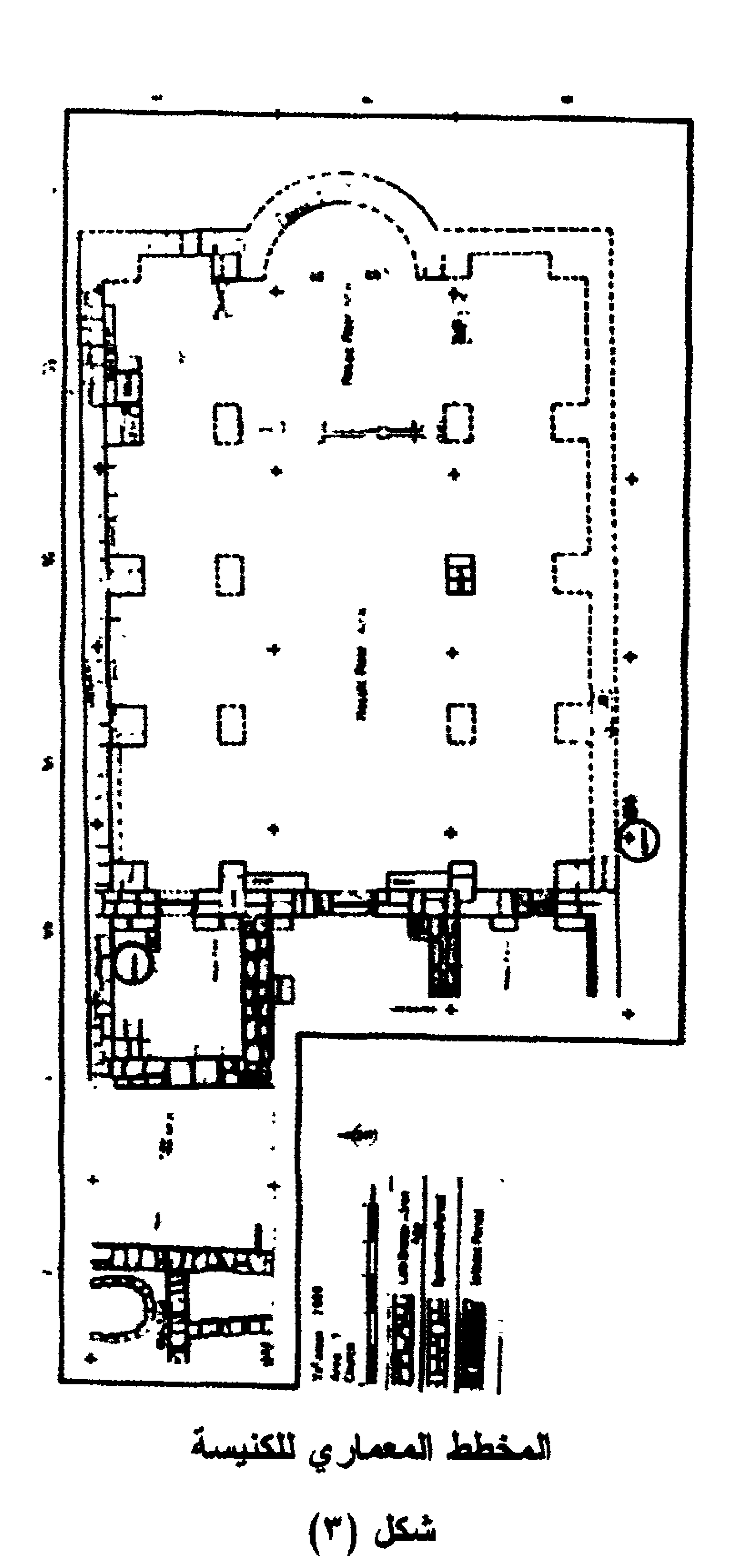
(١١) يربط البعض هذه المكعبات البيضاء والكبيرة بالفترة الأموية، ولكن ليس ما يؤكد أو يرجح ذلك.

شكل (١)



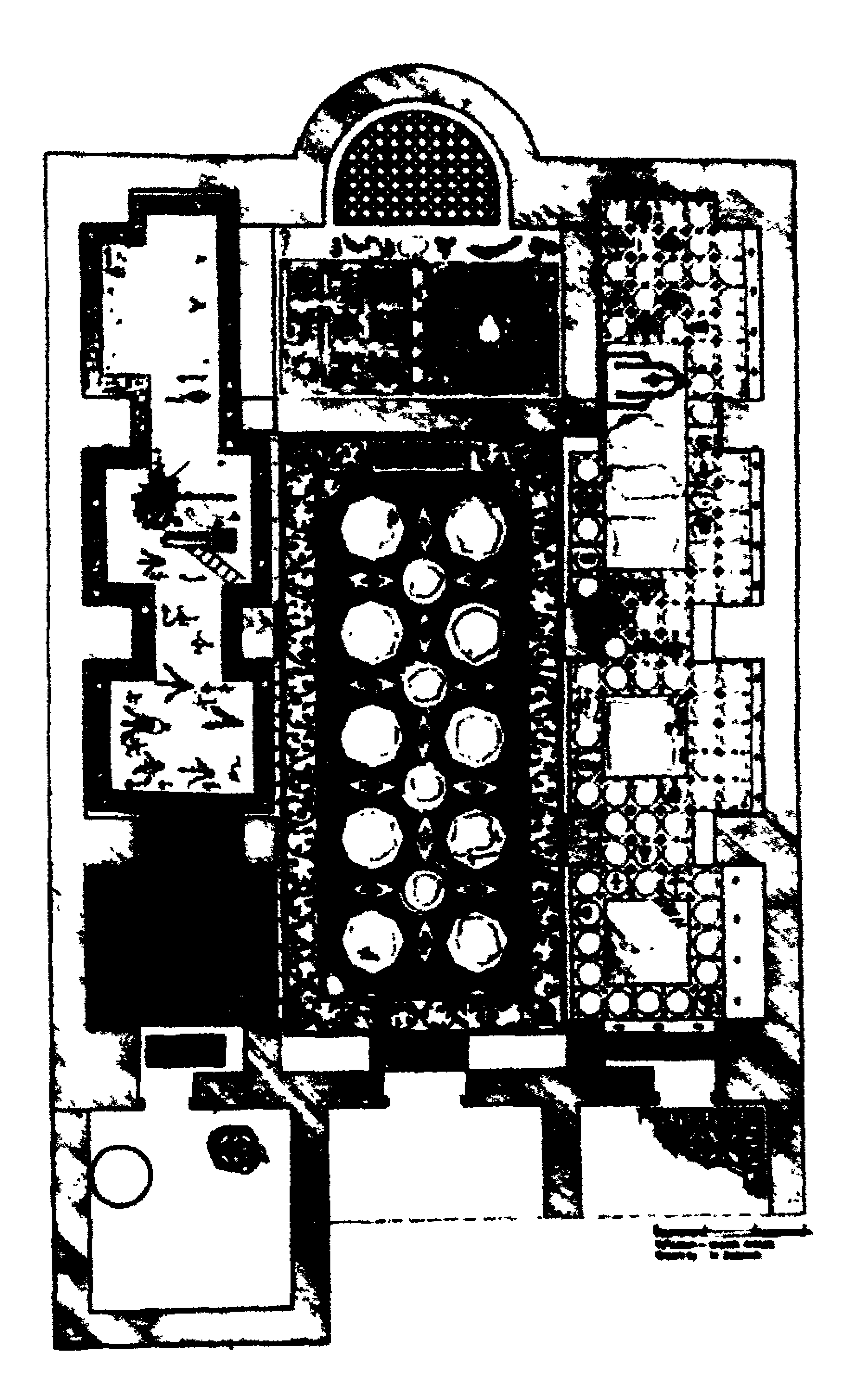
خارطة تمثل موقع يعمون

شكل (٢)



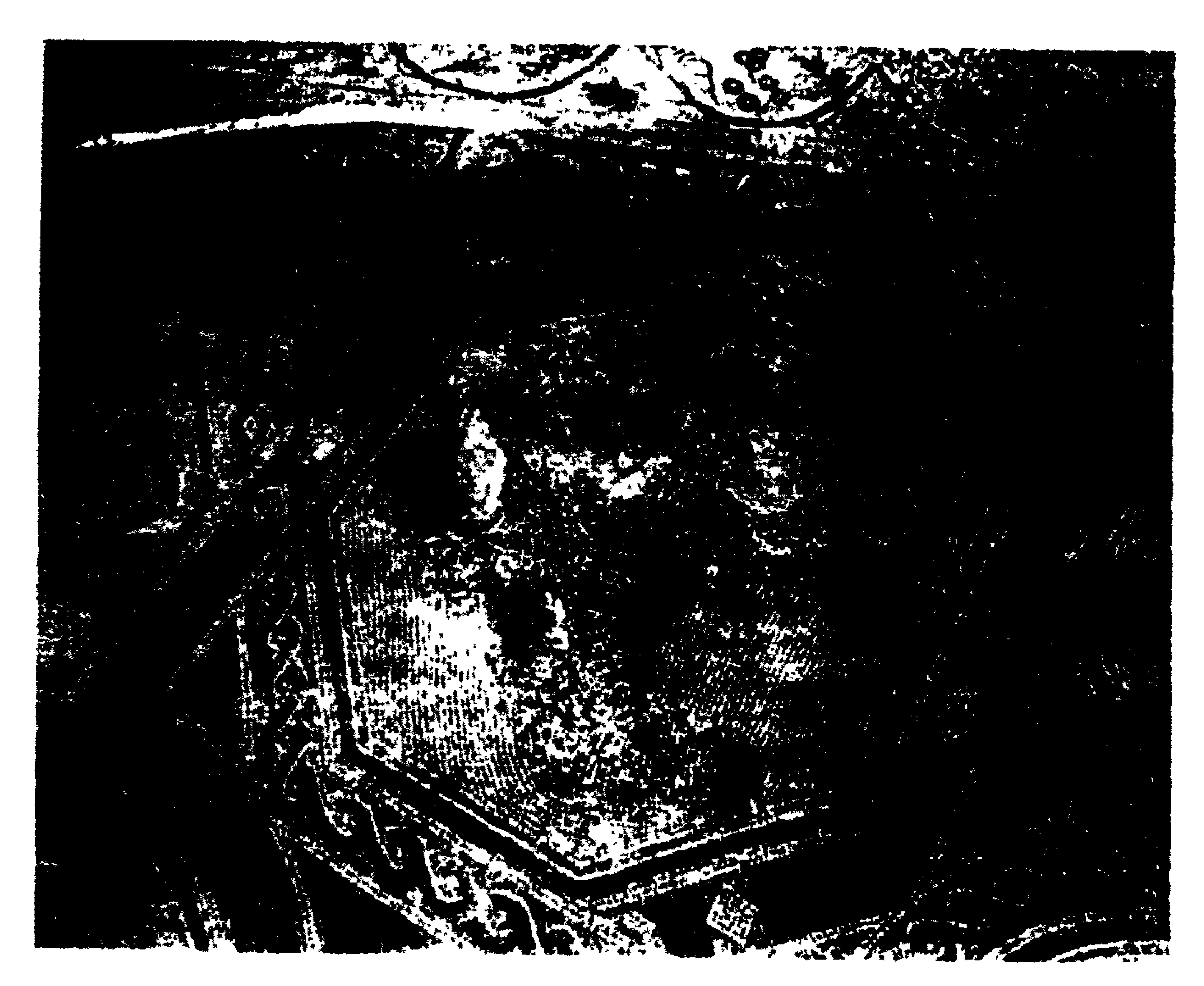
المخطط المعماري للكنيسة

شكل (٣)



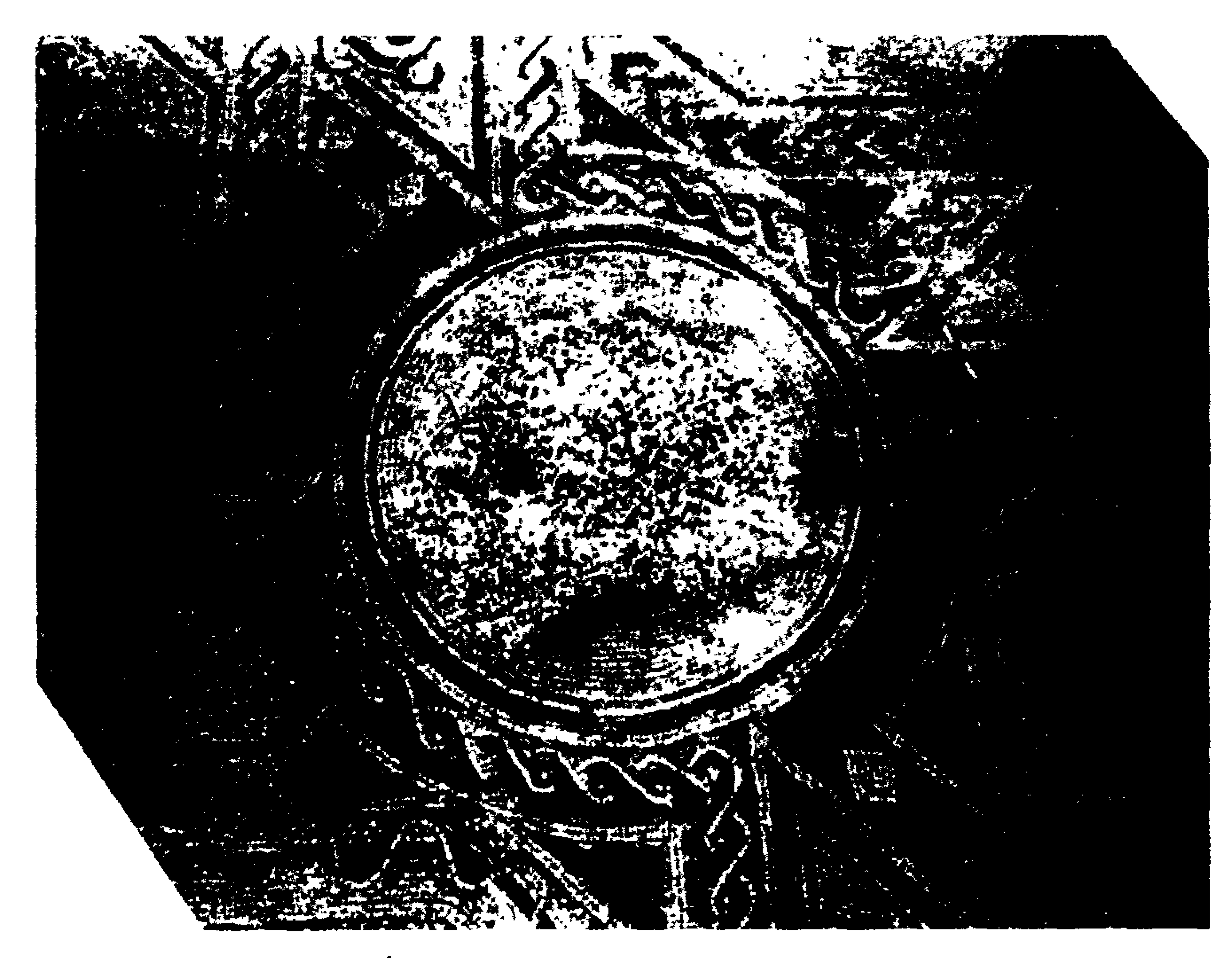
أرضية الفسيفساء في الكنيسة

شكل (٤)



نموذج للأشكال الثمانية المدمرة أيقونياً

شكل (٥)



نموذج للأشكال الدائرية المدمرة أيقونياً

الجغرافيا التاريخية للمدن السعودية

الدكتور محمد محمود السرياني

قسم الجغرافيا

جامعة أم القرى

الجغرافيا التاريخية للمدن السعودية

الدكتور محمد محمود السرياني

قسم الجغرافيا

جامعة أم القرى

توطئة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز بعض جوانب الجغرافيا التاريخية لمجموعة المدن السعودية في عصورها الغابرة. وليس هذا البحث استعراضاً تاريخياً، وإن كانت جميع مصادره تاريخية، لأن الغاية منه وهي رسم صورة لواقع الاستيطان البشري خلال العصور التاريخية الماضية. وما حدث لهذا الاستيطان من تطور ونماء أو ضمور واضمحلال. فبعض المستوطنات القديمة عاشت وازدهرت، وبعضها ساد ثم باد ولم يبق منها إلا أطلال دارسة تشهد بعظمة الماضي التاريخي الذي عاشته هذه المستوطنات غير أنها تركت مكانها لمستوطنات أخرى.

سنسلط الضوء على الجغرافيا التاريخية للمستوطنات الحضرية من خلال مرور سريع عبر الأزمنة التاريخية المختلفة ابتداءً من استيطان الإنسان في الجزيرة العربية ووصولاً إلى الوقت الحاضر مبرزين أهم جوانب النمو الحضاري، والأسباب التي أدت إلى وجوده واستمراره. ونعتذر عن الإيجاز الشديد في الاستعراض التاريخي لأن الهدف منا ذكرنا ليس تاريخياً بقدر ما هو جغرافي يبرز أهمية المكان عبر التاريخ. غير أننا أحلنا القارئ الذي يريد المزيد إلى قائمة من المراجع المختصة.

٢- آثار الاستيطان البشري في المملكة العربية السعودية:

لقد استوطن الإنسان الأول الجزيرة العربية. منذ وقت مبكر، فهناك دلائل على وجود مستوطنات بشرية تعود إلى العصر الحجري والمتوسط والحديث، غير أن تلك الدلائل لا تزال من دون تصنيف ثابت يوضح تفاصيلها الدقيقة[١].

إن معظم مستوطنات العصر الحجري التي عثر عليها قد تركزت على أطراف الصحارى كصحراء النفوذ في الشمال والربع الخالي في الجنوب والجنوب الشرقي. وكذلك في جنوب نجد وشرق عسير وحائل ووادي السرحان وغيرها ويعود تاريخ وجود هذه المستوطنات إلى فترات تاريخية يتراوح مداها بين مائتي ألف سنة وعشرة آلاف سنة قبل الميلاد.

والمفاتيح الرئيسية لتوزيع هذه المواقع يرتبط بوجود المياه في تلك المناطق منذ آلاف السنين، ومن ثم فإن أي فهم حقيقي لمستوطنات العصر الحجري في جميع أنحاء المنطقة يعتمد على معرفتنا بخطوات التغير البيئي والمناخي الذي طرأ على الجزيرة العربية منذ العصر الجليدي الأوسط، فقد شهدت المنطقة تغيرات بيئية ومناخية زادت حدتها وسرعتها نحو نهاية العصر الحجري الحديث. ومع نهاية العصر الجليدي ربما حدثت تغيرات أقنعت شعوب الجزيرة بالهجرة لمناطق مجاورة في الشمال والغرب الأمر الذي مهّد لقيام صلات أوسع مع الحضارات الخارجية في فترة العصور اللاحقة.

يؤكد علماء الآثار أنه قبل ٩,٠٠٠ سنة قبل الميلاد بدأ اعتماد الإنسان في الجزيرة العربية على تربية الأغنام المستأنسة لدى جماعات بشرية مستقرة جزئياً تمارس أنماطاً موسمية فرضتها عوامل مناخية خاصة. لقد كانت المراكز الرئيسية لهذه المستوطنات هي المناطق الشرقية والوسطى والشمالية والغربية. ومن المحتمل أن تكون تحركات السكان في هذه المناطق قد انتشرت بصورة بطيئة لمناطق خارج الجزيرة مثل جنوب بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، الأمر الذي أوجد اتصالاً

حضارياً بين سكان هذه المنطقة والمناطق المجاورة حيث بدأت هذه الحضارة ترتبط بالسجلات التاريخية المكتوبة منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وقد استمرت هذه الصلات التاريخية حتى العصر الإسلامي.

ويمكن القول إنه في هذا الوقت دخلت منطقة شرق الجزيرة في دائرة بلاد ما بين النهرين الحضارية كما أن شمال وشمال غرب الجزيرة كان يعمل على خلق روابط حضارية بأراضي فلسطين وبلاد الشام، أما ساحل البحر الأحمر الغربي بكل مناطقه فقد أقام اتصالات مبكرة مع وادي النيل عبر البحر الأحمر أو عن طريق سيناء.

٣- بواكير التاريخ الحضري:

يرى الدكتور عبد الله حسن مصري أن أولى المستوطنات الحضرية قد أظهرت إبّان الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت بواكيرها قد تركّزت على طول ساحل الخليج العربية نتيجة للاتصالات الأولية مع بلاد ما بين النهرين من جهة، ونتيجة زيادة الاتصالات التجارية العالمية التي كان الخليج العربي يمثّل أحد بؤرها الرئيسية من جهة أخرى. فعلى الساحل الشرقي للخليج العربي قامت مجموعة من المراكز الاستيطانية امتدت جسورها ما بين عمان، وأراضي الكويت، وكوّنت هذه المراكز مجموعة متآلفة من المستوطنات الساحلية والنصف ساحلية. تعيش على مصادر طبيعية وبشرية محلية بالإضافة إلى الاستفادة التامة من العلاقات التجارية التي كانت تربط بلاد ما بين النهرين ووادي السند، وجنوب غرب إيران. وليس من قبيل المبالغة أن نصف الأنشطة التجارية التي قامت في الخليج على طول سواحله أثناء تلك الفترة بأنها كانت من أراضي نظم التجارة العالمية[٢].

إن لمراكز الاستيطان الساحلية أدواراً مهمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد من ناحيتين بارزتين:

١- الناحية الأولى: هي تقديم المواد الخام كالنحاس من عمان، وكذلك المنتجات البحرية وربما المحاصيل الزراعية التي كانت مزدهرة في واحات الإحساء والقطيف.

٢- الناحية الثانية: قيام موانئ بحرية على طول الخليج أصبحت مراكز للتبادل التجاري وتوزيع السلع، سواء كان تبادلاً تجارياً قصير المدى يتم بين المستوطنات نفسها أو تجارة بعيدة المدى تتم مع بلاد ما بين النهرين، وبين الجهات الأخرى في إيران ونهر السند. ومثالاً على ذلك نذكر مستوطنة "جزيرة تاروت" وساحل القطيف اللتين ازدهرتا عن طريق الرخام والحجر اللازوردي، فضلاً عن النحاس وهي مواد خام أو مصنعة تتطلبها التجارة الدولية.

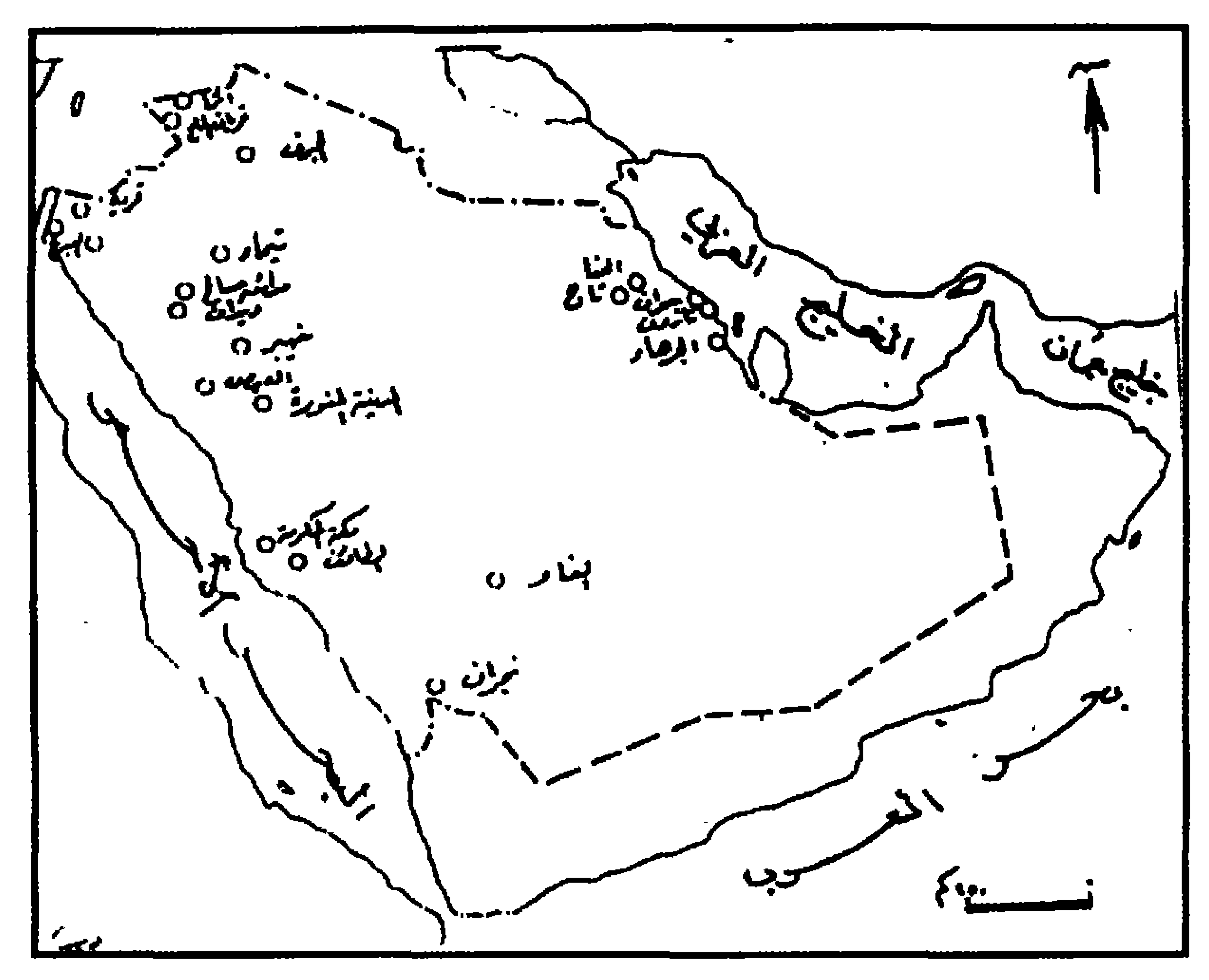
أما خلال الألف الثاني قبل الميلاد، فقد تدهورت هذه المستوطنات نتيجة لركود التجارة الدولية في بلاد ما بين النهرين وجنوب غرب إيران، حيث ساد في هذه الفترة في بلاد النهرين عصر تخلف عُرف بعصر الظلام. وكان من نتيجة ذلك تدهور الكثير من المستوطنات واضمحلال بعضها الآخر. وقد واصلت بعض هذه المستوطنات ازدهارها بالرغم من تضاؤل التجارة الدولية التي كانت تستفيد منها.

وفي الوقت الذي كانت فيه المراكز الاستيطانية مزدهرة في شرق الجزيرة العربية، كان هناك مستوطنات حضرية تقوم في المناطق الشمالية والشمالية الغربية، وفقد قامت هذه المراكز على استغلال نظام الواحات الزراعية والمصادر المعدنية المتوافرة مكونة شبكة من العلاقات التجارية مع بلاد الشام، ومصر، ولعل أهم هذه المستوطنات هي "القرية" و"وادي السرحان ومدين الشمالي"، ولم تمر هذه المستوطنات بفترة الانحسار والتراجع التي شهدتها مستوطنات المنطقة الشرقية خلال القرن الثاني قبل الميلاد بل ظهرت بالإضافة إلى هذه المدن مجموعات من المدن ذات الأسوار الكبيرة منذ منتصف حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد مثل مدن "تيماء"، "ديدان"، (العلا الحديثة)، خيبر، الجوف (دومة الجندل). ويبدو أن هذه المدن قد حققت وجودها عن

طريق زراعة الواحات وتهجين الحيوانات، كما استفادت من مواقعها على طول التجارة العربية القديمة[٣]، (انظر الشكل ١) .

لقد شهدت الألف الأولى قبل الميلاد نمواً سريعاً في جميع مراكز الاستيطان البشري في الجزيرة العربية. وكانت أطراف الجزيرة في هذه الفترة قد وقعت تحت وطأة النفوذ الإغريقي ثم الزحف الروماني، أما الأطراف الشرقية فقد دخلت في صراع مع إمبراطوريات بلاد ما بين النهرين. وبالرغم من هذا الصراع كان هناك اتصال حضاري وتجاري بين مستوطنات سواحل الخليج العربي والآشوريين والبابليين وغيرهم من الأمم الأخرى. وقد شهدت مدن أخرى "الجرهاء"، و "ثاج"، قمة تطورهما الحضاري إبّان هذه الفترة وازدهرت المدن التجارية الأخرى الواقعة في الجنوب الغربي مثل "الفاو"، و"نجران"، وعظم أمر المدن الشمالية التي كانت قد ظهرت بواكيرها في الألف الثاني قبل الميلاد في شمال الجزيرة، فقد قامت مستوطنة "حائل" أو "آركوم"، كما جاء في المصادر اليونانية واشتهرت مراكز أخرى على طول وادي السرحان، الذي عرف فيما بعد "ببوابة الجزيرة العربية الشمالية". وكانت "الجوف"، قد توسعت بسرعة عظيمة حتى إنها سيطرت على المنطقتين الوسطى والشمالية من أراض الجزيرة[٤]".

ولعل مملكة كندة الشهيرة، قد جعلت من مدينة الفاو، التجارية، مركزاً سياسياً حضارياً لها في قلب الجزيرة العربية. وقد دلّت الحفريات الأثرية على تعاقب المستوطنات في هذا الموقع ابتداءً من منتصف :الألف الأول قبل الميلاد حتى قبيل العصر الإسلامي. كما دلّت على وجود علاقات حضارية بين الفاو، وكل من الساسانيين، واليونان، بالإضافة إلى حضارات جنوب الجزيرة العربية (السبأية والحميرية).



الصور: قاضي تخطيط المدن في المملكة العربية السعودية شكل

المدن القديمة الواقعة على خطوط التجارة العالمية.

وربما شمل نفوذ مملكة كندة، مدن التجارة المعروفة مثل "نجران"، و"جرش"، الواقعة على المنحدرات الشرقية لجبال عسير على خط سير طرق التجارة العربية القديمة. وتجسّدت شهرة مراكز هذه المدن في علاقاتها مع أراضي "بلقيس"، و"فلسطين"، ومن المحتمل أن تكون المرتفعات المحيطة بها هي ما سمي في الأساطير "أراضي أفير" التي اشتهرت بالأخشاب والفضة والتوابل والذهب إبّان عصر نبي الله سليمان (١٠٠٠ ق.م). وقد غزا الرومان المنطقة بقيادة "اليوس جالوس" في القرن الثاني بعد الميلاد، بحثاً عن السيطرة على نطاق التجارة العربية غير أن المحاولة منيت بالفشل.

ولعل من أعظم التطورات خلال الألف الأول قبل الميلاد هو ظهور مملكة "مدين"، التي قامت في شمالي البلاد فيما يعرف الآن "بالبدع"، وامتد نفوذها بحيث شمل

المنحدرات الشرقية لجبال الحجاز، وتعدّاه ليشمل مناطق أخرى ساحلية تمتد على شواطئ البحر الأحمر بين جدة، حتى خليج العقبة.

وفي هذا الإطار المكاني قامت مملكة "الدادانيين"، في العلا الحديثة، خليت بتسجيل تاريخها لأنها اقترنت بهروب أحدٰ ملوك بابل، والتجائه إليها مدة عشر سنوات. وبفضل هذه الحادثة ورد ذكر كثير من المدن القديمة التي ازدهرت في المنطقة مثل "أدوماتو" (الجوف الحديثة)، وكذلك "ياثريبو" (المدينة المنورة)، وحشد آخر من المدن التي لم يتم التحقق بعد من مواقعها الجغرافية(٥).

وفي أواخر الألف الأول قبل الميلاد ظهرت مملكة الأنباط، التي كانت مواطنها في جنوب الأردن في "البتراء"، وشمال المملكة في "مدائن صالح"، وكان نفوذ دولة الأنباط يقوم بصفة أساسية على التحكم في التجارة الدولية آنذاك. وقد تميز نفوذهم التقليدي بالامتداد في الصحراء السورية، ووادي الأردن، حتى شمال غرب الجزيرة العربية. ولقد أكدت الكشوف الأخيرة سيطرتهم على المستوطنات الداخلية الموجودة في وادي السرحان، والجوف. لقد انهارت مملكة الأنباط، أمام التوسع الروماني في القرن الثاني الميلادي(٦).

وفي الفترة التي تلت القرن الثاني الميلادي حتى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كانت الجزيرة العربية، حلبة الصراع الضاري بين الإمبراطورية الرومانية في الشمال الغربي، وبين الإمبراطورية الفارسية في الشرق. وقد ظهرت خلال هذه الحقبة الإمارات العربية الموالية للروم والفرس. ويعتبر الغساسنة، في الشمال العربي والمناذرة، في الشمال الشرقي للجزيرة العربية مثالين بارزين لحدة هذا النزاع. ومع ذلك فقد حافظت هذه المراكز على استمرارها وبقائها فاستمرت الفاو، حتى القرن الرابع الميلادي. وبقي مركز نجران، حتى قبل العهد الإسلامي لا بل ظهرت مدن أخرى إبّان هذه الحقبة مثل الجار، والعيص، (ينبع حالياً). واستعادت مكة مركزها

المرموق من خلال موازنة ذكية بين دولتي المناذرة، والغساسنة في الشمال، وبين مدن اليمن في الجنوب.

نخلص إلى القول: إن المراكز الحضرية التي قامت في الجزيرة العربية خلال هذه الحقبة تتمتع بأهميتها كمواقع على طرق التجارة العالمية كما تتمتع بمواضع حيوية مهمة ساعدت على بقائها واستمرارها حتى بعد اضمحلال طرق التجارة العالمية. لقد كان القسم الأكبر من المدن السابقة يقع ضمن أودية زراعية أو في مناطق واحات خصبة تكفل بقاءها واستمرارها، الأمر الذي جعل هذه المراكز الحضرية نقاط جذب لمجموعات سكانية بدوية يفاجئها القحط في الصحراء فتتسلل إلى تلك الواحات لتضمن لنفسها استمرارية الوجود. وبمرور الزمن تستقر وتتوطن وتزرع الأرض وتشيد البيوت وتستبدل حياة التنقل والترحال بحياة الاستقرار بالمدن، وتلك أولى خصائص المجتمع الحضري.

أما ثاني تلك الخصائص فيتمثل باعتماد التجارة. والتجارة الواسعة أساس للنظام الاقتصادي في المدينة. وقد أدى التبادل التجاري الواسع إلى تلاقح ثقافي وحضاري تم بين المراكز الحضرية في الجزيرة العربية وبين حواضر العالم القديم في اليمن، والشام، والحبشة، والعراق، وإيران، والهند(٧).

أما السمة الثالثة فهي الانفتاح السكاني في هذه الحواضر ذلك الانفتاح الذي ضمن استمرارية الهجرة والنزوح إلى هذه المدن. ففي مكة مثلاً – تلك المدينة التي ترجع أهمية موضعها بجانب كونها مركزاً متميزاً إلى اختيار النبي ابراهيم عليه السلام لها دار إقامة لولده اسماعيل، ثم بناء الكعبة المشرفة فيها. كان السكان وأغلبهم من قريش يعمدون إلى تسهيل طرق القدوم عن طريق عقد معاهدات أمنية وتجارية مع حكم المناطق المجاورة في العراق، والشام، واليمن، كما عمدوا إلى إشراك معظم القبائل الواقعة على طرق تجارتهم بهذا النشاط التجاري، الأمر الذي ساعد على ازدهار

وتطوير المدن الأخرى التي هي في واقع الحال محطّات على الطريق التي تعبرها القوافل التجارية في ذهابها بين اليمن والشام.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد ارتضت قريش أن تضع لكل قبيلة صنماً خاصاً في الكعبة يأتي أتباعه لزيارته، كما أقامت المهرجانات الأدبية في الأسواق التجارية الموسمية (سوق عكاظ، ومجنة، وذو المجاز) لإظهار نوابغ القبائل في الشعر والخطابة والأدب فتقاطر الناس إلى مكة، واستوطن بها عدد كبير من الأجانب ينتمون لقبائل مختلفة وأمم مختلفة تعايش بعضها مع البعض الآخر وكان من نتيجة ذلك ظهور الصناعات الحرفية التي كان يمارسها الوافدون إلى المدينة. أما أبناء قريش فكانت تسند إليهم في العادة الخدمات الواجب تقديمها في الحج. وقد احتكر هؤلاء – بالإضافة إلى ذلك – التجارة والمناصب الإدارية المهمة(٨).

٤- العصر الإسلامي:

لما جاء الإسلام كانت الجزيرة العربية مهده وموطنه الأول وأشرق نور الإسلام من بطاح مكة، ومع إشراقة الإسلام وهجرة الرسول الكريم إلى يثرب برز نجم المدينة المنورة التي شعّ منها الإسلام إلى مختلف بقاع الجزيرة العربية الأخرى، ثم إلى البقاع المجاورة، ليشمل الرقعة الأرضية للعالم الإسلامي اليوم. وأصبحت مكّة المكرّمة قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم والمكان الذي يتطلعون لزيارته لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج. وصارت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية إبّان عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين. وزاد عدد سكان المدينتين وعظمت ثرواتهما وزاد النشاط التجاري فيهما ورافق ذلك توسع مدينة الطائف وظهور مدينة جدة، كميناء رئيسي يخدم مكة المرمة، بعد أن أمر عثمان بن عفان الخليفة الراشدي الثالث، بجعل جدة ميناء لمكة، بدل ميناء الشعيبة، بحر مكة القديم. وظهر ميناء الجار، ليخدم المدينة المنورة ثم قامت مدينة ينبع، بهذا الدور وأصبحت ميناء المدينة المنورة الذي يربطها بالعالم الخارجي.

واستمرت مدن الحجاز بالرغم من انتقال مركز الخلافة إلى دمشق بالنمو والازدهار، فقد زادت الهجرة إليها بعودة الفاتحين من المهاجرين والأنصار وقدوم طلاب العلم إلى مراكز الإسلام الأولى. وقد تدفقت على المدينتين المقدستين أعطيات بني أمية السخية. وقد شغل الزهد والعبادة والعلم قسطاً من سكانها، كما شغل اللهو والفن والغناء البقية الباقية منهم. واستمر الحال كذلك في الفترة الأولى من الدولة العباسية حيث كانت المدينتان المقدستان محل اهتمام الخلفاء الأول من دولة بني العباس، وتشير الأدلة بصفة عامة إلى النمو البارز التوسع الشامل لمراكز المدن الشهيرة الأخرى في أنحاء شبه الجزيرة. وعلاوة على ذلك فقد أنشئت مدن جديدة في زمن الأمويين، والعباسيين، مثل سميرا، وسدرية، في نجد وأماكن أخرى بشرق الجزيرة العربية حيث توجد مئات من المواقع الإسلامية المبكرة. أما المدن القديمة فقد حققت نمواً كبيراً في كثافة الاستيطان خلال هذه الفترة. وذلك ما تشهد به الأدلة الأثرية.

لقد تم العثور على العديد من المستوطنات في الجنوب الغربي حول مناطق تعدين الذهب. ومن المحتمل أنه تم استخرّاج كميات كبيرة من الذهب إبّان العصر الأموي، والعباسي، كانت تشحن إلى مدن واسط في العراق والري بإيران. وقد تم إنشاء العديد من المدن على طول الساحل الغربي بالقرب من المواقع القديمة على امتداد الطريق الغربي للحج من مصر والشام. وظهر عدد كبير من المستوطنات التي حل بعضها محل المدن التجارية القديمة في الوقت الذي تم فيه تشييد مدن أخرى جديدة.

لقد ظهرت طرق تجارية جديدة ارتبطت بقوافل الحجيج بين الأراضي المقدسة والعراق، على مسافة تقدر بنحو الألف ميل عرفت فيما بعد باسم "درب زبيدة"، وقد أقام الخلفاء الأمويون والعباسيون، مرافق حيوية لصالح قوافل الحج، فشيدوا ما يزيد على سبعين محطة فيما بين الكوفة، ومكة المكرمة، وقد عكست خزانات المياه، والبرك المقامة في كل محطة إنجازات عمرانية وهندسية تمت خلال تلك العصور، هذا إلى جانب الخانات والمرافق الأخرى لخدمة الحجيج. وقد تم تعبيد مسافات كبيرة

من الطريق عند طرفه الشمالي الغربي عبر صحراء النفوذ حيث توجد الرمال التي تعيق سير الناس والدواب. وعلى طول هذا الطريق قامت الوحدات السكنية الكثيفة والآثار العمرانية(٩).

لقد تأثرت شبه الجزيرة العربية بما آل إليه حال الدولة الإسلامية من الضعف وتفرق الكلمة إبّان عصورها المتأخرة ، ثم دخلت الجزيرة العربية في عالم الاضطرابات السياسية فكانت مكة والمدينة ملجأ الخارجين على الحكومة المركزية في بغداد. وكان حبل الأمن مضطرباً، والبداوة على عداء تام مع سكان المدن. وباستثناء مدن الحجاز التي كانت تلقى بعض الاهتمام من السلطات الحاكمة في خارج الجزيرة. كانت مدن وحواضر الجزيرة العربية عبارة عن قرى تحيطها أسوار، ويساعد على وجودها واستمرارها كونها مراكز تسويق للمناطق المحيطة بها، وتحوي بعض النشاطات الحرفية المختلفة ويمارس أهلها نظام الزراعة في الواحات التي تقع معظم هذه الحواضر ضمنها. وقد استمر هذا الحال طوال العهود التاريخية ابتداءً من النصف الثاني للدولة العباسية مروراً بالفاطميين والقرامطة وآل زنكي والأيوبيين والمماليك، وانتهاءً بالدولة العثمانية التي استمر وجودها حتى الحرب العالمية الأولى.

ومع بداية القرن العشرين وفي أواخر أيام الدولة العثمانية كانت المنطقة المعروفة بالمملكة العربية السعودية اليوم، تنقسم إلى عدد من الحكومات المحلية المستقلة. وهذه الحكومات هي: المملكة الحجازية، والسلطنة النجدية، والإمارة الرشيدية، وإمارة الأدارسة، وإمارة آل عائض. ولم تكن الحدود بين هذه الإمارات واضحة ومعروفة، إذ إن كلاً منهما كان يحاول توسيع منطقة نفوذه على حساب المناطق الأخرى. إلا أنه على العموم نجد أن المملكة الحجازية كانت تشمل القسم الغربي من البلاد. أما السلطنة النجدية فقد كانت سيطرتها في المنطقة الوسطى (الرياض وما حولها)، وكان حكم آل الرشيد في حائل وبعض المناطق الشمالية، والأدارسة في الجنوب الغربي فيما يعرف الآن بمنطقة جيزان، وانحصر حكم آل عائض في عسير في المنطقة الجنوبية.

لقد بقي الحال إلى أن جاء عبد العزيز يرحمه الله فوحد الأجزاء الجزيرة المتفرقة ولم شِيعَها ووطد الأمن في ربوعها ودخلت المملكة العربية السعودية عصراً جديداً من التطور والنماء وذلك ابتداءً من مطلع القرن العشرين الذي يعدُّ بداية التحول إلى النمو الحضري الحديث الذي خطته المملكة بعد توحيدها.

المراجع والحواشي

(١) إن التاريخ القديم لجزيرة العرب لا يزال يكتنفه الغموض. وباستثناء الجزء الجنوبي الغربي الذي عرف باسم بلاد العرب السعيدة لم يتوصل الأثريون إلى المعرفة الكافية بمعطيات الأبعاد التاريخية القديمة غير أن الأبحاث العلمية المنتظمة عن آثار جزيرة العرب مكنت بعض الباحثين من رسم صورة أولية عن آثار الاستيطان البشري في هذه المنطقة وفقاً للعصور المختلفة. ولمعرفة المزيد عن تاريخ الجزيرة العربية إبان العصور الحجرية المختلفة راجع:

- كريستوفر ايدنز: العصر الحجري الحديث في الربع الخالي الغربي، **مجلة أطلال**، العدد ٦، س ١٤٠٢، ص ١٠٧-١٢٤.
- أندرو جارارد و ك. ب، هارني: أحوال البيئة والاستيطان في العصرين: البلايستوستي والهولوسيني في جبه النفوذ الكبير بشمال شبه جزيرة العرب، **مجلة أطلال**، ع . ٥، س ١٤٠١، ص ١٠٦-١١٤.
- عبد الله حسن مصري: **مقدمة عن آثار الاستيطان البشري بالمملكة العربية السعودية**، مجلة أطلال، ع ١، س ١٣٩٧هـ، ص ٨-٢٠.
- عبد الله حسن مصري: **ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني الجزيرة العربية قبل الإسلام**، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٩، ص ٧٩-٨٨.

(٢) لمزيد من التفصيلات حول الاستيطان الحضري في شرق الجزيرة العربية تراجع المصادر التالية:

- طلعت أحمد محمد عبده: **الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، بدون تاريخ.
- سليمان سعدون البدر: **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم منطقة الخليج العربي حلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد**، الكويت، ١٩٧٤.
- عبد الله حسن مصري: **آثار شرق الجزيرة العربية ودورها في نشأة سومر، مجلة الدارة**، ع١، س ٢، ١٣٩٦.
- انظر أيضاً عبد الله حسن مصري: **مرجع سابق**، ص ١٠-١٢.

(٣) لمزيد من التفصيلات عن هذه المستوطنات البشرية القديمة تراجع المصادر التالية:

- – رشيد سالم الناصوري: **حول أرض مدين** من حيث تحديد موقعها ودورها التاريخي المبكر: "**دراسات تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ٧١-٧٥.
- . و. باوريك: "**الأنباط والرومان في وادي السرحان**" دراسات في تاريخ الجزيرة العربية مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٣-١٣٧.
- ج. مندنهول: القرية والمدينيون "**دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٧-١٣٥.
- جارث بوردن: كريستوفر ايدنز، روبرت ميلر: "**برنامج حصر المعالم الأثرية في موقع تيماء القديمة**: التنقيبات الأولية في تيماء ١٣٩٩-١٩٧٩م "**مجلة أطلال**، ع٢، س ١٤٠٠، ص ٨٢-١٠٠.
- عبد الله حسن مصري: **مرجع سابق**، ص ١٤-١٥.

(٤) لمزيد من التفصيلات حول هذه المستوطنات تراجع المصادر التالية:

- نجيل جروم: الجرهاء: **مدينة مفقودة في الجزيرة العربية، مجلة أطلال**، ع٦، س ١٤٠٢، ص ٩٥-١٠٦.
- خالد محمد اسكوني: أضواء على أهم المكتشفات الأثرية لمدينة تاج "**مجلة الفيصل**"، ع، ٢٩، س ١٤٠٨هـ.
- عبد الرحمن الطيب الأنصاري: الموسم الرابع لحفريات قرية (الفاو) "**دراسات تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٥-٧٠.
- لطفي عبد الوهاب يحيى: الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي، "**دراسات تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ٩١-١٠٣.
- ج. و. باوريك: "**الأنباط والرومان في وادي السرحان**" دراسات في تاريخ الجزيرة العربية مرجع سابق.

(٥) لمزيد من التفصيلات حول هذه المستوطنات تراجع المصادر التالية:

- عبد الرحمن الطيب الأنصاري: **قرية الفاو صورة الحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، جامعة الرياض، ١٤٠٢.
- محمد أحمد معبر: مدينة **جرش من المراكز الحضارية القديمة**، دار جرش دار جرش للنشر والتوزيع، خميس مشيط، ١٩٨٨.
- محمد محمود السرياني: **مدن سادت ثم بادت**: قراءات حول مدينة جرش إحدى المراكز الحضارية القديمة في الجزيرة العربية (بحث تحت الإعداد).

- عبد الله حسن مصري: **مقدمة عن آثار الاستيطان البشري بالمملكة العربية السعودية**، مرجع سابق، ص ١٥-١٧.
- رشيد سالم الناصوري: **حول أرض مدين** من حيث تحديد موقعها ودورها التاريخي المبكر: مرجع سابق، ج٢، نفس الصفحات.

(٦) لمعرفة المزيد من تاريخ الأنباط في جنوب الأردن وشمال الجزيرة العربية تراجع المصادر التالية:

- ج. و. باوريك: "**الأنباط والرومان في وادي السرحان**" ، مرجع سابق.
- لطفي عبد الوهاب يحيى: الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي، "**دراسات تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ٩١-١٠٣.
- فوزي زيادين: "الاكتشافات الأخيرة في جبانة البتراء" **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٣-٦٦.

(٧) لمزيد من التفصيلات عن التجارة ودورها ومسالكها تراجع المصادر التالية:

- ف. مولر: "**استعراض لتاريخ شبه الجزيرة العربية في القرن الأول الميلادي إلى ظهور الإسلام**، "دراسات تاريخ الجزيرة العربية"، مرجع سابق، ج٢، ص ١٢٥-١٣٥.
- محمد السيد غلاب: **التجارة في عصر ما قبل الإسلام**، "**دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ١٨٩-٢٠٠.
- أحمد حسين شرف الدين: "**مسالك القوافل التجارية في شمال الجزيرة العربية وجنوبها**، "**دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**"، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٥١-٢٥٧.

- وليم س. برايس: "**الطرق الكلاسيكية للتجارة العربية بحسب ما جاء في كتاب استرابون وبلينوس**، "**"دراسات في تاريخ الجزيرة العربية"**، مرجع سابق، ج٢، ص ١٧٧-١٨١.

(٨) انظر: النواحي الاجتماعية في الجزيرة العربية ولاسيما في مكة بصورة:

- محمد محمود السرياني: **مكة المكرمة، دراسة في تطور النمو الحضري**، منشورات الجمعية الجغرافية الكويتية وقسم الجغرافيا بجامعة الكويت، عدد (٨٧).
- محمد محمود السرياني: **ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية**، منشورات مركز بحوث العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى، عدد (١٦)، ص ٢٣-٢٤.
- طلعت أحمد عبده: **الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية**، مرجع سابق، ص ٥٢-٥٣.

(٩) انظر في: المستوطنات التي ظهرت في العصور الإسلامية:

- عبد الله حسن مصري: **مقدمة عن آثار الاستيطان البشري بالمملكة العربية السعودية**، مرجع سابق، ص ١٩.
- محمد محمود السرياني: **ملامح التحضر في المملكة العربية السعودية**، مرجع سابق، الصفحات نفسها.
- أطلال: **برنامج توثيق معالم الإسلامي الشهير**، "بدرب زبيدة مجموعة التقارير الميدئية عن مراحل المسح المختلفة نشرت تباعاً في مجلة أطلال خلال الأعوام ١٣٩٧-١٤٠٦هـ.

المدارس والحركة العلمية

في حلب أيام نور الدين محمود زنكي

الدكتورة سميحة أبو الفضل

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود زنكي

الدكتورة سميحة أبو الفضل
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- جامعة دمشق

قبل الحديث عن الأوضاع السياسية لبلاد الشام في عصر المواجهة مع الصليبيين لا بدّ لي أن أعرف حدود هذه البلاد الجغرافية، حيث تقع بلاد الشام في المنطقة التي يحدها من الشرق سقي نهر الفرات أو ما يسمى بالحدود السورية العراقية في عصرنا الحاضر، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال سفوح جبل طوروس المتصلة ببدايات آسية الصغرى حيث الخط الذي عرف لقرون عديدة باسم الثغور والجزيرة مع بيزنطة[1].

يعدّ هذا الموقع لبلاد الشام متميزاً، بالنسبة لقارات العالم الثلاث آسية إفريقية وأوروبة. فهو يقع في قلب العالم القديم، وهو كالشريان الحيوي له، فهو صلة الوصل فيما بينها براً عن طريق مصر وبحراً عن طريق أوروبة الشرقية (بيزنطة) ولهذا تعرض هذا الجزء من العالم منذ الأزل حتى عصرنا الحاضر إلى كثير من الغزوات والأحداث

الجسام وهذا يحتاج إلى إطلالة سريعة على الوضع السياسي في بلاد الشام وما تعرضت له في أوائل القرن السادس الهجري[٢].

كانت جميع بلاد الشام والمشرق العربي في حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية، فقد كان هناك خلافتان – الخلافة العباسية ببغداد، والخلافة الفاطمية بالقاهرة، وكانتا في صراع دائم، ونزاع عقائدي مستمر، وكانت الأوضاع الداخلية لهاتين الخلافتين سيئة جداً، حيث كان الخلفاء واقعين تحت سلطة الجند الذين ليس لهم سوى القتال الداخلي.

لم يكن الوضع في بلاد الشام بأفضل حال منه في الخلافتين، فقد سادت حالة من الفتن والفوضى والضعف السياسي والعسكري بشكل مريع. ففي كل من دمشق، وحمص،وحماة، وحلب وجدت دويلات مستقلة فعلياً سياسياً وعسكرياً، تقف كل منها إزاء ما يقع في البلاد من ويلات موقفاً سلبياً تجاه بعضها وكان جلّ اهتمامها بشؤونها الخاصة. دون الالتفات إلى المصلحة العامة للأمة[٣]، ويدعم صحة ما ذكرته ما جاء عند أبي شامة، حيث وصف الواقع قبل تسلم عماد الدين زنكي للبلاط: "وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أخبارهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كفّ أعاديهم، وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب". وما كان هذا ليحدث، لو كانت البلاد موحدة تحت قيادة حكيمةً لكن تفكك الأمة ساعد أعداءها على النيل منها.

وبقي هذا الوضع المتردّي إلى أن آلت الأمور إلى عماد الدين زنكي الذي تسلم زمام الأمور سنة (٥٢١هـ / ١١٢٧م).

وما إن فرغ عماد الدين من ترتيب أمر الموصل حين قام بتوحيد شمال بلاد الشام وأعالي بلاد الرافدين. واستغل طاقاتها لتحرير البلاد من يد الفرنجة حتى قتل غيلة سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) في أثناء حصاره قلعة جعبر.

وبعد وفاة عماد الدين زنكي، آل القسم الشرقي من دولته إلى ولده سيف الدين غازي، والقسم الغربي إلى ولده نور الدين محمود، وعاصمته مدينة حلب. وقد كان نور الدين متوقداً حماسة وشجاعة وقد وضع نصب عينيه إخراج الصليبيين من بلاد الشام، ووقف حياته كلها على هذا الهدف النبيل وقد ساعده على تحقيق أهدافه أن المشكلات التي اعترضت والده كالنزاع مع الخليفة في بغداد والأكراد في شمال العراق زالت عن طريقه حيث ارتبطت هذه المشكلات بالقسم الشامي الواقع تحت حكم سيف الدين غازي، ولهذا استطاع أن يركز أعماله الحربية ضد الصليبيين[٤].

بدأ نور الدين أعماله الجهادية بتوحيد الجبهة الإسلامية فجمع الجند وأعدّ العدة وهاجم الرها[٥]، فاستردّها ثم استعاد مدينة ارتاح، وعدة حصون من يد الفرنج، وقتل أمير إنطاكية. فلمع اسمه كقائد عقدت الآمال عليه في تحرير البلاد وخاصة بعد حصار دمشق من قبل ما يسمى الحملة الصليبية الثانية وتمكن من تسليمها سنة (٥٤٩هـ/١١٥٥م)، لقد كان هدف نور الدين عندما أخذ دمشق أن يجعلها طريقاً إلى بيت المقدس وبلاد الساحل التي بيد الصليبيين ليستعيدها منهم[٦]. وإن ضعف الحكّام بشكل أمام الأعداء، مكّن نور الدين من تسلم دمشق من صاحبها مجير الدين، وبهذا حقق نور الدين محمود وحدة بلاد الشام أول مرة منذ أن دخل الفرنج البلاد .

وبعد أن تم ذلك اتجه نور الدين إلى الديار المصرية، محاولاً ضمها إلى أملاكه ليحقق بذلك الوحدة الكبرى بين بلاد المسلمين، وكانت أولى محاولاته سنة تسع وخمسين وخمسمائة عندما أرسل قائده شيركوه لمهاجمة مصر، التي تزعمها شاور الوزير المتعاون مع الصليبيين، شأنه شأن ضعاف الإيمان من أمراء الشام، ولم يستطع نور الدين أن يحقق هدفه في هذه السنة، وذلك بسبب تدخل حاكم المملكة اللاتينية في القدس، وقد تم له ذلك سنة أربع وستين وخمسمائة /٥٦٤/ هـ، في المحاولة الثالثة التي أقدم عليها نور الدين ونجح فيها[٧]. وكان لدخوله مصر دوي كبير لا في بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله[٨].

بعدها اتجه ببصره إلى الهدف الأسمى هو تحرير بيت المقدس، ولاسيما بعد أن ضعف كثيراً مركز الصليبيين لاستيلائه على أكثر البلاد التي كانت بأيديهم، ولموت الكثير من فرسانهم، وقد حاول نور الدين حينها وبالاتفاق مع صلاح الدين الهجوم على بيت المقدس ولكنّ ظروفاً طارئة حالت دون ذلك، ثم جاء موته لينهي أهم خطوة كان يحلم بها نور الدين، وكانت وفاته سنة (٥٦٩هـ/١١٦٩م)، تسع وستين وخمسمائة[٩] (وقد كان لموته رنة في عالم الإسلام كله بموت ذلك العظيم، الذي جمع في شخصه رقة الأب الحاني، ومهارة الإداري القادر، وإقدام البطل الذي لا يهاب الموت، وإيمان الأتقياء الصالحين)[١٠].

لم تقتصر مشاريع نور الدين محمود على النواحي السياسية والجهادية التي كان لها كبير الأثر على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بل اهتم نور الدين محمود بالجوانب الثقافية لشعوره أنها ضرورية لتحقيق النصر وتوحيد المجتمع وحشد الطاقات.

وقد ترتب على هذا نهضة علمية واسعة متعددة المظاهر والأشكال لم يسبق لها مثيل إذ كانت البلاد تفتقر إلى المؤسسات التعليمية، وكانت المساجد هي للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه، والحديث وفنونه وذلك حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وما إن تسلّم نور الدين زمام الأمور والذي كان محباً للعلم والعلماء، متواضعاً لهم مغدقاً عليهم الأموال لحملهم على البحث والنظر، حتى قيل إن بلاد الشام أصبحت في عصره مقراً للعلماء، والصوفية، حيث توافد العلماء من المشرق والمغرب إلى بلاد الشام، بعد انهيار السلطنة السلجوقية، ونتيجة لسوء الأوضاع التي سادت في بغداد وخراسان عامةً، وتواءم هذا مع تردّي الأوضاع العامة في الأندلس والمغرب العربي مما أسهم في ازدياد الهجرة إلى بلاد الشام.

لهذا فقد شهدت بلاد الشام حركة علمية نشيطة، شملت مختلف الفنون من طب، وتاريخ، ودين، وفلسفة، وحساب، ولغة، وتصوف، وتعدّ حقبة حكمه من الحقب المهمّة

التي أسهمت في انبعاث النهضة العلمية في البلاد، وتعدّ المدارس التي أنشأها في مدن بلاد الشام وخاصة في حلب، ودمشق، والأوقاف التي أوقفها على سائر المدارس والبيمارستانات مثالاً لفضله وكرمه. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي أسهم في رفع المستوى الثقافي! بل هناك دوافع أخرى كان لها دور كبير في تطوير الحياة الفكرية وازدهارها.

إذ إنه من المعروف أن الغزو الصليبي قد رافق العصر الأتابكي والأيوبي وكان من الدوافع الرئيسية التي أيقظت الأمة الإسلامية من سباتها، وأسهمت في وحدتها، فقد بعث هذا الغزو في البلاد الحياة الأدبية، فنشطت قرائح الشعراء، وأطلقت العنان لأقلام الأدباء، وأمدتهم بمعين لا ينضب من المعاني والأفكار، وأصبح الشاعر والأديبُ يعبّر عما يجيش في صدره ويستمده من واقعه ومن وحي إلهامه.

ونشط رجال الدين في استخراج الأحاديث النبوية الشريفة والآيات الكريمة، التي تحضّ على الجهاد وتبيّن فضائله، وفضل الشهادة في سبيل الله والوطن. وصنّفوا المصنفات العديدة في هذا المعنى.

إن جميع المحرضات النفسية، التي توالدت نتيجة للغزو الفرنجي من جهة، والاتصال الحضاري الذي كان يحصل أثناء الهدنة بين الطرفين المتحاربين أسهم بدوره في نشوء حركة التبادل الثقافي المتعددة الوجوه من جهة ثانية. هذا إضافة إلى العصرين العباسي والفاطمي.

إن الحركة العلمية التي ازدهرت في ظل العصر الأتابكي وتحديداً في مدينة حلب زمن نور الدين محمود توفر لها اهتمام وتشجيع الملوك والسلاطين من أبناء هذا البيت وخاصة نور الدين محمود، حيث كانت البلاد تفتقر نسبياً لمثل هذه المؤسسات التعليمية التي استدعى إليها كبار الأئمة والفقهاء للتدريس فيها. فازداد عددهم زيادة ملحوظة بعد ذلك(١١). ومن أهم هذه المدارس وعلى سبيل المثال لا الحصر: مدرسة الحديث النورية بدمشق في سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٤م)، والمدرسة العصرونية في حلب، التي

استدعى إليها من سنجار "شرف الدين بن عصرون"، الذي كان من أعيان وفقهاء عصره وفوّض إليه أن يولي التدريس فيها من يشاء. وغيرها من المدارس كالمدرسة الحلاوية التي بناها نور الدين محمود في حلب في حدود سنة (٥٤٤هـ)، والمدرسة الشعبية في حدود سنة (٥٦٩هـ)، والمدرسة النفرية والنورية سنة (٥٤٤هـ). كما أنشأ مدارس يدرّس فيها الحديث مثل دار حديث نور الدين محمود زنكي سنة (٥٦٩هـ)، ودار حديث أم الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي، هذا إضافة إلى الخوانق مثل خانقاه القصر التي أنشأها سنة (٥٥٣هـ)، وخانقاه القديم قبيل سنة (٥٦٩هـ)، إضافة إلى المساجد والربط والزوايا الصوفية في أغلب المدن، التي تأثرت إلى أبعد الحدود بالتجربة النظامية في بغداد.

وكان هناك مراحل للتعليم، وطرق التدريس، وكانت الدراسة تجري في كتاتيب الأطفال، وغالباً ما كانت تبنى إلى جوار المساجد التي تقام في حلقات العلم[١٢].

وكانت الكتاتيب تستقبل الأطفال منذ الخامسة حتى التاسعة أو العاشرة من العمر.

أما طرق التعليم فقد وصف لنا ابن جبير في أثناء رحلته إلى بلاد الشام سنة (٥٨٠هـ/١١٨٣م)، فقال: "وبتعلم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأسفار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عزّ وجلّ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو"[١٣]. وندرك من حديث ابن جبير أن الأطفال كانوا يستخدمون الألواح الخشبية أثناء الكتابة. فهي من الوسائل التعليمية التي تساعدهم على المحو والإثبات أثر من سواها، وبذلك كانت الكتاتيب تعنى بتعليم القرآن قراءة وحفظاً عن طريق التلقين، وأما تعليم الكتابة والخط، كانت في الأشعار وغيرها، وتساعدهم على فهم آيات القرآن[١٤].

ويبدو أن التعليم في الكتاتيب كان يشرف عليه غير معلم، فهناك الملقن الذي كان يعلم الأطفال قراءة القرآن الكريم وحفظه، وبعد فراغه منهم ينتقل الأطفال إلى حجرة أخرى يعلم فيها الكتابة والخط. وهذا ما أشار إليه ابن جبير الأندلسي: "وقد يكون في

أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتتب على حدة، فينتقل من التلقين إلى التكتيب، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا ينشغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم[١٥].

ولم يكن الأطفال يذهبون إلى الكتاتيب بل كان بعضهم يتلقى علومه على أهله أو على أحد الشيوخ اختاره الأهل واتفقوا معه على المواضيع التعليمية التي يرغبون تعليمها لولدهم لقاء أجر يتفق عليها أيضاً[١٦]. وهذا النوع الأخير من التعليم شبيه بالمدارس الابتدائية الخاصة في أيامنا، وممن علم في الكتاتيب نذكر:

١) المؤدب عبد الرحمن بن أبي بكر المقدسي (ت ٦٠٥هـ / ١٣١٢م)، الذي كان يعلّم بباب الشامي بدمشق[١٧]. والمؤدب البدر بن عبد الصمد بن عبد الجليل المرازقي (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م)، وكان يعلّم بمكتب صاروخ[١٨]، وكان الثمانين في الحديث لأبي بكر محمد بن حسين الأجري (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) رواية عنه[١٩].

ومما سلف يتبيّن أنه كان يشرف على الكتاتيب معلمون، مقرئون، حافظون لحديث رسول الله (ص) اتخذوا من مهنة التعليم وسيلة لكسب العيش. وبعد اجتياز الطالب المرحلة الأولى بنجاح، كان يلتحق بإحدى الحلقات في المساجد أو إحدى المدارس الصغيرة مما تعادل المرحلتين المتوسطة والثانوية في عصرنا الحالي.

وقد كانت تقوم في المدن الكبيرة كدمشق وحلب وبيت المقدس وحماة وغيرها. وكانت المرحلة تدرس في كتب كثيرة كالشروح بعيدة عن التعقيد وتتوافق مع المستوى العقلي لطلاب هذه المرحلة.

فإذا وافق الطالب كان عليه أن يختار إحدى حلقات التدريس في المسجد نفسه أو غيره أو إحدى المدارس الكبرى التي كان يشرف عليها شيخ ذو شهرة علمية كبيرة. فأهمية ما كان الطالب يتلقاه من علم كانت تتوقف على شهرة شيوخه الذين أخذ عنهم "وتمثل هذه المرحلة التعليم الجامعي والعالي في أيامنا"، وكانت هذه المرحلة تعتني بتدريس كتب ذات مستوى عالٍ من حيث التوسع والتعمّق والإحاطة[٢٠].

أما عن طرق التدريس:

فلقد اعتمد التدريس في تلك المرحلة على التلقين الإلقاء والإملاء، حيث اعتمد التلقين في المرحلة الأولى، وكان المعلم يلقن الأطفال قراءة القرآن الكريم. أما في المراحل التالية فقد اعتمد فيها (الإلقاء والإملاء)، فكان الشيخ أو المدرّس يقوم بإلقاء الدرس على الطلبة من محفوظاته، أو مذكراته أو كتابه، ويكون الإلقاء بطيئاً ليتمكن الطلاب من التدوين في مذكراتهم وهذا ما كان يسمى إملاء. وبعد فراغ الشيخ من الإلقاء، غالباً ما كانت تعاد قراءة ما دوّن من قبل المدرس أو المعيد ليصحح ما دوّنه الطلبة. أما في حال وجود الكتاب أو الأصل فعلى الطلبة شراء الكتاب. وفي هذه الحالة كان يكلّف الشيخ أحد الطلبة بالقراءة أولاً قبل أن يلقيه هو نفسه ثم يعيد بعد قراءته على الطلاب، وكان الشيخ يتوقف عن القراءة كلما رأى الحاجة تدعو لذلك، ليشرح ويوضح ما صعب على الطلبة، حيث كان الطلاب يدونون هذه الشروحات والإيضاحات على أوراق خاصة، أو على عارضات الكتب وهوامشها، كما كان المدرّس يقوم بأغلب الأحيان بإلقاء مجموعة من الأسئلة على الطلبة ليدرك استيعابهم وفهمهم للدرس. ثم يقوم بالإجابة بنفسه عما يصعب عليهم الإجابة عنه، وهذا ما أشار إليه ابن الصلاح فقال: "السماع من لفظ الشيخ: وهو ينقسم إلى إملاء وتحديث من غير إملاء وسواء كان من حفظه أو من كتابه"[٢١].

وكانت تقام مناظرات علمية وخاصة بين الأئمة في مواضيع علمية متعددة يحضرها كبار الأئمة وأعيان الدولة والطلبة[٢٢]، مما أسهم في بناء الحركة ودفعها قدماً إلى الأمام.

ولا بدّ لنا من التساؤل هنا كيف كانت أوضاع الطلبة في المؤسسات التعليمية؟ وما نسبة المدرسين إلى الطلبة فيها. وما دورهم؟ وكيف كانوا يعاملون؟

لقد كان الأطفال يلقون معاملة خاصة، ولهم جراية معلومة على قرائهم وللأيتام منهم دار (هي شبه ما يسمى بدار الأيتام) وكان لها وقف عظيم، يتناول منه المعلم أجراً معلوماً وما تبقى كان ينفقه على متطلبات الأطفال من طعام وكساء وغير ذلك[٢٣].

وشملت هذه الرعاية غالبية الطلبة في البلاد بمختلف أعمارهم ومراحل تعليمهم وهذا ما أشار إليه ابن جبير لدى وصفه حلقات التعليم في المسجد الأموي بدمشق.

أما عدد المدرسين بالنسبة للطلبة في المدارس فكان يوجد مدرّس أو معيد لكل خمسة عشر طالباً، وهذه النسبة كانت تساعد الشيخ أو المدرس بالوقوف على القدرات العلمية لدى طلابه ومساعدتهم بإزالة كل ما يعترضهم من صعوبات أثناء دراستهم، والأخذ بيدهم إلى الأفضل، وكما أسلفت كان للطالب حرية اختيار شيخه الذي يودّ الأخذ عنه، وكان لذلك أهمية توقفت على شهرة من أخذ عنهم من الأئمة الذين كانوا يوجدون في المدارس الكبرى ذات الشهرة العظيمة كمدرسة الغزالي في الجامع الأموي ودار الحديث النورية، والمدرسة العادلية الكبرى بدمشق، والمدرسة المعظمية والصلاحية ببيت المقدس، ومدرسة شرف الدين بن أبي عصرون في حلب وسواها.

والجدير بالذكر أن المدرس بالمدارس الصغيرة كان يعمل معيداً بإحدى هذه المدارس[٢٤]، ويقول أبو شامة نقلاً عن ابن شداد لما قاله الحافظ المرادي: "وكنا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل. ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري.

وقعت فتنة بين الفقهاء فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجير الدين يعني ابن الداية -عن لسانه وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار هذا الدين، وهذا الذي يجري بينكم لا يحسن ولا يليق،. وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضى

الطائفتين ونستدعي شرف الدين بن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري فاستدعاهما جميعاً[٢٥].

نستدل من ذلك على الدور المهمّ الذي شغله الطلبة، ومبلغ النفوذ الذي وصلوا إليه في فرض آرائهم على أرباب السلطة آنذاك.

ويذكر أن المدرس الناجح هو من وصف بالحلم، والصبر، وبحسن الإلقاء، والشرح الجيد وغير ذلك مما يساعد الطالب على الثقة بنفسه وبمدرسه. ولقد كان أسلوب الشدة والضرب من الأساليب المرفوضة في تلك الحقبة. ويروي لنا ابن العديم في كتابه "بغية الطلب" أنه أمام إحدى مدارس حلب، كان قد وضع في بركة الماء التي تقع في صحن المدرسة سمكاً فغسل فقهاء المدرسة ثيابهم بماء تلك البركة فمات السمك، وانزعج الإمام من عملهم، فأساء معاملتهم وقام بضربهم، فطرد هذا الإمام من المدرسة بسبب تصرفه هذا [٢٦].

أما عن عدد ساعات التدريس، التي كان يتلقاها الطلبة كل يوم وعن العلوم التي كانت تُدرّس، فيقول ابن كثير في وفيات سنة (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م)، وفيها مات شيخ الإسلام محي الدين أبو زكريا يحيى الشافعي النووي، وكان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً درسين في الوسيط، ودرساً في المهذب ودرساً في الجمع بين الصحيحين، ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جني، ودرساً في المنطق لابن السكيت، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، وتارة في اللمع لأبي اسحق، وتارة في المنتخب لفخري الدين، ودرساً في أماء الرجال، ودرساً في أصول الدين[٢٧].

ومن هذا يتضح لنا أن الطالب كان يتلقى كل يوم دروساً في الفقه والحديث واللغة وآدابها والمنطق وأسماء الرجال.

والجدير بالذكر أن هذا المنهاج على ما يبدو وضع للمرحلة التي تعادل (ما يسمى في عصرنا الحاضر بالتعليم العالي)، لأن هذه المصنفات التي جاء على ذكرها ابن كثير تعدّ من أمهات الكتب في فنونها.

ولما كانت المؤسسات التعليمية من الكتاتيب، والحلقات في المساجد والمدارس والخوانق وغيرها بحاجة إلى دخل ثابت للإنفاق كي يضمن للأئمة والطلبة فيها مستوى كريماً من العيش ولكي يتفرغوا إلى البحث والدراسة والعطاء، لجأ أرباب البلاد من زنكيين وأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الكبيرة التي أوقفوها عليها كالقرى، والمزارع، والطواحين، والحمامات، والدكاكين وغير ذلك(٢٨).

وكانت هذه الأوقاف تعدّ الأساس في واردات هذه المؤسسات، كما كانت الأموال تدفع من خزانة الدولة على شكل جامكيات -رواتب وهبات للمدرسين(٢٩). أما نفقات الطلبة الذين كانوا يدرسون في دور العلم فكانت أعباؤها تقع على أولياء الطلبة(٣٠).

وكان يمثل موضوع الإجازات العلمية مظهراً من مظاهر الحياة العلمية. والجدير بالذكر أن الإجازات كانت متشابهة من حيث الشكل والمضمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وقد جرت العادة أنه إذا تأهّل بعض أهل العلم للقيام بالإفتاء والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرّس ويكتب له بذلك(٣١)، أما الإجازة بعراضة الكتب، فقد جرت العادة أن الطالب إذا حفظ كتاباً في فن من فنون العلم،كان يعرضه على مشايخ العصر حيث يفتح منه أبواباً يستقرئه إياها، فإن مضى فيها من غير توقف أو تلعثم، استدلّ بحفظه تلك المواقع على حفظه كل الكتاب(٣٢).

ومن هذا يتبيّن أن أركان الإجازة كانت: المجيز – والمستجير – والإجازة نفسها وكانت مدن بلاد الشام كدمشق، وحلب، وبيت المقدس وغيرها، تعدّ من المراكز العلمية، التي استقطبت آنذاك كبار الأئمة.

وكانت هذه المراكز يؤمها الطلاب لتلقي العلم فيها، وليحصلوا على الإجازات العلمية. فقد شاع منح الإجازات العلمية في علوم كثيرة فقد يحصل ذلك بالمراسلة في بعض الأحيان.

كان طالب العلم بعد أن يشبع رغباته من أئمة تكبره يرحل عنها في طلب العلم، وبعد أن كانت الرحلة تقتصر على علم الحديث أصبحت الرحلة لطلب علم الحديث وسواه. وهذا ما أشار إليه ابن جبير الأندلسي أثناء رحلته إلى بلاد الشام، فكانت تلك الرحلة وما يتصل بها ممثل الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي بأبهى صورها.

العاملون في التدريس ودورهم السياسي والاجتماعي:

تنوع العاملون بالتدريس بين الشيخ، والمدرس، ونائب المدرس والمعيد، ولقد كان لقب الشيخ من الألقاب التي لقّب بها أهل العلم توقيراً له، وكلما زاد الشيخ علماً ارتفعت مكانته فكان يقال: شيخ المحدثين، وشيخ القرّاء، وشيخ الرياضيين، وغير ذلك. كما كان يقال: شيخ المدرسة وشيخ الرباط وشيخ دار الحديث وشيخ الشيوخ، وعلى سبيل المثال الحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر ولي مشيخة دار الحديث بدمشق، وإن تنصيب الشيخ لم يكن وفقاً على العلماء من الرجال، ومع ذلك فإن العنصر النسائي كان قليلاً، إذا ما قورن بالعلماء من الذكور، ويعدّ الشيخ والمدرس من الذين يتبؤون مراكز مومومقة في الدولة[٣٣]. وأحياناً كانت تبنى المدارس من أجل إمام كبير ذي شهرة علمية عظيمة، من ذلك لما ملك نور الدين محمود بن زنكي حلب (٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٣م)، أوقف مسجد السراجين وفيها مدرسة علي الحنفية واستدعى لها من دمشق برهان الدين أبا العباس علي بن الحسن البلخي فولاه تدريسها. وفوّض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحمص وحلب إلى أبي الفتح شيخ الشيوخ عمر بن علي بن حموية[٣٤].

هذا يؤكد ما سلف ذكره أن تعيين المدرسين أو إخراجهم كان يتم بموجب مرسوم تصدره الجهات العليا في الدولة[٣٥].

وعلى الرغم من أن منصب الشيخ والمدرّس من المناصب الكبيرة في الدولة، فقد تسلّم عدد منهم مناصب مرموقة كالوزارة، وديوان الإنشاء والأوقاف وغير ذلك.

وقد شكّل هؤلاء العلماء أدوات الوصل بين السلطة والرعية. ولكن انصرفت جهود بعض هؤلاء إلى حفظ مصالحهم الشخصية، ومارس بعضهم وخاصة شيوخ الصوفية نفوذاً كبيراً على الناس، حيث إن غالبية الناس انتموا إلى إحدى الطرق الصوفية، وخاصة فئة المعدومين، التي كانت تأوي أعداداً كثيرة منهم إلى زوايا الصوفية(٣٦)، من طائفة الوعاظ والمتصوفية الذين صنفوا تفاسير على طريقتهم الخاصة. من هؤلاء أبو بكر محي الدين ابن المغربي وجمال الإسلام مفتي الشام، والشافعي، والمقدسي. كما عمل رجال الدين في بعض الأحيان أداة مراقبة وردعاً للسلطة إذا أتوا منها خروجاً على الدين، وتجاوزا المصلحة العامة(٣٧)، وكان هؤلاء قلة.

ويمكن القول: إن العلماء ورجال السلطة احتكروا فيما بينهم موارد البلاد الاقتصادية فكان بالدرجة الأولى العسكريون المقطعون، وبالدرجة الثانية العلماء(٣٨).

فلا بدّ –ما دمنا في مجال الحديث عن التعليم– أن ننوّه بوجود المكتبات، التي كانت تعدّ مرفقاً بارزاً من مراقفه، فإلى جانب مكتبات المؤسسات كانت هناك مكتبات خاصة ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مكتبة علي بن يوسف القفطي وزير حلب جمع فيها كتباً كثيرة، وقد أوصى ابن القفطي بكتبه للمملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي سلطان حلب (٦٣٤–٦٥٩هـ/ ١٢٣٦–١٢٦٠م)، وكانت تساوي خمسين ألف دينار(٣٩)، ومكتبة الطبيب المصاحب الوزير أمين الدولة أبي الحسن بن غزال بن أبي سعيد (ت ٦٤٨هـ /١٢٥٠م).

وكان يعين لهذه المكتبات وخاصة العامة منها موظفون كالخازن وهو مسؤول عن تخزين الكتب، والنسّاخ وكان عملهم نسخ الكتب، والمجلدون الذين كانوا يقومون بتجليد الكتب(٤٠)، وقد بنى نور الدين محمود زنكي، الذي رعى العلم والعلماء وشجع

الحركة العلمية في عهده عدداً كبيراً من المدارس التي كانت منارات للعلم ومجمعاً للعلماء من جميع أنحاء البلاد الإسلامية.

كما أنشأ بحلب خوانق للنساء في حدود سنة (٥٥٣هـ /ج١، ق٩٥/١) وهذه المؤسسات زمن نور الدين، هذا إضافة إلى العلوم الدينية، وعلوم القراءات والتفسير، والفقه والحديث، فقام عدد كبير من الأئمة بحصرها والكتابة فيها وأصبحت العلوم النشطة في العصرين الأتابكي والأيوبي، وذلك تماشياً مع تيارات العصر واهتمامات الناس.

ولم يقتصر الأمر على قراءة الأئمة الكتب إنما صنفوا مصنفات عديدة نفيسة، ودرّسوا مصنفاتهم إلى جانب ما لقنوه لطلابهم في هذا المجال، ومن هؤلاء الأئمة على سبيل المثال لا الحصر، عبد الله بن هيبة الله بن أبي عصرون (ت ٥٨٥هـ /١١٨٩م)، حيث قرأ القراءات بالسبع والعشر على جماعة. وتلا بالروايات على أبي العز القلانسي سالف الذكر، ودرّس بحلب وبمدرسة الغزالية بدمشق، وكان مقرباً من نور الدين محمود زنكي (ت ٥٧٩هـ / ١١٧٣م)، فبنى له مدارس بحلب وحماة، وحمص، وبعلبك، وبنى لنفسه مدرسة بحلب، وأخرى بدمشق، وأقرأ القراءات والفقه وانتُفع بعلمه[٤١].

وكان منهم أيضاً محمد بن حسن بن محمد أبو عبد الله الفاسي نزيل حلب (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٧م).

ولا شك أن هذا العدد من المدارس والمنظومات، والمصنفات التي صنفت في علم القراءات تعكس لنا المستوى العلمي الرفيع الذي وصلت إليه الحياة الفكرية التي تألقت في جميع المجالات زمن نور الدين محمود في بلاد الشام ولاسيما حلب.

ولهذا نلاحظ هجرة منذ القرن السادس الهجري لعدد من كبار الأئمة البغداديين إلى بلاد الشام، واتخاذها مقراً لسكناهم، وهي الحقبة التي أخذ فيها الضعف والانحلال يدّب في أوصال الخلافة العباسية، وحين أصبح زمام الأمور في البلاد بأيدي البغاة ممن

همهم جمع المال والتسلط على رقاب العباد. فكثرت المصادرات، والنهب، والقتل. وبالمقابل كانت أخبار انتصارات نور الدين محمود بن زنكي (٥٤١- ٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٣م)، واهتماماته بالعلم والعلماء وتقاه وانتصاراته على الغزاة الفرنج، وإقامته العدل بين رعيته، ونشره الأمن والاستقرار في أرجاء مملكته(٤٢)، كانت من أهم العوامل التي جذبت هؤلاء على الأخذ بعين الاعتبار أن بلاد الشام أصبحت في النصف الثاني للقرن السادس الهجري تضم مراكز علمية ذات شأن(٤٣).

ونخلص من هذا إلى أن نجاح مشاريع نور الدين الجهادية والاجتماعية، انعكست على الحياة العلمية والفكرية، إذ إنه من المعروف أن الزنكيين ثم الأيوبيين اهتموا بالعلم والعلماء، ونهضوا بفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الحقبة زيادة ملحوظة. وقد أُعجب ابن جبر الذي زار بلاد الشام في سنة ٥٨٠هـ /١١٨٤م، من نهضتها العلمية، وسُرّ لكثرة دور العلم والمساجد فيها وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة.

ومما لا شك فيه أن ازدياد عدد المدارس العلمية كانت له أسباب قوية في العصر الزنكي ضمن إطار حركة الإحياء السني، حيث اهتم الزنكيون بنشر المذهب السني، ولاسيما الحنفي، وتتضح غاية نور الدين من فتحه المدارس أيام حكمه إظهار شعائر الإسلام حين نعلم ما قاله لجماعة العلماء: اجتمع بهم: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع في هذه البلاد وإظهار الدين".

لقد أدى نجاح نور الدين محمود في مشاريعه الجهادية والسياسية إلى قيام نهضة علمية ارتبطت بالمدارس وتأثرت إلى أبعد الحدود بتجربة النظامية في بغداد والتيارات الفكرية المختلفة التي نشأت نتيجة لحرية التعبير وبشرت بافتتاح عصر جديد على الصعيد السياسي والفكري والثقافي.

الهوامش

(١) ابن شداد (محمد بن علي ابن ابراهيم)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر الأمراء الشام والجزيرة** ج١، ق١ـــ ص ٨-٩، عني بنشره وتحقيقه دومنيك سورليك، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٣.

(٢) الدكتور سهيل زكار، **حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس**، ص ٤١، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق ١٤٠٤هـــ/ ١٩٨٤م.

(٣) ابن القلانسي: (حمزة بن أسد بن علي التميمي)، **تاريخ دمشق**، ص ٦٤-٦٦ و ٣٤٤، ٣٤٥، تحقيق الدكتور: سهيل زكار، دمشق، دار حسان للطباعة النشر، ط١، ١٩٨٣- ١٤٠٣هـــ، ابن الأثير علي بن محمد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ١٠، ص ٥٣٣-٥٣٤، ليدن، دار صياد، بيروت ١٣٩٩هـــ ١٩٧٩م.

- التاريخ الباهر: **الدولة الأتابكية**، ص ٥٥-٥٦، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن النديم: **الفهرست** (كمال الدين عمر أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب في تاريخ حلب ٦٢٧/٢-٧٣٣، تحقيق سامي الدهان، ط٢. دمشق ، ١٩٥١- ١٩٥٤-١٩٥٨.
- ابن العديم: **بغية الطلب في تاريخ حلب**، ٣٦٥٩/٨-٣٦٦٧، حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار، دمشق، ١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م.
- أبو شامة: (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ٣٠/١-٣٢، دار جيل، ص ١١٠-١١١، المؤسسة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٢.

(٤) قيام الدولة الأيوبية في مصر، ص ٧١.

(٥) ابن القلانسي ، **تاريخ دمشق**، ص ٤٤٥-٤٤٩.

- ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ص ١١٢-١١٣.
- أبو شامة، **الروضتين**، ٤٦/١.

(٦) **نور الدين محمود والصليبيون**، حسين حبشي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٧) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج١، ص ٥٤.

(٨) سبط ابن الجوزي: (مظهر يوسف بتن قز أوغلي)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، نسخ مصورة تضم حوادث، (٥٣٠٠هـ).

- **التاريخ الباهر**، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

(٩) **تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء**، ص ٦٣.

- أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، عني بنشره ووقف على طبعه السيد عزة العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ص ٢٢٨.

(١٠) **نور الدين محمود**، حسين حبشي، ص ٣٥٧.

- ابن الأثير، **الكامل**، ١١/ ص ٤٠٢-٤٠٥.
- أبو شامة، **الروضتين**، ٢٢٧/١-٢٣٠.
- ابن كثير: (اسماعيل بن كثير)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، طبعة مصورة، ٢٧٧/١٢-٢٨٤.

(١١) ابن جبير الأندلسي: محمد بن أحمد الكتابي، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٧٢، تحقيق الدكتور حسين نصار، دار معز للطباعة.

- ابن الأثير، **الكامل**، ج١/ ص ٤٠٤-٤٠٥.
- أبو شامة، **الروضتين**، ج١ ، ص ١٤.

- الذهبي: (شمس الدين أبو عبد الله)، **سير أعلام النبلاء**، ت ٧٤٨هـ، إشراف شعيب الأرناؤوط، تحقيق عدد من الأساتذة منهم حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٢، ج١، ص ٥٣٢، ص ٢٨٢.
- ابن العماد: (عبد الحي بن العماد الحنبلي)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة ، بيروت، ط ثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، طبعة مصورة، ج٤، ص ٢٢٨.

(١٢) أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص ٦٥ و ١٧١.

- الذهبي: (شمس الدين محمد بن علي)، **العبر وأئمة تلميذه الحسيني**، ت ٧٦٥هـ، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ومراجعة صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد الفراج، وزارة الإعلام في الكويت، ١٩٨٦م، ج٥، ص ١٦١.

(١٣) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، خليفة المثنى، بغداد، طبعة مصورة، بيروت، ١٩٩٢- ١٠٧٨، ج١، ص ٥٢٣.

- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٢٠٥.

(١٤) ابن جبير، ص ٢٦١.

(١٥) **رحلة ابن جبير**، ص ٢٦١.

(١٦) أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص ٣٧- ١٧٢ - ١٧٦. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢، ص ٥٥٤-٥٥٥. الذهبي، **العبر**، ج٥، ص ١١٢-١١٣.

(١٧) أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص ٦٥.

(١٨) أبو شامة، **مصدر سابق**، ص ١٧١. الذهبي، **العبر**، ج٥، ص ١٦١.

- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٢٠٥.

(١٩) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ٥٢٣/١.

(٢٠) **رحلة ابن جبير**، ص ٢٣٠ - ٢٣١ و ٢٤١- ٢٤٦ و ٢٦٠.

- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**/ج١،ق١، ص ٨-٩.
- ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٨٣-٨٥ و ١٩٩-٢٠٠.

(٢١) ابن الصلاح: (عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوي) **علم الحديث**، ص ١٣٢ و ١٣٧، تحقيق وشرح نور الدين عنتر، دار الفكر، بيروت.

- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٢٦.

(٢٢) الذهبي، **العبر**، ج٥، ص ٤٩-٥٠ و ٦٢، ٧٥/ ٩٣-٩٤.

- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص ٧٧.
- النعيمي: (محي الدين عبد القادر)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمي، بيروت ١٩٩٠، ج١، ص ٤٣١-٤٣٣.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٥٣-٥٨.

(٢٣) **رحلة ابن جبير**، ص ٢٦٠.

- محمد كرد علي، **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٣م، ج١، ص ٩٨-٩٩ و ص ٣٠.

(٢٤) **رحلة ابن جبير**، ص ٢٣٠-٢٣١ و ٣٤٠ و ٢٤٦ و ٢٥٣-٢٦٠.

- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٦٧ و ٨٣-٨٥ و ١٩٩-٢٦٦.
- الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢، ص ٤٦٧-٤١٨.
- النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، ص ٢٠٣-٢٠٤.
- ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن)، **النجوم الزاهرة**، ت٨٧٤هـ ج٥، ص ٣٧٥، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣.

- أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ط٣، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠، ص ٣٧٦.
- أبو شامة: **الروضتين**، ج١، ص ١٣.

(٢٥) ابن العديم: **بغية الطلب في تاريخ حلب**، ج١، ص ١٤٣- ١٤٦.
- أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، ص ١٧٥.
- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج١، ق١، ص ٣٧٦-٣٧٧.
- ابن اللمش: (عمر بن الخضر)، **تاريخ ونيس**، ص ١١٢، عني بتحقيقه ابراهيم صالح، دمشق، ١٤٠٧هـ /١٩٨٦م.

(٢٦) الذهبي، **العبر**، ج٥، ص ٣١٢-٣١٣.
- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص ٣٧٨-٣٧٩.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٣٥٤-٣٥٦.

(٢٧) **رحلة ابن جبير**، ص ٢٧٢-٢٧٨. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١، ص ٤٠-٤٥، ج١٢، ص ١٢٩و ٤٧١و ٤٧٢.
- سبط ابن الجوزي، (سبط يوسف بن قزا أوغلي)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ج٢، تحقيق دار إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٩٧-٢٩٩ و ص ٦٤٤-٦٥٢،طبعة دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥.
- أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص١١.
- ابن خلكان: (أحمد بن محمد)، **وفيات الأعيان**، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، دار المأمون، القاهرة، دون تحديد تاريخ الطبع،ج٣، ص ٤٩٤-٤٩٦.

(٢٨) انظر التدريس في فصل الطب.

(٢٩) أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص٣٧-٧٦.

- الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣، ص ٥٤٤-٥٥٥، **العبر**، ج٥، ص ٢١٢-٢١٣.

(٣٠) القلقشندي: (أحمد بن علي)، **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء**، ج٢٤ ص ٣٢٢، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

(٣١) **المصدر السابق**، ص ج١٣، ص ٣٢٧.

(٣٢) انظر الذهبي: **العبر**، ج٤، ص ٢٣٢. النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، ص ١٥١-١٥٤.

- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص ٢٥٩.

(٣٣) **المصدر السابق**، ج٤، ص ٢٣٢. النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، ص ١٥١-١٥٦.

- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص ٢٥٩.

(٣٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢، ص ١٧٢. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ص ٦٣٠-٦٣١.

- ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج١، ق١، ص ٩٦-٩٨ و ١٠٥ و ١١٣-١١٤.

(٣٥) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص ٥١٢، سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ص ١٣٩.

- ابن العديم، **بغية الطلب**، ج٤، ص ١٥٧٦.
- أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص ١٦٢.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص ١٧٨-١٧٩و ج٥، ص ١٤٥-١٤٦.

(٣٦) أبو شامة، **الذيل على الروضتين**، ص ٩٠ و١٢٥-١٢٨ و١٧٤.

- الذهبي، **العبر**، ص ٤١-٤٢ و ٦٧ و ٩٣ -٩٤.

- ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٩٦ و ٩٣-٩٤.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٥٠ و ٥٤ و ٧٢-٧٣ و ٢١٤.

(٣٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٢، ص ١٨.
- القفطي، **تاريخ الحكماء**، ص ٤٠٣-٤٠٦.
- سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج١، ص ٤١١-٤١٢.

(٣٨) ابن أبي أصيبعة: (أحمد بن القاسم السعدي)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة ،بيروت، ج٣، ص ٣٨٣-٣٨٩.
- حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، خليف المثنى، بغداد، طبعة مصورة، بيروت، ١٩٩٢، ١٩٧٨م، ج٥، ص ١٩٩٣.
- ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٢٤١.

(٣٩) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٢٤١-٢٤٤.
- الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣، ص ٣٨ – ٣٤١.
- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٤.
- محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٤، ص ١٨٩.

(٤٠) العماد الكاتب (الأصفهاني، محمد بن محمد) **فريدة القصر وجريدة العصر** طبعة دمشق، ١٩٦٤، الحزبية (القسم الشامي) ج٣، ص ٣٥١.
- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٢، ص ١٨.
- المندري، **التكملة**، ج١ ص ٢٠٠-٥٠٢، الترجمة رقم ٢٨٢.
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص ٥٣.
- الذهبي، **العبر**، ج٤، ص ٢٥٦.

(٤١) ابن الجوزي، **التنظيم**، ج١٠، ص ٢٤٨.

- ابن الأثير، **الكامل**، ص ٤٠٣- ٤٠٥، (وأخباره في حوادث سنة ٥٤٢ هـ إلى سنة ٥٦٩هـ).
- سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ص ١٨٧ و ١٩١- ٢٠٥.
- أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج١، ٤٨-٢٣٠.
- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص ١٨٤-١٨٩.

(٤٢) ابن جبير الأندلسي، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٧٤-٢٧٥.

- الذهبي، **العبر**، ج٤، ص ٢٣٢ و ٢٥٦.
- النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج١، ص ٢٩٨-٤٠١. وج٢، ص ١٥٠-٢٥٦.
- ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص ٢٥٩-٢٨٣.

(٤٣) ابن جبير الأندلسي، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٧٤-٢٧٥ – ٢٧٦.

المصادر والمراجع

١- ابن أبي أصيبعة: (أحمد بن القاسم السعدي)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢- ابن الأثير علي بن محمد الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ١٠، ليدن، دار صياد، بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣- ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن).

٤- ابن جبير الأندلسي: (محمد بن أحمد الكتابي)، **رحلة ابن جبير**، تحقيق الدكتور حسين نصار، دار معز للطباعة.

٥- سبط ابن الجوزي: (أبو مظهر يوسف بتن قز أوغلي)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، نسخ مصورة تضم حوادث، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق، بيروت ١٩٨٥.

٦- ابن خلكان: (أحمد بن محمد)، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، دار المأمون، القاهرة، دون تحديد تاريخ الطبع.

- حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ليبزغ ١٨٥٨، خليفة المثنى، بغداد، طبعة مصورة، بيروت، ١٩٧٨م.

٧- الذهبي: (شمس الدين أبو عبد الله)، **سير أعلام النبلاء**، حققه مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٢.

٨- الذهبي: (شمس الدين محمد بن علي)، **العبر وأئمة تلميذه الحسيني**، ت ٧٦٥هـ، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ومراجعة صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد الفراج، وزارة الإعلام في الكويت، ١٩٨٦م.

٩- الذهبي: (شمس الدين أبو عبد الله)، **سير أعلام النبلاء**، ت ٧٤٨هـ، إشراف شعيب الأرناؤوط، تحقيق عدد من الأساتذة منهم حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٢.

١٠- الدكتور سهيل زكار، **حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس**، ص ٤١، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١١- أبو شامة: (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ١/٣٠-٣٢، دار جيل.

- قيام الدولة الأيوبية.

١٢- أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، عني بنشره ووقف على طبعه السيد عزة العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

١٣- ابن شداد (محمد بن علي ابن ابراهيم)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر الأمراء الشام والجزيرة** ج١، عني بنشره وتحقيقه دومنيك سورليك، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥٣.

١٤- أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ط٣، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠.

١٥- ابن الصلاح: (عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوي) **علم الحديث**، تحقيق وشرح نور الدين عنتر، دار الفكر، بيروت.

١٦- الطباخ (محمد راغب)، **أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء**، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ١٩٨٨.

١٧-ابن العديم، (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله أبو القاسم)، ت ٦٦٠هـ، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق د. سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٧م.

١٨- العماد الكاتب (الأصفهاني، محمد بن محمد) **فريدة القصر وجريدة العصر** طبعة دمشق، ١٩٦٤.

١٩- ابن العماد: (عبد الحي بن العماد الحنبلي)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة ، بيروت، ط ثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، طبعة مصورة.

٢٠-ابن القلانسي: (حمزة بن أسد بن علي التميمي)، **تاريخ دمشق**، تحقيق الدكتور: سهيل زكار، دمشق، دار حسان للطباعة النشر، ط١، ١٩٨٣- ١٤٠٣هـ

٢١- القفطي: (جمال الدين علي بن يوسف)، **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ط ليبزغ، ١٩٠٢.

٢٢- القلقشندي: (أحمد بن علي)، **صبح الأعشى في كتابة الإنشاء**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م.

٢٣- ابن كثير: (اسماعيل بن كثير)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، طبعة مصورة. ب – ت ٧٧٤- **البداية والنهاية**، تحقيق عدد من المحققين، التراث ، القاهرة، ١٩٧٦.

٢٤- ابن اللمش: (عمر بن الخضر)، **تاريخ ونيس**، عني بتحقيقه ابراهيم صالح، دمشق، ١٤٠٧هـ /١٩٨٦م.

٢٥- النعيمي: (محيي الدين عبد القادر)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمي، بيروت ١٩٩٠.

٢٦- نور الدين محمود والصليبيون، حسين حبشي، ط ، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٧- ابن النديم: (محمد بن أبي يعقوب)، **الفهرست**، طهران، ١٩٧٢م.

٢٨- محمد كرد علي، **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٣م.

معركة ساحة الدم ٥١٣هـ/١١١٩م

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

جامعة دمشق

معركة ساحة الدم ٥١٣هـ/١١١٩م

الدكتورة وفاء جوني

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مقدمة:

بعد الفراغ من انتهاء أعمال الحملة الصليبية الأولى، والاستيلاء على مدن: الرها، إنطاكية، القدس فيما بين ٤٩١-٤٩٣هـ/ ١٠٩٧-١٠٩٩م، أسس اللاتين الغربيون الأوروبيون، كيانات في بلاد الشام، كتب لها أن تبقى قرابة قرنين من الزمان، ففي شمال سورية تم تأسيس إمارة إنطاكية من قبل بوهيموند النورماندي ٤٩٢-٤٩٨هـ / ١٠٩٨-١١٠٤م، الذي يعدّ عصره عصر القوة والتأسيس ذلك أنه أرسى دعائم إمارة إنطاكية على الرغم من إرادة السلاجقة المسلمين، حيث تصدى لجميع محاولاتهم التي قامت لإنقاذها وتحريرها، كما أنه أقام هذه الإمارة على الرغم من إرادة الإمبراطورية البيزنطية التي كانت ترى أحقيتها في حكم إنطاكية لأنّها أولاً: كانت تتبع لها فيما مضى (أي قبل دخول إنطاكية تحت السيادة السلجوقية)[1]، وثانياً: بحسب الاتفاقية التي تم عقدها في القسطنطينية بين الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كوميمينوس، وبين زعماء الحملة الصليبية الأولى، فقد تعهدوا له فيها بردّ ممتلكات بيزنطة التي استولى عليها السلاجقة كافة، إنطاكية من بينها.

قضى بوهيموند، سنوات حكمه إنطاكية، في حالة حرب شبه دائمة وعلى جبهتين معاً أحياناً، جبهة المسلمين من جهة، وجبهة البيزنطيين من جهة أخرى. حتى إنه وقع في أسر المسلمين مدة ثلاث سنوات.

وفي عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، رحل بوهيموند إلى الغرب الأوروبي من أجل الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد بيزنطة خاصة، والمسلمين عامةً، وقد أوصى لابن أخته تنكرد، بحكم إمارة إنطاكية في أثناء غيابه. ولكن لم يكتب لبهيموند أن يعود إلى إنطاكية بعد رحلته تلك، لأنه هُزم مع حملته الصليبية التي أحضرها معه من الغرب أمام الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومينينوس هزيمة منكرة، ووقّع معه صلحاً مهيناً عرف باسم صلح ديفول[٢]، وهكذا ظل بوهيموند في إيطالية محتجباً عن الأنظار حتى قضى نحبه عام ٥٠٥هـ/ ١١١١ ، وخلال تلك المدة أنجب طفلاً صغيراً هو بوهيموند الثاني الذي ظل في إيطالية بين أحضان أمه. وبذلك حكم تنكرد إنطاكية وصيّاً عليها حتى وفاة بوهيموند الأول، وبعد ذلك حكمها بمنزلة أمير شرعي. وإذا كان عهد بوهيموند هو عهد القوة والتأسيس، فإن عهد تنكرد هو عهد ازدهار والاستقرار والتوسع، ذلك أنه يعدّ المؤسس الحقيقي لإمارة إنطاكية، فقد حافظ عليها خلال مدة أسر خاله (٤٩٤-٤٩٧هـ/ ١١٠٠-١١٠٣م، ثم طوال غيبته في الغرب (٤٩٨-٥٠٥هـ/١١٠٤-١١١١م)، وهو صاحب الفضل في توسيع حدودها، بما عرف عنه من شجاعة وصلابة وصلت حد التهّور أحياناً. وبعد وفاة تنكرد تولى روجر الإنطاكي حكم إنطاكية، بناء على وصية ابن عمه تنكرد، وقد اشترط عليه (كما قيل فيما بعد) أن يتنازل عن الحكم إلى بوهيموند الثاني إذا بلغ الأخير سن الرشد، وأتى إلى الشرق للمطالبة بتركة أبيه (إمارة إنطاكية). وكان روجر، متزوجاً من سيسيليا أخت بلدوين دي بورغ أمير الرها، كما أن ماري أخت روجر صارت الزوجة الثانية لجوسلين دي كورتناي، مما أوجد رباطاً قوياً بين إمارتي الرها وإنطاكية في البداية، ثم بين بيت المقدس وإنطاكية فيما بعد وقد وصلت إمارة إنطاكية في عهد

روجر إلى حدودها القصوى وأصبحت قوة متزايدة، واحتلت المرتبة الثانية بعد القدس بين الكيانات اللاتينية، وشكلت مع الرها خطاً دفاعياً شمالياً. لمملكة القدس وكونتية طرابلس، وظلت حالها في قوة وازدهار بلغت ذروتها في معركة دانيث الأول ٥٠٩هـ / ١١١٥م، ثم هوت فجأة بعد أربع سنوات عندما قامت معركة ساحة الدم عام ٥١٣هـ / ١١١٩م، وعندها اختلت موازين القوى، وتبدل حال إنطاكية من القوة إلى الضعف حتى أوشكت على الزوال النهائي. ومن هنا تأتي أهمية هذه المعركة التي تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة والتحليل، على الرغم من تطرق الكتّاب والمؤرخين إليها خلال حديثهم عن مجريات ووقائع الحروب الصليبية، إن الهدف من هذه الدراسة هو عرض جديد لأحداث هذه المعركة من خلال مصادر طرفي الصراع في الشرق الإسلامي آنذاك. (المسلمون واللاتين)، ومقارنة ما جاء عند المؤرخين الغربيين (اللاتين) المعاصرين لتلك الأحداث، مع ما كتبه المؤرخون المسلمون المعاصرون لها أيضاً، وإظهار وجهات نظر الطرفين حتى نقدّر المعركة حق قدرها في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الحروب الصليبية عامةً. وعلى هذا الأساس يقف على رأس المصادر اللاتينية التي تحدثت عن تاريخ إنطاكية المبكر، كتاب "حروب الإنطاكيين" لوولتر المستشار (مستشار روجر الإنطاكي) وهو المصدر اللاتيني الوحيد المعروف الذي كتب داخل إمارة إنطاكية حيث تعدّ روايته حتى الآن أفضل الروايات المفصّلة حول تاريخ إمارة إنطاكية خلال أعوام ٥٠-٥١٣هـ /١١١٥-١١١٩م، ومردّ ثراء معلوماته بالدرجة الأولى أنه كان شاهد عيان، وهذا ما سمح له بتكوين صورة واضحة إلى حد كبير لأحداث تلك الحقبة المبكرة للكيان اللاتيني، ومواد وولتر فريدة فيها تفاصيل عن حروب الإنطاكيين لاسيما معركتي دانيث وساحة الدم، وهي مواد عالية الأهمية، كما أنها أهم مما ورد من معلومات عن المؤرخين الغربيين أمثال وليم الصوري، وفولتشر أوف نشارتزر وغيرهما، كما أن تفاصيل وولتر أوفى من التفاصيل التي قدمتها لنا المصادر الإسلامية مثل ابن العديم، وابن الأثير، والعظيمي

وغيرهم. وقعت معركة ساحة الدم بين إنطاكية وحلب، لذلك لا بدّ من التعرّف إلى أوضاع كل منهما في تلك الحقبة.

أولاً: حلب في ظل الأراتقة:

اختلّت أحوال إمارة حلب بعد وفاة أميرها رضوان بن تتش عام ٥٠٧هـ/١١١٣م، فقد حكم بعده ابنه ألب أرسلان مدة قصيرة (وساءت سيرة ألب أرسلان، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل)[٣]، فما كان من مدبر أمور حلب آنذاك (لؤلؤ الخادم أو لؤلؤ اليايا) إلاّ أن قتله ونصب أخاً صغيراً لألب أرسلان عمره ست سنين اسمه سلطان شاه بن رضوان[٤]. وكانت حلب قد تأذت كثيراً من مهاجمة الفرنج لأراضيها ومضايقتهم لها ولاسيما من إمارة إنطاكية "وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها، فلم يجب أحد منهم إلى ذلك"[٥]، ويستغرب ابن العديم موقف الأمراء المسلمين، ثم يعود فيشرح السبب:

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها، ولا يمكنه ردّ الفرنج عنها، وكان السبب في ذلك أن المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه[٦] حكم لؤلؤ الخادم في حلب وصياً على أولاد رضوان مدة ثلاث سنوات (٥٠٨-٥١١هـ/١١١٤-١١١٧م)، وخلال وصايته "قل الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقية، وقلّت الأموال، واحتيج إليها لصرفها إلى الجند"[٧]، ومما زاد الأمور سوءاً حدوث زلزلة عظيمة عام ٥٠٨هـ/م، ضربت حلب، وحران، وإنطاكية، ومرعش، والثغور الشامية، وكانت إنطاكية أكثر تضرراً من غيرها، فقد دمرت الزلازل قسماً كبيراً من مبانيها وخرّبت الكثير من المدن والقلاع التابعة لها[٨]، وقد تخوف الصليبيون من أن يحاول المسلمون في حلب ودمشق الاستفادة من تلك الكارثة في مهاجمة إنطاكية، لكن شيئاً من تلك المخاوف لم يتحقق، والواقع أن الخطر الذي هدد إنطاكية والصليبيين جميعاً جاء من الموصل، حيث تجمعت حملة جديدة بحمل راية الجهاد ضد الفرنج الصليبيين، فقد كان السلاجقة يعهدون إلى ولاة الموصل

لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين، وهذا ما فعله كل من مودود، وآق سنقر البر سقي، وجكرمش وغيرهم من ولاة الموصل، وذكر ابن العديم بأنه كان المحرض لإرسال الحملة هذه المرة نائب حلب لؤلؤ اليايا الذي "كتب إلى السلطان على سبيل المغالطة يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلفها رضوان وولده ألب أرسلان، ويطلب منه إنقاذ العساكر، فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش..."(٩).

وقد عهد السلطان السلجوقي إلى برسق هذا (صاحب همذان) بقيادة الحزب ضد الصليبيين عام ٥٠٩هـ/١١١٥م، وتحت قيادة برسق سار أتابك الموصل جيوش بك، ومعه قوات الموصل، وقوات الجزيرة، وصاحب سنجار. ويبدو أن سلطنة السلاجقة في أصفهان، لم تستهدف من هذه الحملة محاربة الصليبيين فقط، بل أيضاً بسط هيمنة السلاجقة على الإمارات الإسلامية في الشام والجزيرة كلّها، حيث استطاع كثيرٌ من حكام المسلمين مثل طغتكين صاحب دمشق، وبدر الدين لؤلؤ نائب حلب، وإيلغازي والأراتقة في ديار بكر، أن يستغلوا فرصة الفوضى التي عمّت البلاد نتيجة الحرب بين المسلمين والصليبيين والصراعات الداخلية بين السلاجقة في المشرق لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية في أصفهان، بل إن بعض هؤلاء الأمراء (مثل إيلغازي الأرتقي) لم يترددوا في محاربة قوات السلطان محمد السلجوقي، مما جعل السلطان محمد يعدّ تلك الحملة لمحاربة هؤلاء الأمراء وإخضاعهم بالدرجة الأولى، ومن ثم محاربة الصليبيين ولاسيما في إمارتي الرها وإنطاكية، فقد ذكر ابن الأثير بأن السلطان "أمرهم بالبداية بقتال إيلغازي طغتكين، فإذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم"(١٠).

وهكذا قصد السلطان أن تكون حملته تلك انتقاماً من إيغازي وطغتكين بالدرجة الأولى، أما إيلغازي، فلكونه قطع صلته بالسلطنة وقام بمحاربة قواتها علانية، وأما طغتكين، فلأنه اتّهم بتدبير مقتل مودود بن التونتكين، حاكم الموصل(١١) الذي كان يمثل السلطان السلجوقي في إقليم الشام، والجزيرة، من خلال منصبه ذاك. وكما هو معروف أن

مودود قتل في دمشق بيد أحد الأعاجم، لأنه عندما كان داخل المسجد الكبير (الجامع الأموي) مع طغتكين لتأدية صلاة الجمعة، ومع أن طغتكين قتل الجاني، لكن الرأي العام الإسلامي اتهم طغتكين بالتواطؤ مع الباطنية لتدبير مؤامرة قتله[١٢]. وبذلك تخلص الصليبيون من عدو لدود سبّب لهم رعباً كبيراً، لأنه (مودود) آمن بفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي (وكان قبل مقتله قد دعا الأمراء المسلمين وزعماء السلاجقة للاشتراك بحملة ضد الصليبيين، وقد أرادها طغتكين أن تكون ضد مملكة بيت المقدس، انتقاماً منها لغارتها المتكررة على أراضي دمشق، وفعلاً تمكن مودود وطغتكين وقواتهما من إنزال هزيمة قاسية بالملك بلدوين الأول عند الصنبرة وبعد أن تفرقت القوات الإسلامية، دخل مودود دمشق بناء على دعوة من طغتكين وهناك تمت عملية قتله)، ولما علم الأمراء المسلمون بأمر حملة برسق، سرعان ما أحسوا بالخطر، وكان أكثرهم حساساً به هو ايلغازي في ديار بكر، فأرسل بسرعة إلى طغتكين يستنجد به ضد الخطر المشترك، ولعل الواضح مدى الحرج والخطر اللذين أحس بهما طغتكين عقب مقتل مودود ممثل السلطان وزعيم حركة الجهاد في العالم الإسلامي، لذلك أخذ طغتكين يعمل حساباً كبيراً لانتقام السلطان محمد، وهنا أدرك أن محالفة الصليبيين في ذلك الموقف خير له بكثير من مشاركة السلاجقة تحت ستار الجهاد، وعلى حد تعبير المؤرخ اللاتيني وولتر المستشار فإن طغتكين "أعلن بأنه يفضل أن يكون مع الصليبيين في سلم ظاهري مخادع، وأنه يؤثر ذلك في صنع اتفاق مع الفرس"[١٣]، (سلاجقة فارس). وفعلاً لم يكد يذهب إلى طغتكين حتى اتفق الطرفان على محالفة الصليبيين.

وكان أن تجمعت الحملة السلجوقية أخيراً في الجزيرة، ومنها اتجهت إلى حلب، ولكن نائب حلب تصرف قبل وصول الحملة خوفاً من غدر السلاجقة، فغيّر رأيه في آخر لحظة "وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده، ووعده بتسليم حلب إليه، وأن يعوضه طغتكين من أعمال دمشق، فبادر إلى ذلك[١٤] وبذلك (تغيرت نية لؤلؤ الخادم

عما كان كتب به إلى السلطان"(١٤)، وهكذا لم يبقَ على ولاء السلاجقة سوى بني منقذ في شيزر، وأمير حمص قيرخان بن قراجا، الذي كان يطمع في الاستيلاء على حماة وانتزاعها من طغتكين. أما طغتكين وإيلغازي فقد أسرعا على رأس قواتهما ودخلا حلب لينتظرا جميعاً وصول قوات السلطان محمد ويمكن تفسر موقفهما ذلك بأنهما رغبا في الحفاظ على حلب شبه المستقلة الوضع، من أجل منع بغداد والسلطنة من نيل موطئ قدم شمال سورية وأما الصليبيون، فلم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً لملاقاة الجيش السلجوقي فأسرع روجر الإنطاكي إلى جمع جيوشه على نهر العاصي عند جسر الحديد(١٦)، للدفاع عن إنطاكية من جهة، ولمراقبة تطورات الموقف في حلب من جهة ثانية، ثم حدث الاتصال بين الجانبين الإسلامي والصليبي لمواجهة الخطر المشترك. ومع أنه ليس معروفاً بهما قد حدث بالفعل، وهذا يجعلنا نتساءل كيف ولماذا تمّ مثل ذلك التحالف بين المسلمين والصليبيين؟!

والإجابة تكمن في أن الحملة كانت موجهة أصلاً إلى كليهما، فإذا حددنا أهداف الحملة كالتالي: أولاً: الانتقام لمقتل مودود، ثانياً إخضاع الأمراء المسلمين الذين قطعوا صلتهم بالسلطنة السلجوقية، ثالثاً: محاربة الصليبيين. في ويمكننا أن نضيف سبباً رابعاً على درجة من الأهمية وهو أن الصليبيين بعد استقرارهم على أرض الشام (فقد مضى على وجودهم آنذاك قرابة عشرين عاماً) تحولوا من أصحاب قضية إلى أصحاب ملك، وكان همهم الآن الحفاظ على ملكهم وأراضيهم مهما كانت الوسائل. فعند ظهور عدو مشترك يهدد المصالح، من الطبيعي أن يتفق الأعداء ولو ظاهرياً، ولاسيما أن هؤلاء الأعداء قد أصبحوا جيراناً مع مرور السنين (مملكة القدس اللاتينية وأتابكية دمشق بحكم الجوار)، وهكذا اجتمعت قوات الحلفاء جميعاً، وقد بلغ عددها جميعاً اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من الصليبيين، وعشرة آلاف من المسلمين، وتم الاجتماع عند أفاميا(١٧). كانت خطة برسق أن تكون حلب قاعدة لعملياته في الشام، فلما وجد أن نائب حلب تنكر للسلطان، غير وجهته شطر بني منقذ في شيزر وقيرخان

في حمص، واختار أن يبدأ بحماة التابعة لطغتكين "فحصرها وفتحها عنوة، ونهبها ثلاثة أيام، وسلمها إلى الأمير قرجان (قيرخان) صاحب حمص، وكان السلطان قد أمر أن يسلم إليه كل بلد يأخذونه، فلما رأى الأمراء ذلك ضعفت نياتهم في القتال، بحيث تؤخذ البلاد وتسلم إلى قرجان[١٨]، وهذا ما أثر سلباً في نتيجة هذه الحملة المخففة. وبعد ذلك اتجه برسق إلى شيزر، ومن هناك هاجم كفراب، ولما علم باقتراب ملك بيت المقدس بلدوين الأول ورنز كونت طرابلس، تراجع فوراً على رأس قوته إلى الجزيرة، وتمت عملية الانسحاب بنجاح.

وهكذا لم يلبث أن تفرّق الحلفاء، فعاد الملك إلى القدس، وبونز إلى طرابلس، وطغتكين إلى دمشق، وروجر إلى إنطاكية، وإيلغازي إلى ماردين، وقائد جيش حلب إلى حلب وبدا كأن الأمر انتهى على هذا الحال، وقد عبّر ابن العديم عن موقف طغتكين من هذا التحالف بقوله: "وجعل أتابك يريّث الفرنج عن اللقاء خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه، أو ينكسروا فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده"[١٩]. أي أنه كان من مصلحة طغتكين ألا تقوم حرب حتى لا يفوز أحد منهما، فيخسر بلاده في الحالتين. على أن انسحاب برسق كان في حقيقة أمره خدعة بارعة، لأنه لم يلبث أن عاد فجأة بجيوشه إلى كفر طاب وحاصرها واستولى عليها، ثم سلمها إلى حلفائه من بني منقذ، وبعد ذلك اتجه إلى معرة النعمان، ومنها أخذ يستعد لأخذ زردنا، التابعة للصليبيين والواقعة قرب حلب، وفي الوقت نفسه أرسل برسق قوة كبيرة صوب حلب، لكن هذه الخطوة لم تكن مجدية لأنها أضعفت قوته من جهة ، ولأنها استثارت روجر الإنطاكي من جهة أخرى[٢٠]، وبينما كانت قوات السلاجقة تعسكر غربي سرمين عند موقع يعرف بتل دانيث، إذ بالصليبيين بقيادة روجر الإنطاكي، وأمير الرها بلدوين دي بورغ ينقضون عليهم، فيقتلون منهم الكثير، في حين فرّ الباقون وعلى رأسهم برسق نفسه، وكان عام ٥٠٩هـ/١١١٥م، "وأخذ الكفار من هذا ما يفوق الوصف وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب والأمتعة ما لا

يحصى"[٢١]، وقسّم الأمراء الصليبيون على أنفسهم تلك الغنيمة الضخمة، فسّر أهل إنطاكية سروراً عظيماً عندما عاد روجر ومعه تلك الثروة الطائلة.

نتائج معركة دانيث الأولى:

لقد جاء انتصار الصليبيين في دانيث ليضع حداً لجهود سلاطين سلاجقة فارس لاسترداد الشام، ولم يلبث أن توفي برسق، بعد بضعة أشهر متأثراً بعار الهزيمة، في حين أعرض السلطان محمد السلجوقي عن بذل تضحية أخرى في بلاد الشام.

ثم إن هذه الهزيمة كان لها ردّ فعل قوي في بلاد الشام، سواء في القوى المحالفة للسلطان السلجوقي أو المعادية له، من ذلك أن بني منقذ في شيزر، أسرعوا إلى إخلاء كفر طاب، فاستعادها اللاتين أثناء عودتهم إلى إنطاكية بعد المعركة، أما طغتكين فقد تشجع وانتزع رفنية من أمير حمص، ثم إن بني منقذ لم يكتفوا بتسليم كفر طاب إلى روجر الإنطاكي، وإنما عقدوا معه صلحاً لمسالمته، كما حرصوا على عدم الاعتداء على القوافل اللاتينية بين إنطاكية وبيت المقدس[٢٢]. على أن أهم نتيجة لهذه المعركة هي ظهور روجر بمظهر البطل الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالسلاجقة، من دون مساعدة ملك القدس، وهذا ما أعطاه أهمية عظمية ومكانة كبيرة لدى الصليبيين جميعاً، وكذلك صار يحسب له حساب كبير عند المسلمين، على أن الأهم من ذلك كله أن روجر وثق بقدرته، واغتر بنصره مما جعله لا يعبأ كثيراً بنصائح ملك القدس. وبطريرك إنطاكية، وذلك عندما تعرض للخطر بعد بضعة أعوام من هذا النصر، فانبرى وحده بالتصدي للمسلمين، وهذا ما جرّ عليه وعلى إمارته أوخم العواقب كما سنرى في معركة ساحة الدم. ولنعد الآن لمتابعة أوضاع حلب بعد معركة دانيث فقد رأينا أن لؤلؤ اليايا بعد قيامه بقتل ابن سيده (ألب أرسلان)، انفرد هو بحكم إمارة حلب مدة ثلاث سنوات، ولما أحسّ لؤلؤ بضعفه وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية المحيطة بحلب، طلب محالفة طغتكين، لكن هذه المحالفة لم تنجه من المصير السيئ الذي انتظره، فقد كان السلطان السلجوقي "قد أقطع حلب والرحبة

آق سنقر الرسقي، فوطأ (الرسقي) جماعةً من أصحابه على أن أظهروا مفارقته، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصه، ووطأهم على قتل لؤلؤ، وأمل أنهم إذا قتلوه تصحّ له إقطاع حلب فقتلوه"(٢٣)، وبذلك قتل لؤلؤ بتدبير آق سنقر الرسقي عام ٥١١هـ/ ١١١٧م، وكان آق سنقر آنذاك في الرحبة. ولما وصل خبر مقتل لؤلؤ إلى آق سنقر (أسرع المسير من الرحبة إلى حلب، وانضاف بعض عسكره إلى بقية القوم الذين قتلوه وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم، وساروا إليها فسبقهما ياروقتاش الخادم – أحد خدم الملك رضوان وهو أرمني اعتنق الإسلام– ودخل حلب)(٢٤)، وهكذا أصبحت حلب في قبضة ياروقتاش هذا، فكان عليه أن يدفع آق سنقر عنها، فماذا فعل للتخلص من آق سنقر؟ تتابع الخبر عند ابن العديم حيث قال: "وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين إيلغازي بن ارتق ليصل من ماردين ويدفع آق سنقر، وكاتب روجر صاحب إنطاكية أيضاً، فوصل إلى بلد حلب، وأخذ ما قدّر عليه من أعمال الشرقية، فحينئذٍ آيس البرسقي من حلب، وانصرف من أرض بالس إلى حمص فأكرمه، ووعد بإنجاده على حلب"(٢٥). لقد فضل ياروقتاش محالفة الصليبيين على تسليم البلد إلى آق سنقر، ولم يكتفِ بذلك، بل اتبع سياسة المسالمة والمهادنة المذلة مع إنطاكية فقد هادن ياروقتاش صاحب إنطاكية روجر، وحمل إليه مالاً وسلم إليه حصن القبة، ورتب مسير القوافل من حلب إلى القبلة عليه، وأن يؤخذ المكس منهم له(٢٦)، وبذلك نرى أن وصاية ياروقتاش على حلب زادت من ضعف هذه الإمارة، لأنه أسرع إلى استرضاء روجر الإنطاكي، وعقد معه الصلح الذي تنازل فيه عن حصن القبة (قبة ابن ملاعب)، فضلاً عن إعطائه الحق في فرض ضرائب على قوافل الحجاج بين حلب والحجاز، "ثم إن ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب، وعزم أن يعمل حيلة يوقعها بالمقدمين ويملكها مثل لؤلؤ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته، وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادماً من خدم رضوان، وردّ أمر سلطان

شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمور إلى عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن ابن الملحي، فدبّر الأمور وساسها، وضعفت حلب وقلّ ارتفاعها وخربت أعمالها"[٢٧].

وقد وصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب "فأنزلوه في قلعة الشريف، ومنعوه من القلعة الكبيرة واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وسلموه إليه بالس والقليعة"[٢٨] مكافأة على مساعدته كما أنه قبض على ابن الملحي، ولما وجد أنه "قصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه إيلغازي والتركمان الذين معه، ولم ينتظم له حال"[٢٩]، خرج إلى ماردين، وبقيت بالس والقليعة في يده، وأخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعاده إلى تدبير الأمور.

هكذا كانت حلب، يتغيّر النواب والحكام، ولا يتغير حال حلب إلا إلى الأسوأ، حتى إنه عندما كانت تحدث المشاكل في أعمال حلب، كان يتم استدعاء الفرنج، مثلما حدث عام ٥١١هـ/ ١١١٧م، فقد "أفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج عن بالس"[٣٠]، لقد كانت بالس تابعة لإيلغزي لذلك أسرع لنجدتها كما أنه "وصل في هذه السنة أتابك طغتكين وآق سنقر الرسقي إلى حلب، وأرسل أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته، وقالوا "ما نريد أحداً من الشرق" وأنفذوا واستدعوا الفرنج من إنطاكية لدفعه عنهم، فعاد آق سنقر إلى الرحبة، وأتابك إلى دمشق"[٣١]، لقد فضّل حكام حلب الارتماء في أحضان الفرنج على التسليم لآق سنقر الذي أقطعه السلطان السلجوقي حلب، هذا من الناحية السياسية، فماذا عن الناحية اقتصادية وأحوال الأهالي في حلب، هل كانت أفضل حالاً.؟ يخبرنا بذلك ابن العديم بقوله: "اشتد الغلاء بإنطاكية وحلب، لأن الزرع عرق (أصابته رطوبة) ولحقه هواء عند إدراكه أتلفه، وهرب الفلاحون للخوف[٣٢] "وخرجت قافلة من حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم، وحملوا ذخائرهم وأموالهم لما قد أشرق عليه أهل حلب فلما وصلوا إلى القبة نزل الفرنج إليهم، وأخذوا منهم المكس، ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم"[٣٣]، وهنا أرسلهم راسلهم أبو المعالي ابن الملحى

ورغّبهم في البقاء على الهدنة وألا ينقضوا العهد، "وحمل إلى صاحب إنطاكية مالاً وهدية فرّد عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك"[٣٤]، وهكذا نجت القافلة هذه المرة بحسن سياسة وتصرف ابن الملحى ، ولكن هذا الأمر سيتكرر مع كل قافلة، فهل سيبقى الفرنج على ميثاقهم وهدنتهم؟

سرعان ما "قوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجد وضعفها، وغدروا ونقضوا الهدنة، وأغاروا على بلد حلب، وأخذوا مالاً لا يحصيه إلا الله، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين، فوعدهم بالإنجاد، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطرباً"[٣٥]، وهكذا استغاثت حلب مرة بصاحب دمشق ومرة بصاحب الموصل دون فائدة.... ولم يكتفِ الفرنج بذلك بل أصرّوا على مضايقة حلب وتجريدها من أعمالها وقلاعها حتى يسهل أمرها عليهم فتابعوا إغارتهم "ونزل الفرنج بعد عودتهم من كسرة أتابك على إعزاز، وضايقوها وأشرفت على الأخذ، وانقطعت قلوب أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلا من إعزاز وبلدها، وبقية بلد حلب في أيدي الفرنج، والشرقي خراب مجدب، والقوت في حلب قليل جداً"[٣٦]، وهكذا لم تحل سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، إلا وصارت حلب تحت رحمة الصليبيين في إنطاكية "يئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد الملوك، فاتفق رأيهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين إلى إيلغازي بن أرتق، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم... وضمنوا له مالاً يقسطونه على حلب يصره إلى العساكر"[٣٧]، فوصل إيلغازي إلى حلب "ودخلها، وتسلم القلعة، وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب"[٣٨]، لقد سلم أهالي حلب القلعة الكبيرة لإيلغازي هذه المرة. وهذا يعني أنهم سلموه بلادهم كلها. وهكذا دفعت حلب ثمن انتصار الصليبيين في معركة دانيث. فأصبحت بالغة العجز عن دفع اعتداء الفرنج. فما كان منها إلا أن وضعت نفسها مكرهة تحت حماية إيلغازي الأرتقي. وبذلك صارت حلب من ممتلكات إيلغازي وعليه الدفاع عنها ضد الصليبيين. فما أن رتب

إيلغازي أمور حلب حتى اهتم بأمر إعزاز "وراسل الفرنج في مال يحمله عن إعزاز ليرحلوا عنها. فلم يلتفتوا لقوة أطماعهم في أمر الإسلام. وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قوات الدواب. وحلب على حد سواء" [٣٩]. لقد بلغ حال حلب من الضعف وقلة المال. أن إيلغازي عجز عن إطعام الدواب التي يعتمد عليها عساكره. وأحوال حلب الاقتصادية وصلت حد التلف، فلما عرف أهالي عزاز حقيقة الوضع في حلب، يئسوا من القدرة على صدّ الفرنج. وقاموا بتسليمها لهم. بعد حصار ثلاثين يوماً[٤٠]، وراسلوا صاحب إنطاكية في طلب الصلح فوافق "على أن يسلموا إلى الفرنج تل هراق ويؤدون القطيعة المستمرة عن حلب أربعة أشهر. وهي ألف دينار. ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً"[٤١]. وهكذا سلمت إعزاز للصليبيين عام ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وهي البلد الوحيد الذي كان يمدّ حلب بالمؤن والطعام. ولكن الصليبيين لم يقوموا بهدمها وتخريب أراضيها الزراعية، بل قاموا بزراعة أراضيها "وقووا فلاحيها وعادوا إلى إنطاكية، وصار يدخل إلى حلب ما يبتغون من القوت"[٤٢].

لقد أراد الصليبيون بزراعة عزاز وتقويتها أن يجعلوا منها نقطة انطلاق لعملياتهم الحربية المقبلة على حلب نفسها، فيصبح وقوع حلب في قبضتهم أمراً لا مفرّ منه، ويرضى بهم الأهالي لأنّهم يهتمون بإطعامهم ثم إن حلب كانت تدفع قطيعة (جزية) لإنطاكية فهذا يضمن للصليبيين استمرار الدفع لتوفير القوت.

وفي عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م، قام روجر بالاستيلاء على بزاعا شمال شرقي حلب وبذلك اكتمل حصار حلب من نواحٍ ثلاث، ويكون روجر قد بسط سيطرته على جميع الأجزاء المحيطة بحلب خلال الأعوام القليلة التي سبقت معركة ساحة الدم. كما أنه تم بذلك عزل حلب عن نهر الفرات والمشرق.

كان ضياع بزاعا خسارة كبيرة لأهالي حلب ولإيلغازي نفسه، عبّر عنها متى الرهاوي بقوله: "نشب صراع عميق وتطور بين الأمير إيلغازي وروجر، وهما الاثنان اللذان كانا من قبل صديقين قريبين ولكن أصبحا الآن عدوين لأن كلاً من حلب واعزاز كانتا

عائدتين إلى الأمير التركي إيلغازي بن أرتق ولذلك امتلأ إيلغازي غضباً بسبب ذلك"[٤٣]، فما كان منه إلا أن بدأ بالدعوة لجمع الجيوش استعداداً للمعركة المقبلة مع الصليبيين. وهكذا تغيرت الأمور في حلب عندما تغلب الشعور الديني وسلم الحلبيون بلدهم إلى الأمير التركماني إيلغازي وبذلك تجدد العداء بين حلب وإنطاكية.

ثانياً: شخصية إيلغازي:

شبّه وليم الصوري إيلغازي بالدودة التي لا تعرف الكلل، ومن خلال هذا التشبيه يمكننا أن نكوّن صورة عن شخصية إيلغازي وأعماله ضد الصليبيين، حيث قال: "كان إيلغازي مضطهداً لا يعرف الكلل للعقيدة المسيحية واسمها. فقد كان كالدودة القاضمة يبحث دائماً عمّن يمكن أن يؤذيه"[٤٤]، وفي موضع آخر وصفه بأنه "الأمير الكافر والقوي غازي سيد تلك السلالة التركمانية"[٤٥]، أما متى الرهاوي، فذكر بأنه "القائد الأعلى للقوات التركية لمكانة أصله التركي"[٤٦]. وفي الحقيقة كان إيلغازي يعدّ أقوى الأمراء المحليين وأشدهم صلابة وكان اسمه من الأسماء اللامعة التي تثير الخوف في قلوب الأعداء فقد رأينا كيف أن أهل حلب وضعوا أنفسهم تحت حمايته وسلموه بلدهم بما فيها، وهو من جهته قام بمهمته خير قيام. أما وولتر المستشار فقد جعله الشخصية الرابعة من حيث الأهمية داخل هيكل روايته وذلك بعد روجر، وبلدوين الثاني وبرنارد بطريرك إنطاكية، وقد مرّ وولتر عن إيلغازي مرور الكرام القسم الأول من كتابه وهو القسيم المتعلق بمعركة دانيث الأولى، ولكن جرى تقديمه في القسم الثاني من الرواية بمنزلة التجسيد للشيطان، حيث أطلق عليه اسم "أمير عدم التقوى" و"معلم الإجرام" و"القائد الشرير" وأسماء أخرى كثيرة. وبحكم أن إيلغازي كان المسؤول الفعلي عن إلحاق الهزيمة بالصليبيين في ساحة الدم، وعن الفظاعات التي اقترفت في نهايتها ليس من المدهش أنه صار موضوعاً لأقسى الانتقادات من قبل وولتر حتى بات من المستحيل إيجاد لحظة حيادية واحدة، جرى فيها عرض أخلاقه في القسم الثاني، ففي أثناء مناقشات إيلغازي مع قائد لاتيني معروف يدعى "روينالد المازيور" وكان هذا

القائد قد جرح في معركة ساحة الدم ثم تمكن من دخول حصن سرمدا التابع للصليبيين، ومن هناك أرسل يطلب تسليم نفسه إلى إيلغازي الذي كان يحاصر الحصن بقوة، وقد طلب ذلك الأمير الفرنجي أن يقسم له إيلغازي يميناً معظماً على أن يقوم بحمايته والدفاع عنه ريثما يصل إلى بلاده، فوافق إيلغازي وأعطاه خاتمه دلالة على صدقه..."[٤٧]. وعلى الرغم من ذلك كله فقد وصف وولتر إيلغازي بأنه كان صلباً في مناقشاته معه كما أنه لم يتحدث عن نهاية رينالد، وهل تم الإفراج عنه من قِبَل إيلغازي كما وعد؟

وفي الحقيقة كان إيلغازي قد أفرج عن رينالد المازيور، فقد ذكر اسم رينالد شاهداً على صك أصدره الملك بلدوين الثاني عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، ولعل وولتر أخفى خبر إطلاق سراحه ولم يدونه في كتابه، لأنه لم يرغب في إظهار إيلغازي أميراً محافظاً على وعده[٤٨]. كما اتهم وولتر إيلغازي بأنه كان سكيراً و"أنه كان حريصاً على الشراب" وأنه بعد معركة ساحة الدم "تمدد في قصره مخموراً بخيال الخمرة"[٤٩]. وحديث وولتر وتهمته له بالإفراط في شرب الخمرة، أمر جرى تأكيده إلى حدٍّ ما من قبل مصادر أخرى. وأنه لم تكن ليلة واحدة من شرب الخمر كافية لإنهاك إيلغازي، وهذا ما أشار إليه أسامة بن منقذ حيث قال: "وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً"[٥٠]، ومن الصفات الأخرى التي وصف بها وولتر عدوه إيلغازي بقيامه بتعذيب الأسرى بالاشتراك مع حليفه طغتكين، وقد أظهر وولتر إيلغازي على أنه العقلية المبدعة لأعمال وطرق التعذيب حيث قال: "كان هذا الرجل الشرير يشعر بالبهجة لتعذيبهم ويضحك لدى رؤيته لهم، وكأنه قد شعر بالانتعاش"[٥١]، ووصف وولتر أحوال السجناء داخل زنزانة السجن وصفاً دقيقاً، وأشار أكثر من مرة إشارات تدل على أنه كان أسيراً من جملة أسرى إيلغازي كقوله: "وسنبذل في الشرح غاية جهدنا وإمكاناتنا، مع أن ذلك جاء باهتاً بسبب زنزانة السجن"[٥٢]، وكان ذلك بعد معركة ساحة الدم، ولهذا كان تصوير وولتر لإيلغازي تصويراً سلبياً تماماً في القسم

الثاني من الكتاب، فإذا عدّ روجر (بطل) القسم الأول. فإن إيلغازي كان (وغد) القسم الثاني من الكتاب في نظر وولتر والصليبيين جميعاً، كما أن وجود أمراء مسلمين أمثال إيلغازي وطغتكين وغيرهم. جعلهم مصدر الخطر الوحيد الذي تعرض له اللاتين في الشرق. ومما كان يرعب الصليبيين هو قيام تحالف بين الأمراء المسلمين ضدهم ومع أن هؤلاء الأمراء كانوا شبه مستقلين. (كل في إمارته أو مدينته) لكنهم لم يكونوا متحدين فإذا لاح خطر الصليبيين في الأفق سرعان ما كان يتم تبادل الرسل لطلب العون، وعقد التحالفات، وحشد الجيوش، حتى يزول الخطر، أو تقوم المعركة، وبعد زوال الخطر كان يتم التفرق، ويعود كل أمير إلى إمارته إما منتصراً أو مهزوماً.

أما إيلغازي فمع أنه كان يعدّ أقوى أمراء الشام آنذاك لكنه لم يكن بوسعه هو أو حليفه الدائم طغتكين، أن يخاطر بكل ما لديهما من قوة في قتال الصليبيين نظراً لأنهما كانا ما يزالان بالغا في الخوف والكراهية لسلاطين سلاجقة المشرق، على الرغم من أن طغتكين، ذهب إلى بغداد عام ٥١٠هـ / ١١١٦م، ليقدم التوبة ويطلب العفو من السلطان وقد (رضي عنه السلطان وخلع عليه)[٥٣]، غير أن السلطان محمد قضى نحبه عام ٥١٢هـ /١١١٨م، وترتب على وفاته أن انطلقت أطماع سائر الولاة والأمراء في أنحاء الإمبراطورية السلجوقية.

وحاول ابنه الشاب محمود الذي خلفه على السلطنة السعي لتوطيد سلطته، غير أنه اضطر آخر الأمر أن يسلم السلطة العليا إلى عمه سنجر عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م، وعلى الرغم من أن سنجر كان بالغ القوة والنشاط لكنه لم يحفل مطلقاً بما كان يجري في الشام لأن مصالحه تركزت في الشرق[٥٤]، وهنا تهيأت الفرصة أخيراً لإيلغازي الذي لم يعد يحتمل مضايقة لاتين إنطاكية لحلب وما يحيط بها فجاء احتلال روجر لبزاعا بمنزلة الطلقة التي أعلنت بداية الحرب.

شخصية روجر الإنطاكي:

وصف أسامة بن منقذ روجر الإنطاكي بأنه كان "شيطاناً من الفرنج"[٥٥]، وذلك لقوته ودهائه ومثابرته على حرب المسلمين والاعتداء عليهم، ولاسيما إمارة حلب التي تضررت كثيراً من غاراته وتوسعاته وذلك بسبب قربها من إنطاكية أما إنطاكية فوصلت في عهده إلى ذروة مجدها وقوتها ووصلت حدودها إلى أقصى امتدادها حتى قاربت مشارف حلب، ومن هناك صار يشن الغارات على حلب ويخنقها اقتصادياً مرة بعد أخرى تمهيداً لاحتلالها، ولو تتبعنا أوصاف روجر وأخلاقه لوجدنا تعدد الروايات بحسب المؤرخين لكنها جميعاً لا تتناقض في مضمونها فعند أوردريك فيتالي: "كان روجر فارساً جريئاً ومتحمساً، لكنه لم يكن مساوياً لسلفيه، ذلك أنه لم يكن سلمياً بل عنيداً وطائشاً" فلو عدنا إلى فولتشر أوف تشارترز لوجدناه قد شنّ هجوماً حاداً على أخلاق روجر بقوله: إن روجر ورجاله "أغرقوا أنفسهم في الملذات وتمتعوا بالثروات من كل صنف ولم يظهروا في آثامهم أي اعتبار لاحترام الرب والإنسان فهو نفسه (روجر) اقترف الفحشاء دون حياء مع كثيرات، مع أنه كان ما يزال يعيش مع زوجته ثم إنه كان قد حرم ابن بوهيموند وهو سيده ومولاه من ميراثه، وكان ابن بوهيموند هذا يعيش آنذاك مع أمه في أبوليا لقد أثم روجر مع قادته ورجاله فقد عاشوا في بذخ ورفاه عظيم واقترفوا كثيراً من الآثام"[٥٦].

وهكذا تحدث فولتشر عن ذنبين محددين اقترفهما روجر، وأُدين بهما وهما: الزنا، والاغتصاب (اغتصاب الحكم من بوهيموند الثاني)، كما أشار أيضاً إلى صفة التجبر عند روجر، وإلى شره النبلاء الإنطاكيين عامةً، أما وليم الصوري فقد قلّد فولتشر في أوصافه لروجر وقد ذهب إلى القول: إن" روجر هذا الأمير نفسه كان صاحب سمعة كريهة جداً فقد كان فاسقاً وضيعاً لم يحترم رابطة الزواج وكان شديد البخل أيضاً"[٥٧]، وكذلك متى الرهاوي، لم يكن وصفه لروجر أفضل من ذلك فقد قال عنه: "ولما كان روجر كونت إنطاكية رجلاً أرعنَ ومتجبراً ولديه ثقة كاملة بقوته أهمل اتخاذ أية

احتياطات من أجل الدفاع..."(٥٨)، من أقوال هؤلاء المؤرخين يتبين أن روجر لم يكن يتمتع بسمعة عالية ولا باحترام كبير في الوقت الذي مات فيه يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك شكوك حول شرعية حقه بحكم إنطاكية مستقلاً، ولكن حتى تكتمل صورة روجر لدينا لا بد من العودة إلى وولتر المستشار وكتاب حروب الإنطاكيين، لمقارنة تلك الأوصاف بما جاء عند وولتر لأنّه كان الرجل الوحيد بين هؤلاء المؤرخين الذي خَبر روجر عن قرب وتعرف إلى صفاته بصدق ولكن بما أن وولتر كان موظفاً عالي المقام في البلاط الإنطاكي، وكان مقرباً من الأمير روجر، لذلك لم تكن أوصافه له قاسية ومشوهة ومؤلمة كما فعل بقية المؤرخين فروجر الإنطاكي هو البطل المركزي لرواية حروب الإنطاكيين في الانتصارات (معركة دانيث الأولى) وفي الانكسارات (معركة ساحة الدم)، وعلى هذا فإن وجهة نظر وولتر وموقفه من شخصية روجر هي وجهة النظر الأساسية للكتاب كله... ومع ذلك يمكننا أن نميز في كتاب وولتر شطرين متميزين لروجر، بسبب طبيعة الكتاب، ففي وصف انتصارات عام ٥٠٦هـــ ١١١٣م، كان روجر الشخصية البطولية المركزية فقد وصفه وولتر بأنه كان حاكماً عاقلاً ومحترماً، ورفع من شأن سماته الإيجابية كما قدّمه على أنه فرد تقي، فقد قام بمجموعة من التحضيرات الدينية الروحية قبل أن يغادر إنطاكية إلى ساحة المعركة فاستمع إلى قداس رباني، وصلى في عدة كنائس، وتلقى مباركة، وأذناً من البطريرك"(٥٩)، وغير ذلك....

وكانت بالضرورة صورة روجر في الكتاب الثاني مختلفة، فكما سلف ورأينا أن معظم المصادر اللاتينية الأخرى وجهت اللوم المباشر لروجر من أجل ساحة الدم، ومع ذلك فإن وولتر لم يقم بإدانته مباشرة، كما أنه لم يوجه اللوم القاسي من أجل المأساة، لا بل إنه عوضاً عن نقده بذل قصارى جهده للحفاظ عليه على أنه الشخصية المركزية في روايته، وعندما كان يضطر لانتقاد أخطائه، كان يقدمها بطريقة مبطنة غير مباشرة مثل قرار روجر الزحف من ارتاح، إلى الموقع الذي سمي ساحة الدم، وكذلك فقدانه

الصبر على انتظار وصول ملك المقدس، وبالتالي قيامه بالهجوم وحده ضارباً عرض الحائط بنصائح بطريرك إنطاكية، وغير ذلك.... وقد أبعد وولتر النقد جزئياً عن روجر، ولم يحمله الوزر كله، وعزا ذلك إلى المستشارين السيئين (البارونات) وإلى سادة الحدود الشرقية مع حلب، لأنهم غلبوه على رأيه "فاتخذ قرارات فاسدة، وغامر حيث توجب عليه عدم المغامرة"[٦٠]، لا بل قام وولتر بمدح القيادة العملية لروجر حتى في ساحة الدم، وألحّ على إظهار روجر وقوته في القتال، وتمسكه بمبادئ الفروسية المثالية. أما بالنسبة إلى صفات روجر الأخلاقية، فيبدو أن وولتر كان على دراية بسمعة روجر، والانتقادات التي كانت تثار ضده، فقد ذكر بأن هناك مجموعة كبيرة من الذنوب هي التي دفعت ذلك الأمير إلى المأساة، فجاء النصف الأول من الكتاب الثاني لوولتر مليئاً بإشارات إلى ذنوب واعترافات وأعمال توبة، حتى إن روجر قام باعتراف خاص وحده أمام البطريرك قبل ساحة معركة الدم، وفيه عدد ذنوبه "وصب أمام المذبح من أجل جميع الذنوب التي اقترفها ضد الرب عن طريق الرؤية أو السمع أو التذوق أو الشم أو اللمس"[٦١] وبهذا جرى عرض صورة روجر على أنه رفض "متع الجسد في الماضي والحاضر والمستقبل"، وبالتالي يكون روجر قد مات وهو رجل تائب منيب في رواية وولتر، وكذلك عند وليم الصوري"[٦٢]،بينما ظل مذنباً غير تائب، لذا تم تدميره من قبل الرب، عند فولتشر أوف تشارتزر"[٦٣]. هذا بالنسبة لتهمة الزنا وغيرها من الذنوب الأخرى، أما بالنسبة إلى تهمة اغتصاب الحكم من بوهيموند الثاني، فلا نجد عند وولتر أية مناقشات أو محاولات لتسويغ وضع روجر في الحكم، أي أن وولتر نظر إلى روجر على أنه كان أميراً شرعياً لإنطاكية طوال حياته. وفي الحقيقة تثار عدة أسئلة، حول رواية وولتر عن المؤتمر الذي عقد في إنطاكية، بعد معركة ساحة الدم، والذي استهدف إيجاد حل لمعضلة الخلافة التي نجمت عن وفاة روجر، وفي أثناء هذا الاجتماع في المجلس الكنسي للقديس بطرس، "تقرر أن على الملك (بلدوين الثاني) تسليم حكم إمارة إنطاكية إلى ابن بوهيموند، ذلك أن الإمارة

كانت ميراثه الشرعي، وأن يعطيه أيضاً ابنته، إذا ما جاء وتزوجها، وتولى حماية أراضي الإمارة"[٦٤]، وهذا معناه أن وولتر اعترف بادعاء كل من روجر وبوهيموند الثاني بالإمارة، وهناك سلسلة من البينات التي تظهر أن روجر عدّ نفسه أمير إنطاكية بموجب حقه الذاتي، فقد أصدر صكاً ثانياً عام ٥١٢هـ /١١١٨م، ومجدداً سمّى نفسه (روجر بنعمة الرب أمير إنطاكية)[٦٦]. كما أنه أصدر نقوداً نحاسية إنطاكية، كتب عليها عبارة (الأمير روجر)، ومع أنه من غير الممكن تحديد تاريخ هذه النقود بدقة، ولكن تلك الإصدارات تقدم دليلاً إضافياً على أن روجر اعتاد على استخدام لقب أمير. ولعله من المفيد أن نذكر هنا أنه في أثناء الخلاف حول الوضع اللاهوتي لمنطقة صور، اعترف البابا باسكال الثاني بمركز روجر ورتبته حيث وصفه بمرتبة أمير إنطاكية، ومن الممكن أن روجر عُومل أثناء حياته بمنزلة أمير شرعي لإنطاكية، لكن موته المبكر عام ٥١٣هـ /١١١٩م، قبيل ذهابه إلى المعركة التي قتل فيها (ساحة الدم) عيّن فيها بوهيموند ولياً لعهده.

ومن الممكن أن التهمة التي أثارها فولتشر تشارتزر، وقد عملت بعد عام ٥١٤هـ /١١٢٠م، من أجل المطابقة مع الادعاءات التي راجت آنذاك لتأييد حقوق الورثة لبوهيموند، وهنا لعل فولتشر أدرك أنه من الحكمة تصوير روجر على أنه مغتصب، وأن بوهيموند كان هو الأمير الشرعي لإنطاكية[٦٧]، وفي الحقيقة ليست هناك بينات كافية للوصول إلى أية محصلة قوية حول وضع روجر، فوليم الصوري عده فقط نائباً للأمير الشرعي، ومن الممكن أن روجر عدّ نفسه أميراً شرعياً إنطاكية، وأنه قد قبل بمرتبة أمير أثناء حياته، ومن الممكن أيضاً ادعاء بوهيموند الثاني قد جرت مساندته فقط، عندما احتاجت الأجزاء الجديدة في الإمارة لذلك، ولو تركنا صفات روجر الخاصة والشخصية جانباً، ونظرنا إليه من خلال أعماله التي أنجزها أثناء حكمه إنطاكية، لأمكننا القول: إن إنطاكية في عهده أصبحت إمارة قوية عظيمة، ذات امتداد واسع، ولاسيما بعد استيلائه على قلعة المرقب عام ٥١١هـ / ١١١٧-

١١١٨م، وبذلك أصلح الحد الجنوبي لإنطاكية في الوقت نفسه الذي كان يعمل فيه في محيط حلب، وبذا لم ينته عام ٥١٢هـ / ١١١٨م، حتى تم التوازن بين سائر القوى في شمال الشام، وأضحى الفرنج يؤلفون شطراً معترفاً به في إطار هذا الإقليم، ومع أنهم لم يؤلفوا حتى وقتذاك عدداً كبيراً من السكان، لكنهم تجهزوا بالسلاح، وأخذوا يشيدون الاستحكامات، وتعلموا كيف يهيئون أنفسهم للحياة المحلية، يضاف إلى ذلك أنهم أضحوا متحدين وعدّ روجر أمير إنطاكية أعظم الأمراء الصليبيين في الشمال دون منازع، ولم يعترض على سيادته لبلدوين، كونت الرها، وبونز، كونت طرابلس، لأن روجر لم يحاول أن يجعل نفسه سيداً عليهما، بل لم يختلف عنهما في الاعتراف بسيادة ملك بيت المقدس، وعلى الرغم من أن الأمراء المسلمين كان يفوقونهم في القوة العددية، لكنهم سادت بسينهم الفرقة والحقد، ولم يمنع شيوع الفوضى إلا ما جرى من التحالف بين طغتكين وإيلغازي، وبذلك رجحت كفة الفرنج قليلاً على كفة المسلمين، ولم يكن ثمة قوة خارجية تستطيع أن تقلب وضع هذا التوازن، فلم يكن بوسع بلدوين ملك بيت المقدس أن يتدخل دائماً في أمر الشمال، نظراً لما تتعرض له مؤخرته من تهديد الفاطميين، أما سلطان السلاجقة بإيران، فإنه امتنع عن القيام بمحاولات جديدة لفرض سلطته في الشام، بعد كارثة تل دانيث الأولى، على حين أن الدولتين الرئيستين في آسية الصغرى، وهما الدولة البيزنطية، ودولة سلاجقة الروم، تم في ذلك الوقت شيء من التوازن بينهما(٦٨).

الجيوش والمطامح:

لما ضاق الخناق على مدينة حلب، وحوصرت من معظم جهاتها، لم يعد أمام إيلغازي سوى حشد الجيوش وإعلان الحرب على الصليبيين، وهكذا "سار إيلغازي إلى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها إلى حلب، وسارت الرسل إلى ملوك الشرق والتركمان يستنجدونهم"(٦٩)، ففي ربيع عام ٥١٣هـ/١١١٩م، طاف إيلغازي بأملاكه، يحشد عسكره من التركمان، ويتجهز لاستقبال ما يقدم عليه من الكتائب المؤلفة من الكرد

النازلين بالشمال، ومن القبائل العربية الضاربة في بادية الشام "وتوجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك، وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والتركمان فجمعا خلقاً عظمياً"[٧٠]، ورأى إيلغازي من الناحية الشكلية، أن يطلب المساعدة من السلطان محمود، غير أنه لم يتلقَ رداً على طلبه، وعلى أن حليفه طغتكين وافق على أن يقدم عليه من دمشق، أما بنو منقذ أمراء شيزر، فقد وعدوا إيلغازي بأن يحملوا روجر أمير إنطاكية على الانصراف إلى جهة أخرى بأن يزمعوا مهاجمة الأطراف الجنوبية لممتلكاته[٧١]، وقد انضم إلى إيلغازي بعض الأمراء مثل (أسامة بن المبارك ابن شبل الكلابي، والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن)[٧٢]، وأضاف وليم الصوري إلى هؤلاء الأمير المعروف دبس بن صدقة، فقد ذكر "في ذلك العام نفسه ٥١٣هـ / ١١١٩م، اجتاح الأمير الكافر والقوي غازي (إيلغازي) الريف الواقع حول إنطاكية وخيم مع حشد ضخم من أتباعه بالقرب من مدينة حلب، وكان معه طغتكين ملك دمشق ودبيس وهو حاكم عربي قوي جداً، وكان قد انضم بجيشه إلى قواتهم الكثيرة"[٧٣]، لقد اختلف المؤرخون حول تعداد جيش إيلغازي، فعند ابن الأثير: (اجتمع نحو عشرين ألفاً)[٧٤]، وعند ابن العديم: (وتوجه إيلغازي في عسكر يزيد على أربعين ألفاً)[٧٥]، أما المؤرخ الأرمني متى الرهاوي فقد ضاعف الرقم بحيث وصل إلى ثمانين ألفاً، حيث قال: (حشد الأمير إيلغازي جيشاً كبيراً جداً، .... وزحف ضد روجر كونت إنطاكية على رأس جيش عملاق، ووصل أمام الفرنجة مع ثمانين ألف رجل)[٧٦]، أما الرقم القياسي الذي انفرد به وولتر المستشار إذا وصلت عنده أعداد جيش إلغازي إلى مائة ألف، بقوله: (وعلى الفور قاموا جميعاً المائة ألف رجل مقاتل الذين أُحصوا، بمهاجمة رجالنا بحدة عظيمة)[٧٧]، ومن الطبيعي أن يبالغ المؤرخون اللاتين في تضخيم أعداد جيش المسلمين، كي يسوّغوا هزيمتهم المنكرة أمامهم، إذ كانوا بأعداد قليلة فيخف اللوم عليهم أما نحن فيمكننا أن نأخذ بتقديرات ابن العديم لأنّه ابن حلب، وقد حرص على تدوين أخبارها بدقة وصدق، ولأن أرقامه معقولة فهي ليست قليلة

ولا مبالغاً فيها كما حصل عند متى الرهاوي، وولتر المستشار، كما أن المراجع الحديثة تبينت ما كتبه ابن العديم حول الطاقة البشرية وأعداد جيش ايلغازي.

وهكذا حشد إيلغازي جيوشه بالقرب من مدينة حلب، ثم زحف باتجاه الأراضي الحدودية لممتلكات الإنطاكيين، وبينما كان بنو منقذ يغيرون على أفامية (كما اتفقوا مع إيلغازي) أنفذ إيلغازي فصائل من عساكر التركمان، صوب الجنوب الغربي لتنحاز إلى جيش بني منقذ، والجيش القادم من دمشق، وقام إيلغازي على رأس جيشه الأساسي بالإغارة على بلاد الرها، غير أنه لم يحاول مهاجمة عاصمتها المنيعة،فعبر نهر الفرات عند بالس، ومضى في سيره حتى أقام معسكره في قنسرين (التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب منتظراً وصول طغتكين)[٧٨]، أما روجر أمير إنطاكية، فكيف كانت استعداداته للحرب؟ نتابع أخباره عند المؤرخين اللاتين، ونبدأ مع متى الرهاوي أولاً بقوله: "ولما كان روجر كونت إنطاكية رجلاً أرعنَ ومتجبراً ولديه ثقة كاملة بقوته، أهمل اتخاذ أية احتياطات من أجل الدفاع، متذكراً كثرة قومه وعظمتهم، وعلاوة على ذلك كان مستخفاً بالقوات التركية، ولذلك قام كونت إنطاكية من اتخاذ أية إجراءات احتياطية، ومن دون حشد ما يكفي عدداً من العساكر من حوله، لا بل حتى من دون أن يدعو الفرنجة الآخرين إلى مساعدته، قام بالذهاب بلا مبالاة إلى القتال ضد الأتراك مع ستمائة فارس فرنجي فقط، وكان مع روجر تحت قيادته خمسمائة فارس أرمني، وأربعمائة من الرجالة، وحشد من عامة الناس وسوادهم فيه نحو عشرة آلاف رجل جرى تجنيدهم بسرعة"[٧٩]. لقد استخف روجر بأمر المسلمين، لولا أن حثّه برنارد دي فالنس بطريرك إنطاكية على طلب النجدة العاجلة من ملك بيت المقدس ومن كونتية طرابلس، وسبب استخفاف روجر هو انتصاره قبل بضعة أعوام على حملة السلطان السلجوقي بقيادة برسق عام ٥٠٩هـ /١١١٥م، حيث تمكن من هزيمتها دون مساعدة ملك بيت المقدس أو أمير طرابلس، وهذا ما أعطاه الثقة بالنفس والشعور بعدم الحاجة إلى طلب مساعدة الآخرين، لولا أن أقنعه رجاله

والبطريرك بذلك. أما وليم الصوري فقد عبّر عن استعدادات روجر كلّها، دون أن يشرح التفاصيل فقال: إن روجر "أرسل رسالة إعلام بالمخاطر التي هددته إلى الحكام المجاورين له مثل جوسلين كونت الرها، وبونز كونت طرابلس، ولى الملك نفسه، وناشدهم بإلحاح بالغ ألا يتأخروا في القدوم لمساعدته في هذا الأمر الطارئ الملح"[٨٠]، وتابع وليم الصوري ما جرى بعد ذلك "وحشد الملك مباشرة جميع الجنود الذين استطاع أن يستدعيهم من مملكته بدعوة مفاجئة، وتقدم بالسير على تعبئة إلى طرابلس، ووجد هنالك أن الكونت مستعد أيضاً للانطلاق، فضما قواتهما وواصلا بقية الزحف معاً"[٨١]، وكان من عادة ملك بيت المقدس أن يحصّن جيشه بقطعة من صليب الصلبوت، وهذا ما فعله في حملته تلك، وقبل أن ينطلق الملك كان قد أرسل من طبرية رسولاً يخطر روجر، بأن سوف يسرع بالقدوم إليه، وسوف يصحب معه قوات طرابلس، وبذلك تحتم على روجر أن يلتزم بخطة الدفاع، أو ينتظر وصول الملك، وألا يتصرف وحده، ولكن روجر استبطأ وصول الملك، ولم يعد في وسعه الانتظار أكثر، وبحسب ما جاء عند وليم الصوري: "في هذه قد الأثناء، استشاط الأمير غضباً بسبب التأخير، كما حدث لجميع المخلوقات البشرية، وكان قد غادر إنطاكية، جاهلاً تماماً بما يخفيه المستقبل، وخيم أمام قلعة أرتاح، وكان هذا الموقع معداً بشكل دائم لدعم أي جيش، حيث توافرت سبل سهلة ومفتوحة من البلاد إلى الجيش الذي عسكر هناك..."[٨٢]. وقد بقي روجر في هذا المكان بضعة أيام منتظراً وصول الملك والكونت "ثم أمر الجيش أن يتقدم على الرغم من ممانعة البطريرك الذي كان قد تبعه إلى هناك، ومعارضة بعض مقدميه أيضاً، وأعلن بعناد أنه لن ينتظر أكثر من ذلك، وحثه بعض نبلاء ذلك الإقليم على اتخاذ هذا المنحى، ليس لأنهم رغبوا في أن يحسنوا وضع الجيش، بل لأن وجوده قد يحمي أراضيهم التي وقعت بالقرب من مخيم العدو، واتبع الأمير نصيحتهم، وترك الموقع الذي كان قد خيم فيه أولاً، واندفع بنفسه وبجيشه إلى الهلاك مباشرة، وأمر أن يقام المعسكر في موقع يدعى حقل الدم، ولدى إحصاء

عدد أفراد الجيش هناك، وجد أنه كان لديه سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين، بالإضافة إلى ذلك وجد تجاراً كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة بسلعهم"(٨٣)، لقد تباينت الأرقام عند كل من متى الرهاوي ووليم الصوري وجاء عند أوردريك فيتالي :"لكن الأمير الأرعن رفضهم جميعاً، وانطلق وعلى سهول سرمدا أقام معسكره مع سبعة آلاف رجل"*. أما المعلومات الدقيقة حول كل ذلك، فوجدت بالطبع عند وولتر المستشار الذي زودنا بتقديرات أكثر تفصيلاً حول الطاقة البشرية، حيث ذكر بأنه كان هناك: "سبعمائة من الفرسان المحترمين وثلاثة آلاف من العساكر الرجالة (وولتر / ص ٣٠٧) بالإضافة إلى عدد كبير من المرتزقة. وهكذا نجد أن وليم الصوري قد أخذ بتقديرات وولتر نفسها حول الطاقة البشرية. ومفيد هنا أن نذكر أن مؤرخ دمشق ابن القلانسي وجدت لديه معلومات حول تعداد جيش روجر، فقال: "ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب إنطاكية منها، في من جمعه، وحشده من طوائف الإفرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم وأطرافهم، بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل، سوى الأتباع، وهم العدد الكثير في أتم عدة، وأكمل شكة"(٨٤)، أما ابن الأثير فكان معتدلاً أكثر من ابن القلانسي حيث تحدث عن وجود ثلاثة آلاف فارس لاتيني، وتسعة آلاف من الرجالة(٨٥)، وهكذا تباينت الأرقام التي تحدثت عن جيش روجر سواء عند المؤرخين اللاتين أم عند المؤرخين المسلمين ولذلك يمكننا أن نأخذ كحلّ وسط الأرقام التي ذكرها وولتر ووليم الصوري وذلك على اعتبار أن وولتر هو مؤرخ إنطاكية الأساسي، وإن وليم الصوري نقل عنه الكثير من الأخبار. كما أن وولتر كان شاهد عيان، وصاحب مصدر عاصر الأحداث. ولكن مع ذلك كنا نتوقع أن تكون عند وولتر صورة واضحة حول الطاقة البشرية التي توافرت داخل الإمارة، ومع أن تقديراته غالباً ما جرى تكرارها من قبل المصادر الأخرى لم يكن وولتر متميزاً بين الكتّاب، مثل فولتشر أوف تشارترز في ذكره الأرقام الصحيحة حيث قال فولتشر حول عدد ضحايا معركة ساحة الدم من الإنطاكيين: "خرج روجر

مع قادته ورجاله ليحارب الأتراك، فقتل في أحواز بلدة ارتاح، وقتل معه سبعة آلاف من رجال إنطاكية، ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين رجلاً"(٨٦)، كما أن تقديرات ولتر للطاقة البشرية لدى المسلمين، ليست مقنعة، وذلك بالمقارنة مع الكتاب المسلمين الذين غالباً ما كانوا قادرين على تقديم أرقاماً معقولة إلى حد ما، حول تعداد اللاتين. ولكن من جهة أخرى أظهر وولتر (على خلاف الكثير من الكتاب المعاصرين له) اهتماماً كبيراً بالممارسات العسكرية، وبالتقنيات، وبأدوات أعداء الإمارة وآلاتهم، وبيّن أن الجواسيس المسلمين تخفّوا على شكل باعة طيور، وكانوا قادرين على مراقبة معسكر الإنطاكيين في ساحة الدم، وكان مدركاً بأن الجيوش الإسلامية غالباً ما استخدمت أسلحة الرماية لإنهاك أعدائها، وتحدث عن استخدام القسي والنشاب والحراب عام ٥٠٩هـ /١١١٥م، ثم في عام ٥١٣هـ /١١١٩م، وصف كيف حاول المسلمون استخدام وسائل التراجع المخادعة لجذب اللاتين وإخراجهم من صفوفهم أثناء المناوشات عند الأثارب عام ٥١٣هـ / ١١١٩م، وأوضح من خلال ملاحظة مدهشة وجانبية أنه في الوقت الذي اعتقد فيه بعضهم بأن هذه الممارسات هي غير شرعية، عدّها آخرون أنها (نتيجة عبقرية مبدعة) وكشف عن أنه شخصياً كان معجباً بهذه التقنيات، وأوضح في مكان آخر ووصف المسلمين بأنهم (رجال براعة ودهاء) كما قدم بعض الملاحظات المهمة التي وصف فيها طرائف المسلمين في الحصار، وتحدث عن الصعوبات التي تعلقت بأعمال حصار زردنا، ووصف العساكر الإسلامية وقد أرسلت على شكل وحدات لجمع المؤن والأعلاف، ثم انقضوا على المنطقة مثل "قطعان... من الذئاب المفترسة"(٨٧)، وذكر مناسبتين لاستخدام أدوات القصف، وآلات الحصار التي استخدمت، إما وسائل القتل أو التوازن من أجل رمي الحجارة كما قدم تفاصيل ليست واضحة تمام الوضوح لأوصاف التقنيات التي استخدمت في لغم الأسوار"(٨٨)، وذلك خلال حصار الأثارب عام ٥١٣هـ /١١١٩م، وهكذا حشد الطرفان الجيوش وتمركزا في مواقعهما استعداداً لبدء الحرب وكل منهما كان يدافع

عن أملاكه وعن وجوده، فحلب، واعزاز، وبزاعا، وغيرها من المناطق القريبة من حلب، التي استولى عليها الصليبيون، وكان لا بدّ من إعادتها إلى حظيرة إمارة حلب التي أصبحت تابعة لإيلغازي، ولهذا اشتدّت رغبته في القضاء على الإمارات اللاتينية، وحتى ليتمكّن من بسط نفوذه كاملاً على حلب، بالإضافة إلى أملاكه الأخرى في الشمال. أما اللاتين فقد زاد قلقهم وخوفهم من حسد جيوش إيلغازي، لأنه هدّد أمنهم واستقرارهم، بل هدّد وجودهم كلّه على أرض الشام، كما أنه سوف يحرمهم من دخل كبير، ذلك أن الصليبيين في إنطاكية، فرضوا جزية على جيرانهم المسلمين في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الإمارات اللاتينية، وقد أظهرت المصادر الإسلامية أنه منذ نحو عام ٥٠٥هـ / ١١١١م، فصاعداً شرعت حلب، وشيزر، بدفع جزية مقررة إلى إمارة إنطاكية، وهو ترتيب لم يزد فقط من ثروة إنطاكية، بل ضاعف نفوذها السياسي في شمال سورية، وهكذا وجدت لدى كل من الطرفين دوافعه القوية لدخول المعركة والاستماتة في سبيل تحقيق النصر على الطرف الآخر.

المعركة:

نبقى مع وولتر المستشار في تفصيلات أحداث المعركة، لأنّه كان شاهد عيان لها، فقد رافق وولترالأمير روجر الإنطاكي منذ خروجه من إنطاكية على رأس جيشه استعداداً لملاقاة إيلغازي، وقد عسكر روجر في موقع ارتاح حيث كانت "بسائط الأراضي وافرة الخيرات وصحية بالنسبة للطعام والشراب"[٨٩]، كما أنه وجد فيها ممرات آمنة للصليبيين وخطرة بالوقت نفسه على المسلمين "حيث إن الموقع والوصول إليه كان جبلياً ممتزجاً بوديان كثيفة النباتات، وهناك جروف شديدة الانحدار"[٩٠]، وكان من المفروض أن يعسكر الجيش الإنطاكي هناك منتظراً وصول ملك بيت المقدس، وكونت طرابلس على رأس قواتهم، حتى إنه كان من المفترض أن يكون موقع ارتاح هو مكان ساحة المعركة، ولكن روجر استشاط غضباً بسبب تأخر وصول الملك، ولم يعد بوسعه الانتظار، وقد عبّر وولتر بألم عن تصرف روجر بقوله: "ولكن الأمير في

ذلك الوقت، واويلاه، غامر حيث توجب عليه عدم المغامرة، وتجرأ على ما كان ينبغي عدم عمله، ووصل الأمر إلى حد أهمل فيه سلامته ورجاله، ولم يعبأ بتحذيرات أبيه الكهنوتي (البطريرك) وآثر عليها طيشه وتهوره... كما لم يكن من الممكن بأية طريقة من طرق السيطرة عليه"[٩١]، وعندما قام البارونات الذين كانت بلادهم على تخوم البلاد الإسلامية وكانوا معرضين لاجتياح المسلمين لأراضيهم كل عام، بنصيحة روجر على التحرك "دعا إليه رجال بلاطه، وهؤلاء البارونات، وكان مسروراً بعقله الذي لم يقبل النصيحة، وقرر أن يعبر مع الخيم من المكان الموائم، إلى موضع بلا فائدة"[٩٢]، وبعد ذلك قام روجر بإجراء اعتراف بذنوبه أمام البطريرك ورجال الدين، كما أمر روجر بكتابة جميع ممتلكاته، وليجري تقسيمها وتوزيعها تبعاً لوصيته، وذلك إذا مات في المعركة. وهكذا شق الصليبيون طريقهم ونصبوا خيمهم في موقع قرب البلاط يدعى حقل الدم أو ساحة الدم، وهناك "باتوا تحت الضغط يوماً بعد يوم بسبب نقص الأطعمة وانعدام الشراب الطبيعي (الماء) وهذا النقص لم يكن سببه إيلغازي والمسلمون وإنما طبيعة المنطقة الجافة هناك"[٩٣]، وبينما كان إيلغازي معسكراً بقنسرين، منتظراً وصول طغتكين وصلته الأخبار عن كل تحركات روجر، وذلك عن طريق الكشافة والمخبرين الذين نشرهم إيلغازي في كل مكان هناك مما أزعج اللاتين ومؤرخهم وولتر بقوله: "وقد نشر العدو جواسيسه حولنا على شكل باعة طيور وكانت مهمتهم التعرف إلى كيفية أوضاعنا، وعندما عادوا وحدثوا بأخبارهم إيلغازي وأعيان رجاله، قاموا بإعادة تعبئة صفوفهم وتظاهروا بأنهم قادمون لمحاصرة الأثارب"[٩٤]، وهكذا اكتملت لإيلغازي الأخبار عن جيش روجر، وعلم ضعفه من الناحية العددية، ومع أن إيلغازي أراد أن ينتظر قدوم طغتكين، ولكن الأمراء التركمان شجعوه على القيام بالهجوم، فتحرك لمهاجمة قلعة الأثارب التي كانت بحوزة الفرنج، وعدّ وليم الصوري عملهم هذا مناورة عسكرية ناجحة، إذ قال: "عندما لاحظ لعدو (المسلمون) أن الأمير (روجر) كان قد أقام معسكره بالقرب منهم، أزالوا معسكرهم وتظاهروا أنهم

يقودون قواتهم ضد قلعة الأثارب، واعتقدوا أنه يمكن تحقيق خطتهم الحقيقية بسهولة أكثر بهذه المناورة، ووصلوا إلى غايتهم وخيموا بالقرب منها حيث فات الأوان لإنجاز إي شيء في تلك الليلة"(٩٥)، وأكد ابن العديم كلام وليم بقوله: "وسار المسلمون جرايد، وخلفوا الخيام بقنسرين، فباتوا قريباً من الفرنج، وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زردنا، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت، وأحاطوا بهم من كل جانب"(٩٦). وكان روجر لما رأى أن المسلمين ينوون حصار الأثارب، وقد أرسل لمساعدتها بعض رجاله بقيادة روبرت فييه بون، كما أنه اغتنم فرصة حلول الظلام، وابتعاد المسلمين، وأرسل إلى قلعة ارتاح كل ما للجيش من أموال "وقد تقرر إبعاد الآنية الثمينة والسلع الثقيلة ونقلها أثناء الليل إلى برج ارتاح" (٩٧)، وظل روجر طوال الليل يترقب بشغف أنباء تحركات المسلمين، وفي الصباح أرسل الكشافة وعددهم أربعون فارساً لكشف المنطقة وللتعرف عما إذا كان المسلمون قد اعتزموا مهاجمة قلعة الأثارب حالاً، أو أنهم سيسرعون إلى معسكر روجر للاشتباك معه، وعندها أنهت الكشافة إليه أن المسلمين كانوا يقتربون بسرعة من معسكره، وكان زحفهم على شكل ثلاث فرق كبيرة "قوام كل منها عشرون ألف مقاتل"(٩٨)، وإنه قد تم تطويق معسكر الفرنج، وأعلنوا بثبات "أن هناك صفوفاً لا تحصى متميزة بكل من إعلامها، ومن الشارات الأخرى المعروضة، وهي كلها تسير وراء الصف الأول وتتبعه(٩٩)، وعندها "استدعى روجر المارشال والمنادي، وأمر على الفور، الجيش كله بالاستعداد للمعركة"(١٠٠)، وقام باستعراض صفوفه القتالية صفاً صفاً، ووجه خطبة لرجاله شجعهم فيها على القتال بحماس، وبعد ذلك "تعبد مثال الصليب المقدس، وقبله باحترام فائق، ثم رفعت الصفوف أعلامها صفاً إثر صف، وانطلقت وفق الترتيب المعين لها مع أصوات الأبواق والمزامير والنفير..."(١٠١)، وتابع وولتر وصف جيش روجر في أثناء المعركة بقوله: "وهكذا تولى الصف المحارب للقديس بطرس القيادة من على

اليمين، فقد كان امتيازه القيام من الزحف أولاً، وأن يكون أول من يوجه الضربات للعدو وقد أعطى رجال هذا الصف خيالهم حرية الانطلاق، وشهروا رماحهم وقد أسرعوا لضرب الكتيبة التي كانت على طريقهم بقوة وعنف، وقد مزقوها تماماً، وألقوا أرضاً بعدد كبير من المسلمين، وعندما شاهد هذا الراهب غريغوري الذي كان برفقته صف متميز من المقاتلين، انطلق وهاجم كتيبة من كتائب المسلمين، وكان قد تجمع فيها ما لا يقل عن عشرة آلاف جندي، وجاء هجومه بطريقة تمكن فيها تقريباً من إرغام الكتيبة عل الفرار وهزيمتها، ومثل ذلك فعل الصف المحارب للقائد غي فرزنيل، حيث قام بالانقضاض على المسلمين بكل قوته وقدرته"[١٠٢]، حتى تلك اللحظة كان النصر يلوح للصليبيين، ولكن فجأة تغيرت الأمور، فقد أخفق الإنطاكيون في المتابعة بقوة، بحسب ما كان ضرورياً، وقد عانى كثيرون ممن كانوا في الصف الأول ومن الصف الآخر من الدمار، لأن المسلمين تمكنوا من إعادة حشد قواتهم، ولم يكونوا خائفين من مهاجمة الصليبيين "فانقضوا عليهم ثانية بالرماح والحراب والسهام التي كانت رؤوسها مصنوعة من الرصاص والحديد"[١٠٣]، وفي الوقت نفسه لم تزحف كتيبة روبرت آوف سنيت مع التوركبلية[١٠٤]، من جهة اليسار، حيث كان من المتوجب أن يقوم رجاله بالضرب، لكنهم كانوا غير قادرين على التصدي لمصيرهم والوقوف ضده "حيث كان التوركبلية أول من قام بالفرار، وسبقوا مردودين وانحرف هجومهم جانباً، تلاحقهم صرخات المسلمين، فصاروا على طريق زحف الصف القتالي للأمير، والذي كان مندفعاً بكامل قوته وقدرته، ولم يكن من الممكن إرجاع التوركبلية وإيقافهم عن استمرار الفرار، وإيقاف خيولهم ولا بالمقاود، ولا بوساطة الألجمة، ولا بوساطة الحبال، ولا بأي وسيلة للحفظ والذي كان هو الأسوأ أيضاً أنهم أخذوا معهم بعضاً من كتيبة الأمير أثناء تفرقهم"[١٠٥]، ومن سوء حظ الصليبيين أن هبّت زوبعة من الشمال وأوقفت جميع الذين شاهدوها "وجعلتهم يتشبثون بالأرض بثبات في وسط المعركة وأخذوا يزحفون على ركبهم فوق الأرض"[١٠٦]، وتابع وولتر

ما حدث بقوله: "ومع ذلك حافظ الأمير على صراعه بجنان ثابت، مع أن رجاله تمددوا على الأرض ممزقين وموتى من كل جانب"، وبعد ذلك أصيب روجر "بضربة سيف في منتصف أنفه مضت إلى داخل الرأس"[١٠٧]، وخرّ صريعاً وهو يقاتل، عند قاعدة صليبه الضخم المحلى بالجواهر والذهب[١٠٨]، وهكذا قتل روجر في أرض المعركة، ومن حوله هلك فرسانه، ولم ينجُ منهم إلا عدد قليل ووقع عدد كبير منهم في الأسر وكان ممن نجا روبرت فييه فون، الذي كان روجر قد أرسله لمساعدة حصن الأثارب ضد إيلغازي فقد عاد روبرت من الأثارب إلى أرض المعركة متأخراً فانحاز إليه جماعة من الفرسان وفروا إلى إنطاكية دون أن يشتركوا بالقتال، قد حدث بعد فترة قصيرة أن فرّ القائد رينالد المازيور في طائفة من الفرسان، ووصلوا إلى سرمداء، وهكذا لم ينجُ من جيش إنطاكية من القتل، غير هؤلاء..."[١٠٩] وقد وصف ابن العديم أوضاع الطرفين خلال المعركة بقوله: "وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقُوهم فيها، وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام، وأخذوهم بأسرهم أسرى، وقتل سرجال في الحرب، وفقد من المسلمين عشرون نفراً... وسلم من الفرنج نحو عشرين نفراً لا غير"[١١٠]، كما أن ابن القلانسي قدم لنا صورة حية عن حال الفرنج في أرض المعركة بقوله: "ولقد حكى جماعة من المشاهدين لهذه الوقعة، أنهم طافوا في مكان هذه المعركة، لينظروا آية الله تعالى الباهرة، وأنهم شهدوا بعض الخيول مصرعة كالقنافذ من كثرة النشاب الواقع فيها، وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح، والنصر الممنوح، لم يحقق مثله الإسلام، في سالف الأعوام، ولا الآنف من الأيام، وبقيت إنطاكية شاغرة خالية من حماتها ورجالها، خاوية من كماتها، وأبطالها، فريسة الواثب، نهزه الطالب، فوقع التغافل عنها، لغيبة ظهير الدين أتابك عن هذه الوقعة..."[١١١]. وبعد انتهاء المعركة "تفرقت عساكر المسلمين في بلد إنطاكية والسويدية وغيرهما يقتلون يأسرون وينهبون، وكانت البلاد

مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة، فأخذ المسلمون من السبي والغنائم والدواب ما يفوت الإحصاء، ولم يبقَ أحد من الترك إلا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي"[١١٢].

وظل المسلمون الحديث، التي لا تبعد عن موضع المعركة إلا خمسة عشر ميلاً، يتلهفون لسماع الأنباء، نحو الظهر ترددت شائعة أن النصر الكبير أضحى في جانب المسلمين وعند العصر أخذت طلائع الجند المظفرين تقترب من حلب، أما إيلغازي، فلم يمكث بساحة المعركة إلا ريثما يوزع الغنيمة على رجاله ثم سار إلى سرمدا، حيث استسلم له رينالد المازيور"[١١٣]، فأبقى إيلغازي على حياته، بينما أمر بقتل رفاقه، وجرى تكبيل الأسرى بالأغلال، وجرهم في عرض السهل خلف المنتصرين، وبينما كان الحديث يدور بين إيلغازي ورينالد، أخذ التركمان ينكلون بالأسرى، ويجهزون عليهم بين الكروم[١١٤]، حتى منعهم إيلغازي، رغبة منه في ألا يضيع هذه الفرصة على أهل حلب، التي استغاثت به كثيراً لإنقاذها من شر هؤلاء الإنطاكيين، ومن تبقى من الأسرى، أمر بحملهم إلى حلب، حيث دخلها في موكب ظافر، عند غروب الشمس، وفي شوارع حلب حل بهؤلاء من التعذيب ما أودى بحياة معظمهم"[١١٥].

وكان مما مدح به إيلغازي في هذه الوقعة قول العظيمي:

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل[١١٦]

وكان العظيمي قد عمل قصيدة لإيلغازي قبل أن يلقى الفرنج، وقصده منها أن يشجعه على قتالهم، فجاءت نتيجة المعركة كما جاء في القصيدة:

ألا أبلغ طغاة الشرك إنك آخذ بثاراتنا منهم عليها فرايد
وأنهم لم ينجُ منهم مخبر بحيث أحاطتهم لديك المصايد[١١٧]

وبينما كان إيلغازي يحتفل في حلب بما أحرزه من انتصار، وصلت إلى إنطاكية الأنباء المروعة للمعركة، وتوقع الجميع أن التركمان سوف يبادرون بالقدوم لمهاجمة إنطاكية فلم يكن بها من العساكر من يتولى الدفاع عنها، وفي تلك الأثناء زحف إيلغازي على ارتاح، فسلمها له أسقف كان يتولى حراسة أحد الأبراج، مقابل السماح له بالتوجه إلى إنطاكية، غير أن رجلاً اسمه يوسف، والراجح أنه أرمني، كان موكولاً إليه أمر القلعة، التي حوت كنوز روجر وأمواله، أقنع ايلغازي بأنه يميل إلى المسلمين، غير أن ابنه كان رهينة بإنطاكية، وقد تأثر إيلغازي بروايته، وأبقى ارتاح بيدي يوسف بعد أن أخذ الأموال والجواهر واكتفى بأن أرسل أحد أمرائه ليقيم في المدينة على أنه ممثل له، وعاد إيلغازي من أرتاح إلى حلب"[١١٨].

النتائج:

لقد كان لنصر المسلمين في ساحة الدم، رد فعل قوي عند المسلمين والصليبيين جميعاً، فالموقعة في حقيقة أمرها قررت مصير حلب،، التي كان من الممكن سقوطها في أيدي الصليبيين. بعد الضعف الذي أصابها، لذلك جاءت فرحة المسلمين بالنصر عظيمة، فنظم شعراؤهم القصائد في مدح إيلغازي، وأرسل إليه الخليفة العباسي المسترشد بالله الخلع "وشكره على ما فعله من غزو الفرنج"[١١٩]. ولقبه نجم الدين[١٢٠]، والواقع أنه كان بإمكان إيلغازي أن يجني ثماراً كثيرة، ولاسيما أن الطريق أضحى مفتوحاً أمامه إلى إنطاكية، ولو أنه أسرع إلى إنطاكية آنذاك "لما امتنعت عليه"[١٢١]، على حدّ قول ابن العديم. أما بالنسبة إلى الصليبيين، فإن الكارثة التي حلت بهم كنت فادحة، ويكفي أن إمارة إنطاكية -وهي الباب الشمالي للأملاك الصليبية في بلاد الشام- صارت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش، في الوقت الذي أخذ فيه المسيحيون المحليون من سريان وأرمن وأرثوذكس، يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين وقد وصف ولتر حال إنطاكية بعد المعركة وصفاً بليغاً بقوله: "إن إنطاكية باتت الآن مجردة من الخدمات العسكرية، وقد فقدت الطاقة العسكرية العائدة

إلى السكان الفرنجة كلها تقريباً، وأخذت تهدد بفقدان المدينة، وبات من المتوقع وقوع كل اعتداء، وبحكم الضرورة، وقع كل شيء على عاتق رجال الدين، حيث حلوا محل العسكريين وبلغت الأمور حداً أنهم خافوا كثيراً من أن يتعرضوا للخديعة عن طريق الخيانة من قبل الأعداء في داخل المدينة (المسيحيين المحليين)[١٢٢]، وقام البطريرك برنارد فالنس وهو أعلى شخصية دينية، وبحكم ماضيه وتجربته، بتدبير أمور إنطاكية، فقد "كان يتصرف بحكمة تجاه كل الأمور... وأعلن أنه سوف سيتولى شخصياً ومعه رجال الدين المسؤولية الكاملة عن المدينة مع الاعتماد فقط على الفرنجة، وأصدر مرسوماً قضى أن الناس من مختلف الشعوب أينما كانوا في المدينة، باستثناء الفرنجة، عليهم البقاء غير مسلحين، وعليهم عدم الخروج من بيوتهم أثناء الليل من دون مصابيح، حتى لا يكونوا عرضة لاتهامهم أنهم متورطون في أية خيانة[١٢٣]، كما قام بشحن الأبراج، ومواقع الضعف في المدينة بالرهبان وبرجال الدين مع بعض العلمانيين، وعلاوة على ذلك لم يتوقف عن أعمال التفقد والزيارات أثناء الليل والنهار، مصحوباً برجال الدين المسلحين وبعض الفرسان. واستمر الوضع كذلك إلى حين وصول الملك بلدوين الثاني، الذي دخل إنطاكية فوجدها في حال يرثى له، بعد أن اجتاح الأتراك أراضيها، ودمروا ضواحيها، أخذ يعمل بسرعة لتنظيم أمورها، وإعادة الثقة إلى الأهالي، وإعداد العدة لصدّ المسلمين، وقد أوجز ابن العديم ما قام به بلدوين في إنطاكية بقوله: "وبادر بلدوين فدخل إنطاكية، وسلمت إليه أخته زوجة سرجال خزائنه وأمواله، وقبض على أموال القتلى ودورهم، وأخذها وزوج أخته نساء القتلى بمن بقي، وأثبت الخيل، وجمع حشداً واستولى على إنطاكية، ولو سبقه إيلغازي إلى إنطاكية لما امتنعت عليه"[١٢٤]. وقد اجتمع بلدوين الثاني بأعيان المدينة للتشاور في أمر حكومتهم المقبلة، لأن الأمير الشرعي لإنطاكية بوهيموند الثاني، والذي اعترف روجر بسيادته، كان صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره، وما زال يقيم مع أمه في إيطالية، وبذلك لم يبقَ ممثل للبيت النورماندي في الشرق،كما أن فرسان النورمان

هلكوا كلهم في ساحة المعركة، وهنا تقرر أن يتولى بلدوين حكومة إنطاكية، باعتباره زعيم الفرنج في الشرق، حتى يبلغ بوهيموند سن الرشد، وتقرر أيضاً أن يتزوج بوهيموند عندئذٍ من إحدى بنات الملك[١٢٥]. وبعد ذلك قام الملك بإعادة توزيع إقطاعات إمارة إنطاكية، التي خلت من الفرسان الباقين، أو من باقي فرسان جيشه، أو بمن قدم حديثاً من فرسان الغرب وهذا يقودنا إلى معالجة قضية تسترعي الانتباه، وهي العلاقة القوية التي ربطت بين إمارة إنطاكية ومملكة بيت المقدس، حيث يلاحظ أن مملكة بيت المقدس، كانت تتدخل بشؤون إمارة إنطاكية أكثر من تدخلها بشؤون الإمارات الأخرى. فمثلاً كانت رعاية ومساعدة مملكة القدس لإمارة إنطاكية واضحة أكثر منها لكونتية الرها، على الرغم من أن ملوك القدس جاؤوا من الرها (بلدوين الأول وبلدوين الثاني)، وكذلك كان اهتمام وتدخل مملكة القدس بشؤون إنطاكية أكثر منه في كونتية طرابلس، على الرغم من أن طرابلس أقرب مسافة إلى القدس من إنطاكية، كل ذلك على الرغم من الخلافات بين بطريركية القدس وبطريركية إنطاكية حول تابعية صور[١٢٦]، التي أسفرت عن تدخل البابا في الغرب لحل هذه المشكلة. والمهم في ذلك كله أن العلاقة ظلت متينة بين إنطاكية والقدس، على الرغم من كل تلك الأمور، ويمكن القول: إن علاقة المصاهرة التي ربطت بين البلدين كان لها دور كبير، وقد استمرت علاقة المصاهرة فيما بعد، حيث زوّج بلدوين الثاني ابنته من بوهيموند الثاني أمير إنطاكية، وإذا أضفنا إلى ذلك تبعية الإمارات اللاتينية إلى مملكة بيت المقدس بحسب القانون الإقطاعي الغربي، ولو أن تلك التبعية كانت شكلية (فقد عدّ كل أمير مستقلاً في إمارته) يمكن على ضوء ذلك أن نفسّر العلاقة القوية التي ربطت بين إنطاكية والقدس. أما أسامة بن منقذ، فقد ذكر سبباً آخر، حيث قال: "ذلك أن إنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج يقال به روجر، فمضى يحج إلى بيت المقدس، وصاحب بيت المقدس بلدوين الرويس (بلدوين الثاني) وهو رجل شيخ، وروجار شاب. فقال لبغدوين: اجعل بيني وبينك شرطاً إن مت قبلك كانت إنطاكية لك، وإن

مت قبلي كانت بيت المقدس لي) فتعاقدا وتواثقا على ذلك. وقدر الله تعالى أن نجم الدين إيلغازي بن أرتق رحمه الله، لقي روجار بدانيث... فقتله وقتل جميع عسكره، ولم يدخل إنطاكية منهم إلا دون العشرين رجلاً، وسار بغدوين إلى إنطاكية فتسلمها"[١٢٧]. وربما اقترح روجر ذلك الرأي لأنّ بلدوين الثاني ليس له ولد ذكر يخلفه في القدس، ولأنّ بناته صغيرات، هذا من جهة، ولأنّ روجر صهر بلدوين على أخته من جهة أخرى، فهو الأولى بوراثته، وبعد أن اطمأن بلدوين إلى إدارة البلاد، وترأس موكباً وهو حافي القدمين إلى الكاتدرائية، قاد جيشاً مؤلفاً من سبعمائة فارس وبضعة آلاف من الرجالة، وكان برفقته بونز أمير طرابلس، وتوجها لقتال المسلمين بزعامة إيلغازي وكان برفقته هذه المرة طغتكين، وتم اللقاء في موقع تل دانيث عام ٥١٣هـ /١١١٩م، وهي التي عرفت باسم معركة دانيث الثانية[١٢٨]، أو (معركة هاب)، والتي لم يحسم فيها النصر لأي من الجانبين إذ كلاهما ادعى النصر لنفسه، ولن ندخل في تفاصيل ذلك، فهذا موضوع يستحق أن يدرس دراسة قائمة بذاته في الأيام المقبلة إن شاء الله.

الخاتمة:

من ذلك كله يتبين لنا أن الصليبيين لم ينعموا بالأمن والاستقرار في بلادنا، فإذا كان عام ٥٠٩هـ/١١١٥م، الذي وقعت فيه معركة دانيث الأولى، هو عام ذروة القوة والتوسع في التاريخ الإنطاكي المبكر، بفضل انتصار روجر على حملة السلطان السلجوقي بقيادة برسق بن برسق، لكن سرعان ما جاء عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م، وهو العام الذي حدثت فيه الهزيمة المأسوية للصليبيين، وقتل فيها روجر الإنطاكي هذا، فكانت هذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها حاكم لاتيني للقتل في المعركة في سورية، وكان ذلك من دون شك أعظم انتكاسة عسكرية حقيقية، وقد تحقق النصر بفضل اجتماع الأمراء والحكام المسلمين تحت قيادة إيلغازي، وبذلك تم إنقاذ حلب التي استماتت الصليبيون من أجل احتلالها قبل معركة ساحة الدم وبعدها، ولكن حلب

نجت ونجت بنجاتها بلاد الشام كلها، ولو سقطت حلب بيد الصليبيين لأصبح الشرق لاتينياً، على حد قول المؤرخ توينبي.

لقد كانت معركة ساحة الدم انتصاراً ضخماً للمسلمين من الناحيتين المادية والمعنوية، ولو أن إيلغازي كان أكثر كفاية، وأشد حذراً، لأضحت إنطاكية في حوزته.

أما اللاتين فكانت خسارتهم بالغة الضخامة مادياً ومعنوياً، ولم يكن من اليسير تعويض من سقط في ساحة المعركة من الفرسان ومن الرجالة، غير أنه بلغ من إدراك هذا الدرس ووعيه، أن صار لزاماً على الفرنج في الشرق، أن يتعاونوا فيما بينهم دائماً، وأن يتصرفوا متحدين. فقد وحدت هذه الكارثة بين الإمارات اللاتينية في الشام.

الهوامش

(١) دخلت إنطاكية في حوزة السلاجقة المسلمين عام ٤٧٧هـ/١٠٨٥م، بزعامة سليمان بن قتلمش.

(٢) عن صلح ديفول انظر:

فولتشر أوف تشارترز: "**تاريخ الحملة إلى القدس**" من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، ص ٤٣٢. "**تاريخ متى الرهاوي**"، الموسوعة الشامية، ج٢، ص ٢٧٢.

عاشور: " **الحركة الصليبية**" مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ج١، ص ٣٩٨.

(٣) ابن العديم: "**زبدة الحلب**"، تحقيق د.سهيل زكار، طبعة دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٧، ج١، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٤) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٧.

(٥) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٧.

(٦) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٨.

(٧) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٨.

(٨) وولتر المستشار: "**حروب الإنطاكيين**" خلال الموسوعة الشامية، ج٤١، ص ٣٣٤.

فولتشر: **المصدر السالف**، ص ٤٤٨. ابن العديم، ص ٣٧٨.

وليم الصوري: "**الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**" ترجمة د. سهيل زكار طبعة دار الفكر، ط١، ١٩٩٠، ج١، ص ١٣٣ وما بعدها.

(٩) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٩.

أسامة بن منقذ: "**الاعتبار**"، تحرير فيليب حتي، طبعة برنستون، ١٩٣٠، ص٩٨-٩٩.

(١٠) ابن الأثير: "**الكامل في التاريخ**" طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ص٣٤٥.

(١١) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٥٥٥.

(١٢) جاء عند متى الرهاوي: "وكان الآن عندما دخل الأمير مودود دمشق، وقد عزم على التخلص من أمير المدينة طغتكين، وأن يستولي على المكان لنفسه، وحدث على كل حال أن جرى إخبار طغتكين بهذه الخطة الشريرة، وبناءً عليه أخرج أمير دمشق من السجن رجلاً كان فارسياً قد حكم عليه بالإعدام ووعد طغتكين هذا الرجل بالحرية وبمعاملة مشرفة إذا ما قتل مودوداً، وأعطاه نفسه خمسمائة دينار، والآن عندما ترك مودود المسجد حيث كان يصلي، وكان واقفاً في الرواق قرب العمود الأحمر، اقترب الفارس منه، وغرس فجأة ومن دون إنذار سكيناً في الطرف الأيسر للأمير، وبذلك قتل مودود الشرير، والوحش المفترس، وتعرض القاتل بدوره إلى القتل من دون رحمة في المكان نفسه". انظر متى الرهاوي: **المصدر السابق**، ص ٣٠٠ وانظر كذلك:

- فولتشر: ص ٤٤٨. **الكامل**: ج١٠، ص ٤٩٥.
- رنسيمان: "**تاريخ الحروب الصليبية**" ترجمة الباز العريني، ط١، ١٩٦٧، بيروت، ج١، ض ٢٠٥.

(١٣) وولتر المستشار: ص ٣٣٩. البيرت أوف أخن: الموسوعة الشامية، ج٤١، ص ٤٢٢.

(١٤) ابن العديم: ص ٣٧٩.

(١٥) ابن العديم: ص ٣٧٩.

(١٦) ابن منقذ: **المصدر نفسه**، ص ١١٧. البيرت أوف أخن: الموسوعة الشامية، ج٤١، ص ٤٢٠.

(١٧) وولتر: ص ٣٤٠. ابن منقذ، ص ١١٧. رنسيمان: ج٢، ص ٢١٣.

(١٨) ابن الأثير:" ، ج١٠، ص ٥١٠.

(١٩) ابن العديم: **المصدر نفسه**، ص ٣٨٠.

(٢٠) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ج١، ص ٥٥٧. عاشور: **الحركة**، ج١، ص ٤١٩.

(٢١) ابن العديم: ص ٣٨١. وانظر كذلك وليم الصوري: **المصدر السابق**، ج١، ص ٥٥٨. فولتشر: ص ٤٥١-٤٥٢.

(٢٢) عاشور: **الحركة**، ج١، ص ٤٢٠.

(٢٣) ابن العديم: ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢٤) ابن العديم: ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢٥) ابن العديم: ص ٣٨٤.

(٢٦) ابن العديم: ص ٣٨٤.

(٢٧) ابن العديم: ص ٣٨٤.

(٢٨) ابن العديم: ص ٣٨٤.

(٢٩) ابن العديم: ص ٣٨٥.

(٣٠) ابن العديم: ص ٣٨٥.

(٣١) ابن العديم: ص ٣٨٥.

(٣٢) ابن العديم: ص ٣٨٥.

(٣٣) ابن العديم: ص ٣٨٦.

(٣٤) ابن العديم: ص ٣٨٦.

(٣٥) ابن العديم: ص ٣٨٦.

(٣٦) ابن العديم: ص ٣٨٦.

(٣٧) ابن العديم: ص ٣٨٧.

(٣٨) ابن العديم: ص ٣٨٧.

(٣٩) ابن العديم: ص ٣٨٧.

(٤٠) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٣١١.

(٤١) ابن العديم: ص ٣٨٧-٣٨٨.

(٤٢) ابن العديم: ص ٣٨٨.

(٤٣) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٣١٢.

(٤٤) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٧.

(٤٥) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٧٩.

(٤٦) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٣١٢.

(٤٧) وولتر المستشار: **المصدر نفسه**، ص ٣٧٦.

(٤٨) وولتر المستشار: **المصدر نفسه**، ص ٤١٥.

(٤٩) وولتر المستشار: **المصدر نفسه**، ص ٤١١.

(٥٠) أسامة بن منقذ: **المصدر نفسه**، ص ١٥٣.

(٥١) وولتر: ص ٣٨٢.

(٥٢) وولتر: ص ٣٥٨.

(٥٣) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥١٤.

(٥٤) رنسيمان: **المرجع السابق**، ص ٢٣٥.

(٥٥) ابن منقذ: **الاعتبار**، ص ١٥٢.

* اروردريك فيتالي: الموسوعة الشامية، ج٤١، ص ٤٢٤.

(٥٦) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٤٦٣-٤٦٤.

(٥٧) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٢.

(٥٨) وولتر: **المصدر نفسه**، ص ٣١٣.

(٥٩) وولتر: ص ٣٦٠-٣٦١-٣٦٧....

(٦٠) وولتر: ص ٣٥٩.

(٦١) وولتر: ص ٣٦٨.

(٦٢) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٢.

(٦٣) فولتشر: ص ٤٦٣-٤٦٤.

(٦٤) وولتر: ص ٣٩١-٣٩٢.

(٦٥) وولتر: انظر الصك الأول من كتاب حروب الإنطاكيين، ص ٤٢٧.

(٦٦) وولتر: انظر الصك الثاني من كتاب حروب الإنطاكيين، ص ٤٢٩.

(٦٧) وولتر: ص ٢٧٠.

(٦٨) رنسيمان: **المرجع نفسه**، ص ٢١٨-٢١٩.

(٦٩) ابن العديم: ص ٣٨٨.

(٧٠) ابن العديم: ص ٣٨٨.

(٧١) رنسيمان: **المرجع نفسه**، ص ٢٣٦.

(٧٢) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥٥٤.

(٧٣) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٧٩.

(٧٤) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥٥٤.

(٧٥) ابن العديم: ص ٣٨٨.

(٧٦) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٣١٢.

(٧٧) وولتر: ص ٣٧٤.

(٧٨) رنسيمان: **المرجع نفسه**، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٧٩) متى الرهاوي: **المصدر نفسه**، ص ٣١٣.

(٨٠) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٧٩.

(٨١) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٠.

(٨٢) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٠.

(٨٣) وليم الصوري: **المصدر نفسه**، ص ٥٨٠.

* اوردريك فيتالي: **المصدر نفسه**، ص ٤٢٤.

(٨٤) ابن القلانسي: "**تاريخ دمشق**" تحقيق د. سهيل زكار، ط٢، ١٩٨٣، ص ٣١٩.

(٨٥) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥٥٤.

(٨٦) فولتشر: ص ٤٦٣.

(٨٧) وولتر: ص ٣٩٦.

(٨٨) وولتر: ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٨٩) وولتر: ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٩٠) وولتر: ص ٣٥٩.

(٩١) وولتر: ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٩٢) وولتر: ص ٣٦٠.

(٩٣) وولتر: ص ٣٦١.

(٩٤) وولتر: ص ٣٦٢.

(٩٥) وليم الصوري: ص ٥٨٠.

(٩٦) ابن العديم، ص ٣٨٩.

(٩٧) وولتر: ص ٣٦٧.

(٩٨) وليم الصوري: ص ٥٨٠.

(٩٩) وولتر: ص ٣٦٩.

(١٠٠) وولتر: ص ٣٦٩.

(١٠١) وولتر: ص ٣٧٢.

(١٠٢) وولتر: ص ٣٧٢-٣٧٣.

(١٠٣) وولتر: ص ٣٧٣.

(١٠٤) التوركبيلة: هم جزء من القوات الفرنجية المحلية، فقد كان الفرنجة في سورية يجندون أجناداً من السكان المحليين، وكان هؤلاء الجند متحدرين غالباً من والدين يعتنقان دينين مختلفين. انظر: يسميل: "**فن الحرب عند الصليبيين**" ترجمة محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، ط١، ١٩٨٥، ص ١٨٠.

(١٠٥) وولتر: ص ٣٧٣.

(١٠٦) وولتر: ص ٣٧٤.

(١٠٧) وولتر: ص ٣٧٤.

(١٠٨) وولتر: ص ٣٧٤.

(١٠٩) رنيسمان: ص ٢٣٨.

(١١٠) ابن العديم، ص ٣٩٠.

(١١١) ابن القلانسي، ص ٣٢٠.

(١١٢) ابن العديم، ص ٣٩١.

(١١٣) وولتر: ص ٣٧٥-٣٧٦..

(١١٤) وولتر: ص ٣٨١.

(١١٥) رنسيمان: ص ٢٣٩. وولتر: ص ٣٧٩ وما بعدها.

(١١٦) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥٥٥.

(١١٧) العظيمي: "**تاريخ العظيمي**" الموسوعة الشامية، ج١١، ص ١٦١.

(١١٨) رنسيمان: ص ٢٤١. وولتر: ص ٣٨٤-٣٨٥.

(١١٩) ابن الأثير: **الكامل**، ص ٥٦٨.

(١٢٠) رنسيمان: **المرجع نفسه**، ص ٢٤١.

(١٢١) ابن العديم، **المصدر نفسه**، ص ٣٩٢.

(١٢٢) وولتر: ص ٣٨٥.

(١٢٣) وولتر: ص ٣٨٦.

(١٢٤) ابن العديم: ص ٣٩٣.

(١٢٥) تم الحديث عن هذا المؤتمر في الصفحة رقم / / من هذا البحث.

(١٢٦) كان بطريرك إنطاكية حسب التقاليد يأتي في المرتبة الثالثة بعد بابا روما بطريرك القسطنينية من حيث الأهمية، وكان بطريرك إنطاكية هو الحاكم لجميع كنائس آسية استثناء فلسطين، ونظرياً امتلكت إنطاكية حق الأسبقية بالنسبة لبطركية القدس، وهكذا كان برنارد دي فالنس. بطريرك إنطاكية هو الشخصية الروحية الأولى في الشرق، وقد دخل بطريركاً إنطاكية والقدس في صراع كبير حول الإشراف على المنطقة اللاهوتية لصور أيام حياة برنارد هذا وقد جعل البابا تبعية صور إلى بطريركية القدس مع أنها كانت قبل الاحتلال الصليبي تابعة لبطركية إنطاكية، وبذلك خسر برنارد بطريرك إنطاكية تبعية صور إلى بطركيته، لكنه مع

ذلك برهن أنه يستطيع أن يدافع عن سلطته ليس في سورية فقط، بل ضد بابا روما. انظر حول لك بالتفصيل: وليم الصوري: **المصدر السابق**، ج١، ص ٥٦١ وما بعد. عاشور: **المرجع السابق**، ج١، ص ٢٢٣.

(١٢٧) أسامة بن منقذ: **الاعتبار**، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٢٨) وولتر: ص ٣٩٨ وما بعدها.

ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها

الدكتور علي أحمد
قسم التاريخ
جامعة دمشق

ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها

الدكتور علي أحمد
قسم التاريخ
جامعة دمشق

حركة الاسترداد (الريكونيكتا) هي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون على مجموعة العمليات العسكرية، التي نفذها الأسبان المعارضون بالأندلس منذ نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع، وهي ترجمة حرفية للعبارة الأسبانية (الريكونيكتا). وتعدُّ حركة الاسترداد هذه عند الشعب الأسباني حتى يومنا هذا من أهم الأحداث الوطنية الخالدة في تاريخهم القومي، وذلك لأنها بقيت حية في النفوس تنتقل من جيل إلى جيل كمسألة يجب أن تنفذ وتمارس على امتداد ثمانية قرون متوالية، ما لانت خلالها لهم عريكة أو همدت لهم همّة، على الرغم من الصعوبات البالغة التي واجهتهم، والتي كان في طليعتها الصعوبات الاقتصادية، التي جاءت من واقع وجودهم في المنطقة الجبلية الفقيرة في مواردها العامة، وهي المنطقة الممتدة من خليج بسكاي في وسط شمال أسبانية إلى آخر نقطة برية في غربها، بينما سيطر العرب على المناطق الغنية في مواردها المختلفة في وسط الأندلس وفي جنوبها.

لقد تحمّل المنفذون لحركة الاسترداد قساوة الحياة الجبلية، التي تجسّدت بالقلة والفقر والفاقة والحرمان، وصمدوا في هذه المناطق صموداً رائعاً يحسدون عليه، يحدوهم في

ذلك الآمال الوطنية العظيمة في استنقاذ بلادهم وتخليصها من الحكم العربي، الذي لم يتمكن القائمون عليه من قراءة أسباب وصمود واستمرار وديمومة هذه الحركة، وبالتالي خطورتها العامة على وجود العرب الزاوية الجنوبية الغربية من القارة الأوروبية[١].

تراوحت حياة هذه الحركة عبر مسيرتها الطويلة في عمق الزمن بين مدّ وجزر، فكانت تخبو وتنطفئ شرارتها وتنحسر امتداداتها باتجاه العمق العربي، حينما تكون الجبهة العربية قوية متماسكة، وتعود إلى الحيوية والنشاط والامتداد حينما تتفكك جبهة العرب وتضعف قوتهم بفعل التناحر والتنافر، وهي حقيقة ما زالت موجودة في عمق الحياة العربية حتى يومنا هذا، حيث تزداد شراسة وحدّة الهجمات المعادية في وقت ضعف العرب وانغلاقهم عن بعضهم داخل حدود ظالمة فرشتها قوى الشر والظلام في الماضي غير البعيد.

يتفاخر الأسبان والبرتغاليون اليوم بحركة الاسترداد وبنتائجها الإيجابية العامة، هذه النتائج التي تجسدت بطرد العرب من أسبانية والبرتغال وإكمال عملية صنع الاستقلال الوطني في هاتين الدولتين، لذلك فمن واجبنا نحن العرب أن ننوّه بهذه الحركة وأن نذكرها بأحداثها وتفاصيلها، على الرغم من أنها تخلف لنا حالة حزن وألم، ذلك لأنها وضعت حداً نهائياً فاصلاً لوجود العرب في القارة الأوروبية ومسوّغات هذا التنويه هو الاستفادة العظيمة من مجريات هذه الحركة العامة عبر مئات السنين، وتكون الاستفادة في المقام الأول في ميدان الصبر الذي اعتمدت هذه الحركة، وهو من أهم الأمور التي يجب علينا نحن العرب أن نأخذها بعين الاعتبار في مواجهة العدو الصهيوني على جميع المستويات. وكذلك الاستفادة جيداً من عوامل الزمن، وتكون بعدم الاستعجال في مسألة صنع حلول غير متكافئة، وإن فرضت بعض الحلول يجب أن تكون مرحلية من أجل إعادة البناء والاستعداد على طريق التحرير، كما كان يفعل قادة حركة الاسترداد في فترات القوة العربية بالأندلس، ثم الإبقاء على التصميم

الصادق حياً في نفوس أجيالنا العربية المتعاقبة في مواجهة العدو الصهيوني المشترك، وأيضاً نسيان الخلافات الهامشية بين العرب أنفسهم حتى لا تتحول هذه الخلافات إلى حالة فراق دائمة، كما كانت تفعل دول حركة الاسترداد، التي كان من أشهر دولها قشتالة، وليون، وآراغون، وبرشلونة، فقد كانت هذه الدول تتوّحد بقيادة قشتالة ضد العرب في الأوقات الصعبة والحرجة.

وقد تكوّنت نواة هذه الدويلات من الهاربين الأسبان أمام العرب الفاتحين، وذلك في الزاوية الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي منطقة جبلية وعرة كانت تسمى مناقير أوروبة. وقد حاول بعض ولاة الأندلس القضاء على هذه النواة، لكنهم لم يوفقوا في ذلك، وتطورت هذه النواة في عصر الإمارة الأموية إلى الدول سابقة الذكر، وعدَّ حكامها أنفسهم خلفاء شرعيين للحاكم القوطي (لذريق) الذي هزمه العرب في مستهل عملية الفتح العربي للأندلس(٢).

بقيت القوة الممثلة لحركة الاسترداد، ترقب الأحداث عن كثب في عصر الأمراء الأمويين الأقوياء وهم: عبد الرحمن الداخل، وهشام الرضا، والحكم الربضي، وعبد الرحمن الأوسط، فلم تتمكن هذه الحركة من عمل شيء في عصر هؤلاء الأمراء على جميع المستويات، ذلك لأن الإمارة الأموية حتى نهاية الأربعينيات من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، استطاعت أن تسيطر وبكفاءة مشهودة على جميع الأحداث الداخلية والخارجية(٣).

أما بعد هذه الفترة فقد بدأت الأمور تسير على وتيرة عكسية تماماً، حينما بدأت وحدة الأندلس تنفرط وتتفكك، فظهرت عدة دويلات محلية مستقلة وخاصة في الأماكن القريبة من توضع قوات حركة الاسترداد وهي مناطق الثغور(٤)، ساعد على وجود هذه الحالة الشاذة وجود أمراء ضعاف، لم يستطيعوا متابعة مسيرة أسلافهم في الحزم والحفاظ على وحدة الدولة وقوتها، هذا أدى إلى ظهور حركات تمرد ومعارضة خطيرة، كانت جميعها تصب في مصلحة حركه الاسترداد الأسبانية، نذكر من هذه

الحركات أشدها خطورة وأطولها امتداداً من حيث الزمن، وهي حركة عمر بن حفصون المولدي، الذي انبثق من صفوف المولدين بالأندلس، والمولّدون هم مجموعة كبيرة من الأسبان، اعتنقوا الدين الإسلامي غداة دخول العرب المسلمين بلادهم، وسمي الجيل الأول منهم (المسالمة) وسمي الجيل الثاني (المولدون). وقد بقي المولّدون يحافظون على هدوئهم وانضباطهم العام، حتى ظهرت حركة عمر بن حفصون، الذي كان رجلاً من عامة الناس يعمل في خياطة الثياب، انتقل في بداية حياته السياسية إلى المغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، ونزل لمدة وجيزة بعاصمة الخوارج الإباضية، مستغلاً بذلك حالة العداء بين الخوارج وبين الأمويين على صعيد العقيدة، فالخوارج بشكل عام كانوا يعادون جميع المذاهب الأخرى لكن ابن حفصون نسي تأثير المصالح الاقتصادية على المبادئ العقائدية، وهو الشيء الذي حصل بقوة في العلاقة بين دولة الخوارج بالجزائر، ودولة الأمويين بالأندلس، لذلك فقد فشل في استقطاب تأييد الخوارج الإباضية بالجزائر ضد الأمويين بالأندلس، وكان بسبب تغليب المصالح التجارية على كل المصالح الأخرى بين خوارج الجزائر، وأمويي الأندلس، لأن تاهيرت، عاصمة دولة الخوارج الإباضية بالجزائر، كانت تشكّل أهم المحطات التجارية على طريق تجارة الذهب والمعادن الثمينة القادمة من غرب القارة الإفريقية السوداء، هذه التجارة التي كانت قوافلها تتابع من تاهرت أحياناً إلى الأندلس، ومنها إلى البلدان الأوروبية الأخرى، الأمر الذي ساعد في ازدهار اقتصاد التجار بالأندلس ودولة الخوارج الإباضية على حد سواء، ودليل هذا الازدهار ظهور مجموعة كبيرة من التجار بالأندلس عرفوا باسم (التجار الرودانيون)* كانوا يصلون في تجارتهم إلى الشرق الأقصى، كما بادرت مجموعة من تجار الأندلس أيضاً ببناء عدد من المدن على الساحل الجزائري من أجل تنشيط التجارة بين البلدين، وأهم هذه المدن هي: وهران، وتنس، ومستغانم، وكلها بنيت في الفترة الممتدة من سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م إلى سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م(٥).

عاد ابن حفصون المولدي إلى الأندلس بعد فشل مهمته في حاضرة الخوارج تاهرت بالجزائر، واتخذ من حصن (ببشتر) في سلسلة جبال سييرنيفادا (جبال الثلج) بجنوب أسبانية قاعدة به، وتعدُّ هذه السلسلة الجبلية من أوعر الجبال في أوروبة، فهي تمتاز بوهادها العميقة، وقممها الشاهقة الارتفاع، ومسالكها المتعرجة الضيقة، الأمر الذي وفّر له نوعاً كبيراً من الحماية والحصانة الطبيعية، مما ساعده على إعلان ثورة مولدية عارمة ضد الوجود العربي المتمثل بالإمارة الأموية بالأندلس، وألبس هذه الثورة ثوباً أسبانياً وطنياً بعد أن أعلن ارتداده عن الإسلام. وقام بتنفيذ العديد من الهجمات الناجحة ضد حكومة قرطبة ووقف الأمراء الأمويون حيالها موقف العاجز عن مجاراتها بنظيراتها، حتى تمكن الأمير عبد الله في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، من تجميع قوة عسكرية كبيرة قادها بنفسه، وتوجه بها إلى حيث يقيم ابن حفصون في حصنه المنيع سابق الذكر، بعد أن تأكد أن ثورة ابن حفصون ثورة أسبانية وطنية خالصة ضد وجود عربي رمزه الأمير عبد الله نفسه، فإذا زال هذا الوجود فسيزول الرمز حتماً، لكن الأمير عبد الله قبل أن يقوم بهجومه على ابن حفصون، كان قد نفّذ سياسة ناجحة تجلّت باعترافه بسيادة الإمارات، التي كانت قد استقلت في عصر الأمراء الذين سبقوه، وذلك مقابل مقدار كبير من المال، استخدمه في تمويل وبناء القوة العسكرية التي أعدها لقمع ثورة ابن حفصون، استطاع من خلالها أن ينهك إلى حد كبير قواه العامة، الأمر الذي ساعد حفيده الناصر لدين الله، على التخلص من ابن حفصون دون أية متاعب كبيرة[٦].

كان من أهم النتائج التي تمخضت عن حركة ابن حفصون، التي استؤصلت شأفتها نهائياً سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٨م، أنها ساعدت كثيراً على توسع الدول الأسبانية المعارضة للعرب في الشمال، والتي تمثّل صلب حركة الاسترداد التي نحن بصدد الحديث عنها، وذلك على حساب عرب الأندلس فوصلت حدودها إلى نهر التاجة بوسط الأندلس[٧].

لكن لن تطول الأيام حتى تتغير الصورة برمتها في عصر الخلافة الأموية، هذا العصر الذي استمر أكثر من مئة عام، وكان من أزهى عصور العرب بالأندلس على الإطلاق، ففي هذا العصر الميمون تعزز استقلال الدولة العربية بعد أن قضى على كل التمردات، أشكال الاستقلال عن السلطة المركزية، التي مثلها بجدارة وقوة الخليفة الأموي الناصر لدين الله، الذي اعترفت به كل الدويلات الأسبانية المعارضة من خلال العديد من السفارات إلى بلاطه بقرطبة وبالزهراء، وكان بعض هذه السفارات يأتي ليحصل على عون عسكري ومادي، من أجل إعادة بعض الحكام إلى عروشهم بعد عزلوا عن هذه العروش القوة المسلحة، وبعضها الآخر كان سيأتي إلى قرطبة والزهراء، ليبحث عن علاج لمرض أو علّة عجزت الخبرة الطبية المحلية الأسبانية عن وضع علاج لها، وبعض هذه السفارات أيضاً كان يأتي ليعبّر عن مشاعر وآيات الولاء والطاعة للخليفة الأموي، إلى غير ذلك من أمور تدلّ على قوة السلطة الأموية في عصر الخلافة.

وفي عصر الخليفة الحكيم المستنصر، الذي خلف والده في حكم الأندلس[٨]، حاولت الدويلات الأسبانية الشمالية التحرر من الخضوع لدولة الخلافة، مستغلة ميل الحكم المستنصر إلى العمل في ميادين الثقافة والفكر أكثر من ميله إلى الحرب، ولكن تقديرهم لم يكن في مكانه، فقد برهنت الأيام أن الحكم المستنصر لم يكن أقل من أبيه اهتماماً وحرصاً على أن تبقى دولة الخلافة الأموية على درجة كبيرة من القوة والهيبة والمناعة، فقام بإخضاع دويلات الأسبان بقوة الغلبة والتفوق العسكري والعلمي والحضاري، وزاد على أبيه الناصر لدين الله في أنه أرسل مجموعة من قواته العسكرية بقيادة أبي عمروس العريفي إلى أراضيَ دولة قشتالة، وكلفها بنقل الأخبار العامة التي تتصل بتطور وتحرك هذه الدول في مختلف الميادين[٩].

وفي فترة حكم لحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[١٠]. نفّذت أكثر من خمسين غزوة متتالية في أراضي دول المعارضة الأسبانية، وكان الحاجب المنصور على

رأس هذه الغزوات جميعها، فوصل في إحداها إلى أقصى منطقة في شمال غرب الأندلس، وهي (شنت ياتب) أي القديس يعقوب، التي لم يصلها أحد قبل المنصور من العرب. وفي كل مرة كان الحاجب المنصور يصطحب معه إضافة إلى الغنائم العديد من الصبايا والسراري الجميلات إمعاناً في إذلال وإهانة الدويلات الأسبانية، مما جعل الأندلسيين من العرب عامة يسمونه (الجلاب). وكانت كلمة الجلاب قبل أعمال الحاجب المنصور هذه تعني (القبيح)، وكانت تلق على الرجل الذي يبيع الدواب والحيوانات أو على الرجل الذي يشتغل بتجارة الرقيق، ولكن هذه الكلمة تحولت إلى معنى لطيف ومستحب في عصر المنصور، فكان العرب الأندلسيون يسمونه بهذه التسمية التي غدت مستحبة، وكأنهم يقولون له من خلالها القائد العظيم، الذي غمرهم بالسبايا والهدايا نتيجة غزواته الكثيرة.

وحينما توفي الحاجب المنصور قال الأندلسيون، لقد مات الجلاب الذي ساعد إلى حد كبير إلى عدم تمسك أهل الأندلس بمسألة طلب المهور العالية، وذلك من كثرة ما كان يصطحب معه من سبايا وبنات جميلات من مختلف مناطق أسبانية الشمالية والشمالية الغربية، التي غزاها خلال فترة حكمه، فقلّ بذلك في عصره طلب البنات والحرائر العربيات(١١).

أدّت هذه الأعمال التي نفذّها الخلفاء الأمويون إلى نتيجة مهمّة بالميدان العسكري، تجسّدت على أرض الواقع بتهديم العديد من مراكز التحصين الدفاعية، التي كانت قد أقامتها دويلات حركة الاسترداد الأسبانية على ضفة نهر دويرة بشكل خاص(١٢).

رغم هذا الوضع الإيجابي العظيم، فقد ارتكب الخلفاء الأمويون خطأً قاتلاً حينما أبقوا على وجود دويلات حركة الاسترداد الأسبانية بتأثير حالة الولاء الخادعة، التي تظاهر بها حكام هذه الدويلات وهم في مواقع بعيدة عن مركز السلطة العربية بقرطبة، وربما يعود سبب ذلك إلى قناعة الخلفاء الأمويين باستحالة عيش العرب في مناطق توضع أتباع الدويلات الأسبانية، وهي مناطق ثلجية ذات برد شديد. أضف إلى ذلك أن

الخلفاء أنفسهم، لم يكونوا يحسبون أية حسابات لتغلغل عوامل الضعف والانهيار، التي تتعرض لها معظم الدول، على اعتبارهم كانوا أعظم حكام العالم في عصرهم على الإطلاق. لكن الأعمال التي قام بها هؤلاء الخلفاء وخاصة منها الأعمال العسكرية شكلت حافزاً قوياً لدويلات الاسترداد الأسبانية، لأن تعمل وبوتيرة عالية ضد الوجود العربي بالأندلس، ودليل ذلك أن هذه الدول بدأت تعمل في تشجيع المدّ الصليبي، وشغلت في سياق ذلك دوراً فعالاً كان في غاية الأهمية، مما دفع هذا المد بقوة على طريق النجاح(١٣).

إن الإذلال الذي فُرض على هذه الدول المتفرقة، وإجبارها إلى دفع جزية سنوية، يقوم الفونسو السادس القشتالي، بتعيين مقدارها السنوي وطريقة تأديتها بانتظام. وبالفعل فقد التزم جميع حكام دول الطوائف بدفع ما يترتب عليهم من جزية سنوية دون أي اعتراض أو تذمر مقابل أن يمتنع الأسبان عن تهديد مناطق حكمهم، لعدم مقدرتهم على الدفاع عنها، بسبب عدم التعاون فيما بينهم ولضعف شديد في جيوشهم في ميدان الاستعداد وكذلك في ميدان العَدد والعُدَد(١٤).

ولعل ما حدث لكبير حكام دول الطوائف المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، حينما جاء مبعوث الفونسو السادس لاستلام الجزية المفروضة على دولة المعتمد بن عباد، خير دليل على حالة التفوق التي امتلكت زمامها حركة الاسترداد الأسبانية. فقد حضر إلى إشبيلية وفد أسباني من دولة قشتالة برئاسة ابن شاليب اليهودي، الذي احتجّ على أن عيار الذهب المقدم جزية للأسبان، لا يتطابق مع المواصفات والعيارات الصحيحة المتفق عليها، وأضاف موجهاً كلامه للمعتمد بن عباد أن هذا إذا حدث في العام التالي، فستكون إشبيلية وما حولها بمنزلة الجزية المستحقة للأسبان، فاستشاط المعتمد بن عباد غضباً وأمر بتعليق ابن شاليب من رجليه وأتبع ذلك بقتله ومن معه من ممثلي الفونسو السادس حاكم قشتالة، لكنه بعد ذلك بفترة وجيزة قام بتقديم اعتذار قوي لألفونسو السادس عن كل الذي جرى(١٥). وكانت هذه الحادثة التي تسبب بها اليهود على

عادتهم في خلق الخلافات والفتن، أحد الأسباب الرئيسية التي أقنعت المعتمد بن عباد بطلب العون والمساعدة من الدولة الناشئة في المغرب الكبير، وهي دولة المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين، الذي لبّى نداء العرب الأندلسيين بعد أن اقتنع بضرورة إنقاذ الوضع العربي من السقوط بالأندلس على يد حركة الاسترداد الأسبانية، التي كانت في أوج نشاطها، بعد أن قام الأسبان بتوحيد صفوفهم بمساعدة فرنسا المجاورة وكذلك بمساعدة السلطة البابوية في روما، فمنذ عصر الخلافة تنبّه الفرنسيون إلى خطورة القوة العربية المتمثلة بالخلافة الأموية، ليس على الأسبان في الشمال بل على الأوروبيين، فقاموا بدعم وتشجيع الأسبان في مختلف الوسائل للقيام ضد العرب[١٦]. وقد ترافق هذا النشاط الفرنسي بوجود ألفونسو السادس، الذي تميز بطموح بعيد المدى من أجل تحقيق أمجاد مهمّة على حساب العرب، فقام بعملية كبيرة في واقعها ونتائجها، هي عملية استعادة العاصمة القديمة للأسبان مدينة طليطلة في سنة ٤٧٨هـ/١٠٧٦م، وكان مما ساعده على إنجاز هذه العملية الكبيرة، أن حكام دول الطوائف لم يهبّوا للدفاع عن طليطلة، وكأنهم كانوا غير معنيين في هذه المسألة ولا في كل ما جرى من تطورات خطيرة حولهم، كما نوّه بذلك ابن الخطيب بقوله: ((وحسبك بها فجيعة وأعظم بها مصيبة وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون...))، وفي هذا الصدد أيضاً يقول الشاعر أبو الحسن بن الجد:

في كل يوم غريب فيه معتبر ... نلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقى ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح ... يحدو به ملهياه الناي والوتر
تلقاه كالفحل معبوداً بمجله ... له خوار ولكن حشوه خور[١٧].

كان من حق الشعراء أن يعبروا عن حجم الكارثة التي حلت بالجبهة العربية بعد سقوط طليطلة، ذلك لأنها لا تقتصر على عودة طليطلة كمدينة بل تبع ذلك سقوط العديد من المدن والبلدان التي من حولها، وهي مدينة سالم ووادي الحجارة، ومجريط، وقونكة، واقليش، وطلبيرة، الأمر الذي جعل الأسبان يطلقون على هذه المنطقة المسترجعة اسم (قشتالة الجديدة). وقد اعتبر الشاعر الطليطلي عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال سقوط هذه المنطقة بمنزلة نذير خطير باتجاه نهاية العرب ووجودهم في أسبانية بقوله:

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس　　فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى　　ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط[١٨].

ولم يلتفت الفونسو السادس إلى نصيحة ، أسداها إليه جماعة من المستعربين الذين كانوا قد بهروا بالثقافة العربية، وتتجلى هذه النصيحة بضرورة إعلان روح من التسامح والتعاون مع العرب في كل المناطق الأندلسية، لكنه لم يلتفت إلى هذه النصيحة متأثراً بالتحريض الفرنسي المستمر له للسير في حملته ضد العرب إلى نهايتها المفرحة، وكان في طليعة هؤلاء الفرنسيين الحاقدين على العرب، زوجته الفرنسية الأصل كونستانس، وأسقف مدينة طليطلة دون فرناندو وكثيرون من رجال الدين على مختلف رتبهم الدينية، الذين كانوا قد انتشروا في شمال أسبانية، وبدؤوا بنشر حالة عداء دينية وقومية ضد الوجود العربي بالأندلس[١٩].

وقد أظهر الأسبان حقدهم على الوجود العربي بالأندلس، حينما دخلوا مدينة طليطلة، فقد لجأ أهل طليطلة من العرب إلى طلب الصلح مع الأسبان، فردّوا على هذا الطلب بضرورة دفع مبلغ كبير من المال، عجز عرب طليطلة عن دفعه وقالوا للأسبان، لو أن هذا المبلغ متوافر لدينا لكنا استعنا به عليكم بطلب المغاربة، فأجابهم القائد الأسباني الذي استعاد طليطلة وهو فرذلند بن غرسيه قائلاً: ((وأما استدعاؤكم البرابرة

(المغاربة) فأمر تكثرون به وتهددونا به ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا الآن عليكم برداعتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم))[٢٠].

كل هذه المسائل والأخبار كانت تصل تباعاً إلى مسامع يوسف بن تاشفين من خلال بعض الشخصيات الحريصة على استمرار الوجود العربي بالأندلس، ومنهم حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، الذي كان أول الأمر مقتنعاً أن المرابطين لمن يبقوا في الأندلس إذا ما طلبهم لتقديم المساعدة ضدّ الهجمة الأسبانية المستعرة في الشمال والوسط، فقام بتشجيع الحاكم المرابطي يوسف بن تاشفين على الإسراع بتقديم النجدة والعون، وبالفعل لم يتأخر ابن تاشفين في تقديم المساعدة للأندلسيين، فجاز إلى الأندلس على وجه السرعة عن طريق الجزيرة الخضراء في الجنوب الغربي بقوة عسكرية مغربية، تمكنت بمساعدة قوة أندلسية قادها المعتمد بن عباد بنفسه، أن تضع حداً للغطرسة الأسبانية، بعد أن هزم زعيم حركة الاسترداد ألفونسو السادس أمام قوات يوسف بن تاشفين في معركة كبيرة جرت وقائعها في موقع الزلاقة على بعد ١٢ كم شمال بطليوس قاعدة الثغر الأدنى[٢١]. وذلك في سنة ٤٧٩هـ/ ١٨٠٧م، بعد مضي سنة واحدة على سقوط طليطلة تحت السيطرة الأسبانية.

كان من أهم نتائج معركة الزلاقة في المقام الأول، كبح جماح حركة استرداد بعد فترة نشاط محموم استمر لمدة خمسين عاماً قبل حدوث هذه المعركة، التي ساعدت على وضع حد للهزائم الماضية وفتح صفحة جديدة على طريق الأمل والانتصار، مما جعل يوسف بن تاشفين يظهر بمظهر الأب أو كبير الأمراء الأندلسيين، حينما أوصاهم بضرورة لمّ الشمل وتجميع ونسيان خلافات الماضي، التي سببت مزيداً من المذلة والمهانة والهزيمة[٢٢].

لكن الذي حدث أن حكام دول الطوائف بعد رحيل يوسف بن تاشفين المؤقت عن الأندلس، لم يلتزموا بشيء من مما قدمه لهم من عظات ونصائح، فعادت التناقضات من جديد تعشعش في حياتهم وكياناتهم، الأمر الذي أثار اهتمام المرابطين من جديد، ودفعهم للتوجه إلى الأندلس والبقاء فيها هذه المرة بصورة مستديمة، وبالفعل فقد انتقلوا إليها على وجه السرعة وقوضوا أسس ودعائم دويلات الطوائف، الواحدة تلو الأخرى بمساعدة معنوية من الفقهاء، الذين سيطروا للأسف على صناع القرار في عصر دولة المرابطين بالمغرب والأندلس عامةً[٢٣].

بقيت حركة الاسترداد الأسبانية تعاني من أزمة على صعيد التوسع باتجاه ممتلكات العرب طوال الفترة التي أمضاها يوسف بن تاشفين في الحكم، وكذلك جزء من فترة حكم ابنه علي بن يوسف حتى سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م، فلم تتمكن هذه الحركة من عمل شيء يمكن التوقف عنده. لكن بعد هذه الفترة بدأت مسيرة المرابطين بالتراجع أمام حركة الاسترداد بتأثير عدد من العوامل المستجدة، كان في طليعتها خلافات المرابطين مع سكان الأندلس، وقيام الثورات بالمغرب وخاصة ثورة الموحدين، وكذلك قيام بعض الثورات بالأندلس كثورة المريدين وغيرها، مما ساعد حاكم أرغون الأسباني على استعادة أهم المعاقل على الضفة اليمنى لنهر أبرو في شمال شرق أسبانية وخاصة مدينة سرقسطة[٢٤].

إضافة إلى حالة التدهور على صعيد دولة المرابطين، فقد استفادت حركة الاسترداد الأسبانية من دعم داخلي قوي، جاء هذه المرة من قلب المجتمع العربي بالأندلس، فلأول مرة منذ فتح العرب للأندلس في نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، يظهر المستعربون تذمراً واضحاً من الحكم العربي، والمستعربون هم مجموعة من الأسبان بقيت على دينها المسيحي، لكنها تأثرت بالمؤثرات الثقافية العربية واصطبغت بصبغتها وتعمقت فيها إلى حد كبير، مستفيدة بذلك من هامش الحرية الواسع الذي أعطاها إياه العرب، فكانت حريات المستعربين مطلقة في شؤون القضاء والعبادة

وغير ذلك. لكن حينما جاء المرابطون إلى الأندلس تغيرت صورة هذا الواقع، التي تجلّت من خلاله روح الإسلام المرنة التي تمكنت وبنجاح منقطع النظير من تسوية الأمور بين الناس جميعاً، دون إظهار لملامح تفوق أو عنصرية ما.

وقد حدث التغير حينما خضع الحكام المرابطون لإدارة الفقهاء الجهلة المتعصبين، الذين خلقوا هوة عميقة في كيان المجتمع الأندلسي، صبت نتائجها في نهاية الأمر في صالح حركة الاسترداد الأسبانية، فقد استطاع الفقهاء الجهلة أن يقنعوا حكام المرابطين بتجريد المستعربين المسيحيين من كثير من المكاسب العامة التي كانوا قد حصلوا عليها في ظل حكم الإمارة الأموية والخلافة الأموية وعصر الطوائف بالأندلس. كان من هذه المكاسب الهامة السماح للمسيحيين المستعربين ببناء بعض الكنائس، كتلك الكنيسة التي بنوها بالقرب من باب البيرة بمدينة غرناطة، فجاء حكام المرابطين المخدوعين بوطنية وحرص الفقهاء، وأمروا بهدمها متأثرين في ذلك بآراء الفقهاء، التي لم تكن ناجعة أو متزنة في يوم من الأيام إلا في القليل النادر.

جاءت ردة فعل المستعربين قوية ضد هذه الأعمال غير المسوّغة، وسارعوا إلى قيادة حركة الاسترداد وأبلغوها استعدادهم للانضمام تحت لوائها، بعد أن كانوا يدعون هذه الحركة للتعامل مع العرب بالأندلس معاملة حضارية وخاصة في فترة حكم ألفونسو السادس، وكذلك بعد أن يئسوا من تعصب المرابطين الديني ضدهم، وقامت قشتالة على إثر ذلك بعملية اختراق شجاعة في عمق الممتلكات العربية، بدأتها وأتبعتها بمدينة غرناطة، وأتبعتها بقرطبة، ومن قرطبة توجهت إلى شاطئ البحر المتوسط بالجنوب، واستغرقت هذه الجولة سنة كاملة تقريباً، كان المستعربون خلالها ينضمون إليه ويعلنون له كل مشاعر وآيات التأييد والطاعة والولاء، رداً على ممارسة الفقهاء المسلمين ضدهم، وقد دلت عملية الاختراق هذه على ضعف شديد في صفوف الجيش المرابطي الذي لم يشتبك مع الأسبان سوى مرة واحدة هزم فيها المرابطون(٢٥).

ومنذ الفترة الأخيرة لحكم المرابطين حتى سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، عاشت حركة الاسترداد الأسبانية حالة استعداد للحرب من جهة، وحالة ترقب لنشاط الموحدين الذين ورثوا المرابطين في الحكم من جهة ثانية. أما بعد ذلك فقد بدأت النشاطات الأسبانية باتجاه أماكن الوجود العربي، حينما قام كونت برشلونة بالسيطرة على طرطوشة بمساعدة جنوا الإيطالية ثم سيطر بعد ذلك على لاردة وما حولها. وتمكن الفونسو السابع من السيطرة على قلعة رباح، ثم على ميناء المرية في جنوب شرق الأندلس على البحر المتوسط، وذلك بمساعدة جنوية وفرنسية، وميناء المرية كان من أهم موانئ الأندلس كلها، والسيطرة عليه أدت إلى تقويض الحركة التجارية العامة بالأندلس[٢٦]. كما سيطرت القوات البرتغالية على معظم مناطق غرب الأندلس، وسمحت بمرور قوات صليبية في أراضيها وفي موانئها، وهي قوات ألمانية وإنكليزية وفلمنكية، كانت تتخذ من غرب الأندلس محطة استراحة وتزود على طريقها إلى غزو المشرق. وأهم المواقع التي سيطر عليها البرتغاليون هي شنترين، التي سقطت في أيديهم سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، وذبحوا معظم سكانها في الوقت الذي وصلت فيه جملة صليبية على متن أكثر من ١٦٤ سفينة، قوامها من الجنود الإنكليز والفرنسيين والألمان وكان هدفهم الوصول إلى فلسطين لنجدة ريتشارد قلب الأسد، فاستغل البرتغاليون توقف هذه الحملة بشنترين وطلبوا من قادتها تقديم العون للسيطرة على لشبونة، فبادروا لنجدة البرتغاليين وسقطت المدينة بأيديهم، فقام الموحدون بإرسال قوة عسكرية إلى هذه المنطقة لكنها فشلت في استعادة أية مدينة[٢٧].

بقي هذا الواقع قائماً حتى تمكن الموحدون في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م، من استعادة المرية، بعد حصار دام فترة سبعة شهور مستمرة وربما ركزوا على استعادة المرية لأنها مرفأ البلاد الرئيسي منذ عصر الخلافة الأموية بالأندلس[٢٨]. وقد زاد تحرير المرية وعودتها إلى السيطرة العربية الموحدية من تصميم قيادة حركة الاسترداد على متابعة الهجوم ضد المعاقل العربية بالأندلس. وقد جاء هذا التصميم على لسان سانشو

الثالث وفرناندو الثاني ملكا ليون وقشتالة، حينما اتفقا على أثر وفاة ألفونسو السابع على توزيع الأراضي الأندلسية، التي تقع تحت السيطرة العربية فيما بينهما في الوقت الذي احتل فيه البرتغاليون مدينة رئيسية في غرب الأندلس وهي مدينة باجة(٢٩).

لكن استعداد الموحدين وتصميمهم على تحقيق شيء مهمّ، أدى إلى ضرب جبهة حركة الاسترداد، وخاصة في عصر الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الذي استمر في الحكم سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م، وهو الذي استغل حالة انقسام كانت قد حدثت في صفوف قيادة حركة الاسترداد على حين غرّة، فأعاد معظم المناطق الأندلسية التي كانت وقعت تحت السيطرة الأسبانية بالأمس القريب، لكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب عودة التفاهم والوئام على الجبهة الأسبانية، وبدأت الهجمات بشكل مستمر على جميع الاتجاهات ضد أماكن التوضع العربي، وكانت أعنف هذه الهجمات تلك التي جاءت من ناحية البرتغال حيث شمل الهجوم البحر والبر، وحاول الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن إيقاف هذا الهجوم من خلال تنفيذ هجوم مضاد، تركز على مدينة شنترين، ولكن هذا الهجوم تعثر وانتهى إلى الفشل وجرح الخليفة وتوفي إثر ذلك(٣٠).

جاء إلى حكم دولة الموحدين بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن ابنه يعقوب المنصور، الذي وصلت المواجهة في عصره مع الأسبان قمتها، وكانت فترة حكمه التي استمرت حتى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م من أحسن فترات حكم الخلفاء الموحدين عامة. كان ذلك بسبب النجاحات العسكرية المهمّة التي أنجزت في هذه الفترة وخاصة معركة الأرك، التي جاءت كنتيجة طبيعية فرضتها التحركات الأسبانية النشيطة، ففي غرب الأندلس حاول البرتغاليون فرض سيطرتهم المحكمة مستغلين بذلك كثرة الأساطيل الأوروبية المتوجهة إلى بلدان المشرق العربي، من أجل تقديم العون للصليبيين في بلاد الشام وخاصة في فلسطين، حيث نجح العرب في استعادة مدينة بيت المقدس. وبمساعدة بعض قوى هذه الأساطيل. تمكن البرتغاليون من السيطرة على مدينة شلب وتنفيذ مجزرة كبيرة فيها، بلغت حصيلة قتلى هذه المجزرة نحواً من ستة آلاف من العرب،

لكن الموحدين بقيادة الخليفة يعقوب المنصور تمكنوا من استعادتها في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م.

وقد تأكد للخليفة بعد ذلك، أن السبب الرئيسي في كل المشاكل التي يعاني منها عرب الأندلس، تأتي من دول الأسبان في الشمال التي تشكل الجبهة الأقوى في حركة الاسترداد، ولا بد من عمل شيء قوي يكبح جماح هذه الجبهة دائمة التوثب والاندفاع. فانتقل في جيش كبير إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة ومنها اتجه شمالاً إلى قلعة رباح، ولما سمع بقدومه الحاكم القشتالي الفونسو الثامن، توجه لملاقاته في الحال وتمركز في حصن الأرك القريب من قلعة رباح، وكان واثقاً من النصر بعد أن تجمعت حوله كل القوى الأسبانية الأخرى[٣١].

في نهاية الأمر وقع الصدام بين الفريقين في الأرك، وكانت الهزيمة من نصيب الأسبان، الذين تكبدوا خسائر جمة في هذه المعركة التي عرفت في التاريخ الأندلسي بمعركة (الأرك)، التي جرت أحداثها غير الطويلة في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م[٣٢]. وكان من أهم نتائج هذه المعركة أن قامت قيادة حركة الاسترداد بعرض إقامة سلام مع الموحدين، الذين وافقوا على عقد معاهدة سلام لمدة عشر سنوات.

كانت الفترة التي تلت معركة الأرك قاسية للغاية، ذلك لأن الانهيار بدأ يظهر في جبهة الموحدين العسكرية، وقد ظهر ذلك واضحاً في فترة حكم الخليفة الموحدي محمد بن يعقوب الناصر الذي لم يتمكن من محاصرة أسباب الانهيار، في الوقت الذي كانت فيه زعامة حركة الاسترداد، وخاصة زعامة دولة قشتالة، تدرس الوضع بعمق على جميع المستويات مستفيدة من الدرس القاسي، الذي لقنها إياه الموحدون في معركة الأرك سابقة الذكر. فقد بدأت قيادة دولة قشتالة تعمل بقوة على طريق جمع الصفوف وكذلك تجميع كل القوى الأسبانية، من أجل تشكيل جبهة قوية لضرب الوجود العربي بالأندلس، ساعدها في ذلك قيام رئيس أساقفة طليطلة بزيارة فرنسة وإيطالية للحصول على شيء يدعم الموقف الأسباني، وبالفعل فقد استطاع أن يحصل من بابا روما على

إعلان يتضمن عبارات تشجيع للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين، من أجل المشاركة في حرب الاسترداد ضد العرب، التي قال عنها البابا إنها حرب صليبية مقدسة كتلك التي يخوضها الأوروبيون في المشرق[٣٣].

لم تطل الأيام بالأسبان حتى تمكنوا بزعامة دولة قشتالة، من لملمة شملهم بتأثير الحمية الوطنية والدينية، ونسي الجميع الخلافات السابقة وتوحدوا في جبهة واحدة، وشاركتهم بعض القوى العسكرية الفرنسية متأثرة بفتاوى البابا سابقة الذكر. وكان اللقاء بين الموحدين الأسبان في منطقة العقاب بالقرب من مدينة قرطبة إلى جهة الشمال في سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٣م[٣٤]. وفي هذا اللقاء العسكري لم يجد الأسبان صعوبة كبيرة في تحقيق نصر مؤزر على الموحدين، الذين لم يستطيعوا الصمود في وجه الأسبان المستعدين للانتقام، على صعيد التكتيك الحربي وعلى صعيد الاستعداد النفساني والمعنوي.

على الرغم من نجاح الأسبان في هذه المعركة، فإن مؤثراتها الإيجابية لم تظهر على جبهة حركة الاسترداد إلا بعد مضي أكثر من عشر سنوات، ذلك لأن الأسبان شغلوا في هذه الفترة ببعض الانقسامات، التي حلت في صفوفهم بعد المعركة التي عرفت في تاريخ الأندلس بمعركة (العقاب) ولكن بعد هذه الفترة عادت الأمور إلى مسارها الصحيح لتنتعش حركة الاسترداد من جديد، وتبلورت هذه الحالة بظهور دولة (آرغوان) بقيادة خايمي الأول، فقد ظهرت هذه الدولة بمظهر القوي المصمم على السيطرة المطلقة على أملاك العرب بالأندلس، وكذلك تعززت قوة دولة قشتالة بزعامة فرناندو الثالث، كل ذلك حصل في الوقت الذي كانت فيه دولة الموحدين تسير بطريق الفناء، هذه الطريق التي بدأت من داخل هذه الدولة، حينما بدأت التمردات والثورات تظهر هنا وهناك أي في المغرب والأندلس على حد سواء[٣٥].

ساعدت هذه الظروف على الجبهتين العربية والأسبانية على تقديم حركة الاسترداد الأسبانية بقوة فاعلة ومؤثرة هذه المرة، فلم تأتِ سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٣م، حتى تمكنت

هذه الحركة من السيطرة النهائية على معظم معاقل العرب بالأندلس، وبقي الوجود العربي هناك متمثلاً بزاوية صغيرة هي الزاوية الجنوبية الشرقية، التي تشمل مدينة غرناطة وما حولها كالمرية ومالقة ووادي شن وبعض البلدات المتفرقة.

مع ذلك فقد توقفت أنشطة حركة الاسترداد فترة طويلة، بسبب الخلافات التي ظهرت في صفوف دول ممثلي هذه الحركة، لأنهم وجدوا أن منطقة غرناطة لا تشكل ذلك الخطر الكبير الذي يثير الخوف والقلق. لكن حينما أطل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، عادت حرب الاسترداد للظهور من جديد، ساعد على ذلك وجود طبقة جديدة في المجتمع الأسباني هي طبقة (الفرسان)، التي تكونت من مجموعة كبيرة من الجنود كانت متعطشة للحرب والمعارك، من أجل صنع أمجاد جديدة وبالتالي الحصول على مزيد من الغنائم والثروات، وهي مجموعة كانت قد اعتادت على محاربة العرب بالأندلس، يضاف إلى كل هذا أن زيادة سكانية كانت قد حصلت في الجبهة الأسبانية، وكان لا بدّ من امتصاص متطلبات هذه الزيادة على جميع المستويات. لكن الذي كان أهم من كل ذلك هو الحالة المزرية للغرناطيين، هذه الحالة التي تجسّدت بخلافات عميقة ومؤثرة في صفوف حكام غرناطة من بني الأحمر، الذين فشلوا فشلاً ذريعاً في التغلب على هذه الخلافات، على الرغم من جسامة الخطر وعظمته، في الوقت الذي عجزت فيه دولة بني مرين بالمغرب الأقصى عن تقديم أي عون عسكري للحكومة الغرناطية، كما كان يحدث في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ذلك لأن هذه الدولة كانت قد دخلت في مرحلة الضعف والانهيار، فقد كان الغرناطيون قد تعلموا كما ذكرنا على معونة هذه الدولة وفترة طويلة من الزمن، من خلال قوة عسكرية كبيرة أطلقت عليها تسمية (مشيخة الغزاة)، وكان يقودها قائد عسكري يدعى (شيخ الغزاة).

وقد شغلت هذه المشيخة دوراً إيجابياً عظيماً في ميدان الدفاع عن غرناطة وما حولها، وكانت واحدة من أهم القوى الغرناطية في هذا المجال، وكان الأسبان يحسبون لها حساباً دقيقاً(٣٦).

في هذه الفترة الأخيرة من حياة العرب بغرناطة، قامت عملية وحدوية كبيرة في الجبهة الأسبانية، تجسدت باندماج دولتي قشتالة وآراغون من خلال زواج فرناندو ملك آراغون من أيسابيلا ملكة قشتالة. ووضعت هذه الدولة خطة وطنية منهجية بتنفيذ حرب مقدسة، تأخذ طابع الاستمرار والديمومة حتى يتم إسقاط آخر رمز عربي بغرناطة، والوصول بحركة الاسترداد إلى نهايتها السعيدة.

قامت القيادة الأسبانية الجديدة لحركة استرداد، بتسخير كل الموارد والقوى من أجل هذه العملية، التي غلبت على كل العمليات الأخرى، وكلفت الكثير من مئات ملايين الدينارات، اشتركت في تأمينها القيادة الأسبانية والكنيسة وجميع فئات الشعب الأسباني وخاصة أصحاب المال والثروة من النبلاء، ودعمت هذه الحرب بسلاح جديد لم يكن معروفاً في المراحل الزمنية السابقة، وهو سلاح المدفعية في الوقت الذي كانت فيه القوة العربية بغرناطة تعاني من حالة ضعف شديدة في كل المجالات، وكانت بأمس الحاجة للدعم المادي والمعنوي. ومع ذلك فقد صمدت صموداً مشرفاً ولمدة أكثر من عشر سنوات متتالية، بدأت من سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م، وانتهت في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، وقد استهلت هذه الحرب بالسيطرة على حصن الحامة، الذي باغته الأسبان في إحدى الليالي في غفلة من حاميته، ولم تتمكن القوات الغرناطية من استعادته رغم محاولتها ذلك(٣٧).

شكلت السيطرة على حصن الخامة خطراً داهماً على غرناطة، لأنه كان يشكّل رأس حربة عمق منطقة غرناطة، فهو لا يبتعد عن بساتين غرناطة أكثر من خمسة عشر ميلاً، وهو قريب جداً من الطريق الذي يصل غرناطة بميناء المرية التجاري الحيوي.

ترافق هذا الحادث المؤلم بحادث داخلي كان أشد إيلاماً وتأثيراً في جبهة الصمود الغرناطية باتجاه الهزيمة، وتجلى هذا الحادث بالخلاف الحاد الذي وقع بين أفراد الأسرة الحاكمة بغرناطة. فقد جرت صراعات حادة على السلطة، كانت لها تأثيراتها السلبية البالغة الخطورة، فبدلاً من أن تقوم الأسرة الحاكمة بتعزيز جبهة الصمود مبتدئة بنفسها كما فعل الأسبان، راحت هذه الأسرة غير الموفقة، تخوض غمار معارك داخلية من أجل الاستئثار بالحكم والسلطة، الأمر الذي استفاد منه الأسبان فائدة جمة، حينما تمكنوا من التدخل فيما يجري من خلاف في أروقة الحكم الغرناطي، وتحويل هذا الخلاف لخدمة مشروعهم الوطني، من ذلك أنهم قاموا بإطلاق سراح الزعيم الغرناطي أبو عبد الله الصغير، الذي كان أسيراً عندهم منذ فترة، واعترفوا بحكمه كسلطان شرعي على غرناطة، وقد تمكن من السيطرة على وادي آش وأعلنها مقراً رئيسياً لسلطانه، لكن الغرناطيين لم يتجاوبوا معه وصدرت فتوى بحقه، واعتبرته رجلاً خارجاً على الطاعة والجماعة، واعتبر من يعاونه مشجعاً على ارتكاب المعاصي[٣٨].

كانت الخطوة التالية التي نفذتها حركة الاسترداد، هي التقديم باتجاه رندة ومالقة، على الرغم من أن قيادة حركة الاسترداد لم تكن متفقة على ذلك، فقد كان فرناندو يرى التريث في هذه المسألة، والتركيز على ما سينتج من جرّاء الخلافات في جبهة الغرناطيين، والاستفادة منها قدر الإمكان، لكن زوجته إيسابيلا لم توافقه في مسعاها وأيدها زوجها فرناندو، بعد ذلك بدأت القوات الأسبانية بالتقدم نحو مالقة على الساحل، وفشلت في احتلالها بادئ الأمر، فتوجهت إلى رندة فتمكنت من احتلالها بسهولة، بعد أن حققت عنصر المفاجأة في العمليات الحربية، ثم عقد الأسبان مع عميلهم أبي عبد الله الصغير معاهدة جديدة، أعطوه بموجبها حكم المنطقة الشرقية من غرناطة، وهذا ما أدى إلى دخول عدد من الحصون تحت إمرته، إضافة إلى حي البيازين بغرناطة نفسها، وبذلك قامت الحرب بين المدينة نفسها وريف من أريافها[٣٩].

في غضون ذلك توجهت قوى أسبانية مرة أخرى إلى مالقة، وألقت عليها حصاراً محكماً، انعدمت بموجبه كل وسائل العون والاتصال بالخارج، فاستسلم المدافعون عنها للأسبان بشرط تأمينهم بأرواحهم وأموالهم، فرفض الأسبان ذلك ودخلوا المدينة سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م.

ساعدت السيطرة على مالقة الأسبان للتقدم باتجاه بسطة في الشرق، حيث فرضت عليها حصاراً دام مدة ثلاثة شهور، سقطت بعدها في أيديهم في سنة ٨٩٥هـ /١٤٨٩م [٤٠].

في نهاية الأمر تمكن فرناندو من إحكام سيطرته على غرناطة برمته في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، بعد عملية حصار شديدة قطعت خلالها الأغذية، وسمح لأبي عبد الله الصغير بالخروج إلى المغرب فنزل بفاس طوال حياته. وبذلك انتهت أسطورة الوجود العربي في القارة الأوروبية بعد مضي ثمانية قرون متتالية.

وقد برهنت أحداث حركة الاسترداد على هدى النضوج الوطني العظيم الذي وصله الأسبان، هذا النضوج الذي جعلهم يقاومون الوجود العربي بالأندلس بضراوة وتصميم واقتدار دون أن يملّوا أو يعتري نفوسهم بقية من تذمر أو تردّد، على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهت مسيرتهم في هذا المجال، ساعدهم في ذلك جبهة أوروبية متماسكة، وقفت معهم في كل خطوة من خطوات حرب الاسترداد منذ معركة بواتييه[٤١]. سنة ١١٤هـ/ ٧٣٣م حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

في حين لم يتمكن العرب على عادتهم القبيحة في العصور الوسطى، من أن يتخلصوا من خلافاتهم القبلية والعصبية والإقليمية والطائفية، التي بددت كل إمكاناتهم العامة وجعلتهم قوة هشة لا قيمة لها أمام الأسبان باستثناء ما جرى في عصر الخلافة الأموية وبعض المعارك التي نجحوا فيه بفعل تعاونهم، فقد فشلت الحمية الدينية وكذلك الحمية الوطنية أن تثير هممهم للتخلص من هذه الأمراض والذوبان في بوتقة الانتماء

العربي الواحد في مواجهة الانتماء الأسباني الوطني الواحد. يضاف إلى هذا فقد فشل العرب الأندلسيون في إقامة تعاون مشترك مع عرب المشرق، رغم خطورة ما كان يجري في القرنين السادس والسابع الهجريين، من تهديد للوجود العربي في الغرب والشرق من قبل الهجمات الصليبية، التي كانت شبة مستمرة، بعكس ما حدث على الجبهة الأوروبية التي وحّدت صفوفها ورافقها النجاح منذ ذلك الحين، وما زال يرافقها باطراد حتى يومنا هذا.

بقي أن نقول: إن تجربة حركة الاسترداد، هي تجربة جديرة بالقراءة والتمحيص وخاصة من قبلنا نحن العرب، لنتعلم منها كيف يكون الصبر الجميل على دروب الصعب والنضال في سبيل أهدافنا وكيف سيكون صنع الأمجاد والحريات، في وقت لا حياة فيه للضعفاء والمتفرقين.

الحواشي

(١) المقصود بذلك أسبانية والبرتغال أي الأندلس في تعبير العصور الوسطى.

(٢) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٢، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ليدن، ١٩٤٨، ص ١٧. المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج١، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٤٤ وما بعدها.

(٣) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة من فتح الأندلس**، تحقيق الأفوينتي الكنترا طبعة مدريد، ١٨٦٧، ص ١١٢، ابن عذاري، المصدر السابق، ج٢، ص ٨٨ وما بعدها.

(٤) كانت ثغور الأندلس في العصور الوسطى ثلاثة هي: الثغر الأدنى أي الأقرب إلى العاصمة قرطبة، وكان في بداية أمره في ماردة ثم انتقل إلى بطليوس في المنطقة الغربية من الأندلس، الثغر الأوسط وكانت قاعدته في مدينة طليطلة وسمي كذلك لأنه يتوسط الأندلس، الثغر الأعلى، أي الأبعد عن العاصمة وقد تمثلت قاعدته في مدينة سرقسطة في شمال شرق الأندلس.

(٥) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، طبعة مدريد، ١٩٢٦، ص ٩١-٩٢. ابن حوقل، **صورة الأرض**، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ٧٩ و ١٠٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٤، طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ، ص ٤٢٩.

(٦) أحمد بدر، **دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها**، طبعة أولى، دمشق، ١٩٦٩، ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٧) نهر التاجة: أحد الأنهار الكبيرة الهامة بوسط أسبانية، تقع عليه مدينة طليطلة التي سميت بعاصمة الثغر الأوسط.

(٨) توفي والده الناصر لدين الله سنة ٣٥٠هـ، وحكم هو من هذه السنة إلى أن توفي في سنة ٣٦٦هـ.

(٩) ابن حسان، **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس**، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ص ٧٦.

(١٠) حكم سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٩٢هـ.

(١١) ابن عداري، **المصدر السابق**، ج٣، ص ١٣.

(١٢) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، طبعة القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٣٨.

(١٣)

(١٤) الأمير عبد الله، **مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان**، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٥، ص ١٢٤-١٢٥.

(١٥) المقري التلمساني، **المصدر السابق**، ج٦، ص ٩١-٩٢.

(١٦) أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، طبعة دار المعارف دون تاريخ، ص ٢٦٠-٢٦١.

(١٧) ابن الخطيب، **تاريخ أسبانية الإسلامية أو أعمال الإعلام**، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة ثانية، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦، ص ٢٤٢.

(١٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٨.

(١٩) أشباخ، **تاريخ المرابطين والموحدين**، ج١، ص ١٣٩.

(٢٠) ابن عذاري، **المصدر السابق**، ج٣، ص ٢٨٢.

(٢١) ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج٢، تحقيق حسين مؤنس، طبعة، ١٩٦٣، ص ٩٩، ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢٢) الأمير عبد الله، **المصدر السابق**، ص ١٠٧.

(٢٣) أحمد المراكشي، **المصدر السابق**، ص ١٣٨. أحمد مختار العبادي، **المرجع السابق**، ص ٤٨٧.

(٢٤) مؤلف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، طبعة، الرباط، ١٩٣٦، ص ٧١.

(٢٥) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١، طبعة القاهرة ١٣١٢هـ، ص ١١٤.

(٢٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، طبعة القاهرة، ١٣٠٣هـ، ص ١٣٦.

(٢٧) ابن صاحب الصلاة، **المسن بالإمامة على المستضعفين**، ج٢، تحقيق عبد الهادي التازي، طبعة بيروت، ١٩٦٤، ص ٤٤٧ وما بعدها.

(٢٨) ابن صاحب الصلاة، **المصدر السابق**، ص ٢٥٤. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج١١، ص ١٥٦.

(٢٩) ابن صاحب الصلاة، **المصدر السابق**، ص ١٨٦ وما بعدها.

(٣٠) ابن عذاري، **المصدر السابق**، ص ١٢٨ وما بعدها. ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣١) الضبي، **بغية الملتمس**، ص ٣٥.

(٣٢) ابن أبي سرعة، **المصدر السابق**، ص ٢٢٣. ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج١٢، ص ١١٥.

(٣٣)

(٣٤) ابن أبي زرع، **المصدر السابق**، ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٣٥) ابن عذاري، **المصدر السابق**، ص ٢٢٥ وما بعدها.

ومن أهم هذه الحركات حركة بني غانية بالمغرب، التي ظلت مستمرة طوال حياة دولة الموحدين، وكانت من أهم الأسباب التي أضعفت الجبهة الموحدية ضد تجمع حركة الاسترداد الأسبانية.

(٣٦) ابن خلدون، **المصدر السابق**، ج٧، ص ٣٦٦ وما بعدها.

(٣٧) ابن الخطيب، **نبذة العصر في أخبار بني نصر**، ص ٦.

(٣٨) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، طبعة دمشق، ١٩٨٣، ص ٣٣٥.

(٣٩) ابن الخطيب، **نبذة العصر في أخبار بني نصر**، ص ٢٠. أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ص ٣٣٧.

(٤٠) المقري التلمساني، **المصدر السابق**، ج٦، ص ٢٧٠.

(٤١) المقري التلمساني، **المصدر السابق**، ج١، ص ٢٢٠.

طرق التقاضي وإقامة الدعاوى بالمحكمة الشرعية بالقدس ١٢٦٧-١٣١٨هـ/١٨٥٠-١٩٠٠م

دراسة من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية

الدكتور محمد صلاح الدين الحزماوي

كلية الآداب

جامعة القدس

فلسطين

طرق التقاضي وإقامة الدعاوى بالمحكمة الشرعية بالقدس ١٢٦٧-١٣١٨هـ/ ١٨٥٠-١٩٠٠م دراسة من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية

الدكتور محمد صلاح الدين الحزماوي

كلية الآداب

جامعة القدس

فلسطين

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة آلية-التقاضي وإقامة الدعاوى بمحكمة القدس الشرعية خلال الفترة ١٢٦٧-١٣١٨هـ / ١٨٥٠-١٩٠٠م، وذلك بالاعتماد على سجلات المحكمة الشرعية كمصدر رئيسي نظراً لما تحتويه من معلومات قيمة وغنية لا تتوافر في المصادر الأخرى.

وبينت الدراسة طرق رفع الدعاوى إلى المحكمة الشرعية من قبل أطراف القضية، ثم تتبعت المراحل التي تمر بها الدعوى في المحكمة وذلك من خلال إحضار الشهود وتزكيتهم سراً وعلناً، وأخيراً تعرضت الدراسة إلى انعقاد المجلس الشرعي خارج المحكمة الشرعية وذلك وفقاً لظروف القضية.

وخلصت الدراسة إلى نتائج عدة من أهمها : عدالة القضاء الشرعي، وحرص القاضي على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وذلك وفقاً للمذهب الرسمي للدولة العثمانية، إضافة إلى سرعة البت في القضايا، واتضح أيضاً بأن القاضي الشرعي كان في بعض الأحيان يستشير المفتي في بعض المسائل الفقهية التي تحتاج إلى تفسير.

المقدمة:

كان الفصل في الأحكام في المحاكم الشرعية العثمانية يتم على قاعدة المذهب الحنفي باعتباره المذهب الرسمي للدولة العثمانية، علماً أن المذاهب السنية الأخرى كان مسموحاً بها. وقد اتصف القضاء الشرعي بالمرونة وسرعة البت في القضايا، فكان الفصل في الدعاوى يتم في المحكمة الشرعية من قِبَل القاضي أو نائب الشرع، فقد كان على أطراف القضية المدعي والمدعي عليه أن من ينوب عنهما الحضور للمحكمة الشرعية وعرض القضية أمام القاضي الذي كان يقوم بالبت فيها وإصدار الحكم، وإذا اقتضت القضية بينة أو شهوداً كان الحكم يتأخر إلى حين إحضارهم وتزكيتهم سراً من قِبَل أشخاص موثوقين غالباً ما كانوا من شيوخ القرى والمحلات ومخاتيرها ووجهائها.

طرق رفع الدعاوى:

أظهرت السجلات الشرعية أن الدعاوى كانت ترفع للمحكمة بطرق ثلاث هي:

١- **الأصالة:** ويقوم المدعي في هذه الحالة برفع الدعوى إلى المحكمة الشرعية مباشرة بحضوره وحضور المدعى عليه وعرض دعوته أمام القاضي، فمثلاً "ادعى محمد بن موسى من أهالي قرية بيت أكسا[١]، على أحمد بن عيسى من أهالي القرية المذكورة.. وقال في تقرير دعواه عليه...[٢] . وقد يكون المدعي الأصيل امرأة، وفي هذه الحالة تحتاج لمن يعرف بها من المحكمة الشرعية. فمثلاً "ادعت الحرمة صبحة بنت أحمد سليم الصور باهري، الأصيلة عن نفسها والمنصوبة الآن من قبل مولانا

الحاكم الشرعي وصية شرعية على أولادها وهم موسى وعلي وفاطمة القاصرون عن درجة البلوغ أيام زوجها محمد عيسى الصورباهري... المعرف بها من علي بن سليمان الأطرش الصورباهري وحسن بن عيسى الروبي تعريفاً شرعياً على كل واحد من الحاج محمد بن عفانة وأخيه عبد الله بن محمد عفانة من القرية المرقومة الحاضرين المدعى عليهما مع المدعية الأصيلة والوصية المذكورة بالمجلس الشرعي وقالت:..."[٣].

وإذا كان طرفا الدعوى عسكريين يُشار إلى رتبتهما العسكرية والوحدة التي يخدمان فيها، ويظهر ذلك من الحجة التالي: "ادعى أحمد بن صافي من قرية لفتا[٤] النفر العسكر الشاهاني من بلوك الثامن من طابور الواحد والثلاثين من الآلاي الخامس بالقدس الشريف على عبد الله بن سعيد نازك الجاويش بالبلوك المذكور وقال في تقرير دعواه عليه..."[٥].

وقد يكون المدعي الأصيل متولياً على وقف وإذا كانت القضية متعلقة بالوقف، وفي هذه الحالة عليه إبراز حجة التولية كما في المثال التالي: "ادعى مصطفى أبو منشار المتولي على وقف شقيق جده المرحوم أحمد النجار... كما هو منصوب ومقرر بذلك من قبِل مولانا الحاكم الشرعي المأذون له بذلك إذناً شرعياً شرعاً..."[٦].

٢- **الوكالة:** وفيها يكون المدعي أو المدعى عليه أو كلاهما وكيلين شرعيين عن طرفي القضية الحقيقيين، فمن الأمثلة على القضايا التي يكون فيها المدعى وكيلاً شرعياً عن آخر "ادعى خليل بن حسين بن سرحان من أهالي قرية المالحة[٧] بالوكالة الشرعية عن محمد بن حسين الحنش من أهالي القرية المرقومة بحسب ما وكله فيما سيذُكر فيه بالمجلس الشرعيَ على الشيخ حسن بن عبد الله أبو صوي من أهالي قرية سلوان[٨] الحاضر معه بالمجلس الشرعي وقال في تقرير دعواه عليه..."[٩]. وقد يكون المدعي وكيلاً شرعياً عن أكثر من شخص وكذلك المدعى عليه، فقد ادعى محمد بن حسين الفندقجي بالوكالة الشرعية عن كل واحدة من حنفية وعيشة... على كل واحد

من رشيد وسليمان ولدي المرحوم علي أبي الهوى الطوري... وقال في تقرير دعواه..."[١٠]. وقد يكون المدعي أصيلاً والمدعى عليه وكيلاً، كما يظهر في الحجة التالية: "ادعت الحرمة عايشة بنت صلاح الدين من أهالي قرية بين حنينا[١١] على عودة الله بن بدوي من أهالي القرية المذكورة الوكيل الشرعي عن أخيه جابر بن بدوي وقالت في تقرير دعواها عليه..."[١٢].

٣- **الوكالة والأصالة:** وفي هذه الحالة يكون المدعي وكيلاً وأصيلاً في آن واحد باعتباره أحد طرفي القضية ويكون وكيلاً عن آخر غالباً ما يكون من أقربائه كزوجته أو أشقائه أو أبنائه أو أبناء أشقائه، وهذا ما تظهره الحجة التالية: "ادعى كل من عبد الله بن حسن من أهالي قرية البيرة بالأصالة عن نفسه وبالوكالة الشرعية عن ابنتيه وهما عايشة وصفية وعن ابن أخيه حسن بن أحمد الثابت وكالته عنهم فيما سيُذكر فيه بشهادة وتعريف السيد أحمد بن المرحوم الشيخ ابراهيم أفندي الداودي وابراهيم بن زايد من أهالي قرية خربثا المصباح[١٣] ثبوتاً وتعريفاً شرعيين ومن محمد بن عبد الله حسن المرقوم الأصيل عن نفسه وهم الوارثون إلى حمدية بنت حماد الأعرج زوجة المدعي الأصيل ووالدة أولاده المرقومين وابن أخيه المزبور علي محمد بن حمدان الأعرج المزبور من أهالي قرية خربثا المصباح من ناحية بني مالك[١٤] التابعة للقدس الشريف الحاضر مع المدعين المرقومين بالمجلس الشرعي وقالا في دعواهما عليه..."[١٥].

وقد يكون المدعي أصيلاً ووليّاً شرعياً على أبنائه الصغار في حال وفاة والدتهم وكان لها حصة في دين أو ورثة، مثال ذلك الدعوى التي أقامها حسن بن عبد الله بن أحمد أبو غنام من قرية الطور[١٦]، الأصيل عن نفسه والولي الشرعي على أولاده الصغار محمد ومحمد عمران وفاطمة المتولدين له من زوجته حمدة خلف بن عبد الرحمن خلف من قرية العيزرية[١٧] على علي بن محمد بن الحاج حمدان أبو غنام من قرية الطور الذي كان قد استدان من خلف بن عبد الرحمن مبلغ مائة وأربعة وثلاثين قرشاً

وست عشرة بارة، وقد توفي الدائن قبل استيفائه المبلغ وانحصر إرثه في زوجته عابدة وولديها محمد وحمدة، وفي ابنته فاطمة المتولدة له من زوجته نجمة المتوفاة في حياته، ثم توفيت عابدة وانحصر إرثها في ولديها محمد وحمدة ثم توفيت حمدة وانحصر إرثها في أولادها الكبار ابراهيم وعبد الله وموسى وحلوة وصرية ونفيسة وأولادها الصغار فاطمة ومحمد ومحمد عمران، وطالب المدعي من المدعى عليه بأن يدفع له مبلغ ثمانية عشر قرشاً وخمس بارات وهو ما يخصه وأولاده الصغار من المبلغ المستدان[١٨].

ويظهر من الطرق الثلاث السابقة أن المدعي سواء كان أصيلاً أم وكيلاً ينبغي حضوره إلى المحكمة، بينما لا يحضر من قام بتوكيله، ويشترط في حال الوكالة أن يثبت الوكيل وكالته من خلال شهود يشهدون بذلك أمام القاضي.

مراحل عرض الدعوى:

فصلت السجلات الشرعية المراحل التي تمر بها الدعوى في المحكمة الشرعية، إذ يحضر بداية المتخاصمون إلى المحكمة بمرافقة المعرفين، ويطلب القاضي من المدعي أولاً أن تقرير دعواه وإذا كانت دعواه مكتوبة تجري قراءتها فيصدق المدعي على صحة ما جاء فيها، ثم يطلب القاضي جواب المدعى عليه على الدعوى، فإذا أقرّ بذلك ألزمه القاضي بإقراره ويصدر القاضي حكمه بناءً على إقراره؛ لأن الإقرار حجة ملزمة على المقرّ[١٩]. ويظهر ذلك من المثال التالي: "ادعى جورجي بن جبر الرومي على ميخائيل بن داود الرومي... قائلاً: في تقرير دعواه أن لي بذمة المدعى عليه مبلغاً قدره وبيانه.. وأطلب ذلك بالوجه الشرعي سُئل المدعى عليه المذكور عن ذلك فأجاب طائعاً مختاراً بإقراره واعترافه... فعندها ألزمناه بدفع المبلغ المرقوم للمدعي إلزاماً شرعياً"[٢٠].

ويشير السجل الشرعي إلى أنه في حال إقرار المدعى عليه بدين للمدعي، فقد يطلب منه إمهاله لفترة زمنية حتى يتمكن من تسديد ما عليه من دين، وفي هذه الحالة يعود

الأمر للمدعي عليه وليس للقاضي، فتقول إحدى الحجج: "ادعى جبر بن عبد الجابر ابن مطرد من أهالي قرية حزما[٢١] التابعة للقدس الشريف على الحاج محمد بن حسين ابن خضر الحاضر معه بالمجلس الشرعي وقال في تقرير دعواه عليه أنه في شهر رجب سنة تاريخه قد اشترى المدعى عليه المذكور منه سبعاً وستين طبة شعير ونصف بالطبة العزيزية[٢٢]، سعر كل طبة تسعة قروش فيكون ثمن ذلك ستماية وسبعة قروش مؤجل لمضي عشرة أيام من التابع المزبور، وأن مدة الأجل قد مضت والمدعى عليه لم يدفع له شيئاً... سُئل المدعى عليه عن ذلك فأجاب طائعاً مختاراً بالاعتراف بذلك كله وطلب إمهاله بذلك مدة فلم يمهله المدعى المذكور، والتمس تحصيل ذلك منه فعندها ألزمنا الحاج محمد البيطار المدعى عليه بدفع ذلك للمدعي لاعترافه بذلك إيجاباً للشرع الشريف إلزاماً شرعياً[٢٣].

وفي حال إنكار المدعى عليه الدعوى، يطلب القاضي من المدعي بأن يأتي ببينة تثبت صحة دعواه، وتبين المادة (٧٦) من أحكام المجلة بأن المحكمة من جعل البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه "أن جانب المدعي ضعيف لأن دعواه خلاف الظاهر، فيكلف بإقامة الحجة القوية وهي البينة لأنها لا تجلب لنفسها المدعى عليه قوي، وذلك لأن الأصل فراغ ذمته مما يدعيه المدعي، لذا اكتفى منه باليمين وهي حجة أضعف من البينة لأن الحالف يجلب لنفسه النفع ويدفع عنها الضرر"[٢٤].

والبينة التي يُطلب من المدعي أو من المدعى عليه إحضارها قد تكون سندات أو شهود، وغالباً ما تكون السندات في المعاملات المالية من دين، أو رهن، أو قرض، أو بيع أو شراء، وتأتي كتابة السندات بين الأطراف لحفظ الحقوق وتوثيقها، وجاءت مشروعيتها من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتقِ الله ربه ولا يبخس منه شيئاً... ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن

تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضار كاتب ولا شهيد...[٢٥]﴾.

وتعدُّ السندات من وسائل الإثبات على أن يكون الخط والختم سالمين من شبهة التزوير والتصنيع، وقد أشارت إلى ذلك المادة (١٧٣٦) من أحكام المجلة بقولها "لا يعمل بالخط والختم وحدهما إلا إذا كانا سالمين من شبهة التزوير والتصنيع فيعمل بهما"[٢٦].

ولعل السندات العرفية أكثر السندات شيوعاً ويكتبها أصحاب العلاقة أو آخرون في حال عدم معرفتهم بالكتابة، فإذا كانت الكتابة بخط المدعى عليه أو بتوقيعه وختمه فتعتبر صورة من صور الإقرار شريطة أن تكون خالية من العبث والتزوير، فالإقرار بالكتابة كالإقرار باللسان[٢٧]. أما إذا كانت بخط شخص آخر فينبغي أن يوقع عليها شخصان يقران بأنهما حضرا مجلس العقد فيعتبر السند في هذه الحالة صورة من صور الشهادة، أما إذا كانت بخط المدعي فلا يُلتفت إليها إلا إذا وقّع عليها شخصان حضرا مجلس العقد[٢٨].

وتزخر سجلات محكمة القدس الشرعية بالكثير من القضايا التي يبرز فيها المدعي سنداً يثبت صحة دعواه، ولعل الحجة التالية توضح ذلك: "حضر يوم تاريخه أدناه لمجلس الشرع الشريف بمحكمة القدس الشريف الشرعية السيد محمد أفندي ابن المرحوم السيد عبد السلام أفندي بن عمر أفندي الحسيني من محلة باب حطة وادعى على الرجل العاقل مصطفى بن جمعة بن مصطفى من أهالي قرية بيتين[٢٩]... وقال في تقرير دعواه عليه... إنّ لي بذمة هذا المدعى عليه مبلغاً... وحرر لي على نفسه هذا السند المشاهد بالمجلس الشرعي المعنون والمرسوم على الوجه المعتاد والمتعارف الخالي عن شبهة التزوير وشائبة التصنيع وأثر الحك..."[٣٠]. وقد يبرز المدعي أكثر من سند"... وحرر لي على نفسه هذين السندين المشاهدين بالمجلس الشرعي المعنونين والمرسومين على الوجه المعتاد..."[٣١].

ولم يقتصر وجود السند كبينة بيد المدعي فقط، فقد يمتلك المدعى عليه أيضاً سنداً يبرزه في المحكمة كبينة على نفي دعوى المدعي فتنقلب دعواه عليه ويكون الحكم لصالح المدعى عليه، ويظهر ذلك في الخلاف الذي وقع بين كل من حشمة وسارة ابنتي سليمان نبهان من قرية مزارع بني زيد[٣٢]، من جهة وشقيقهما عبد الحميد من جهة أخرى حول ورثة والدهم المتوفى عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م، المشتملة على مواقع عدّة من أراضي القرية، حيث ادعت الشقيقتان على شقيقهما بأنه وضع يده على جميع الأراضي المخلّفة عن والدهن، ويرفض إعطاءهنّ حصتهن البالغة ستة قراريط وستة أسباع قيراط مناصفة بينهن وقد اعترف المدعى عليه بأنه وضع يده على جميع الأرض إلا أنه اشترى حصة شقيقتيه المدعيتين وحصصاً أخرى لثلاثٍ من شقيقاته عام ١٢٨٤هـ /١٨٦٧م، وأبرز بذلك سند الشراء، فوجد القاضي أن مضمونه مطابق لدعواه من حيث صدور البيع والشراء والإبراء العام، غير أن المدعيتين أنكرتا ذلك، فطلب القاضي من المدعى عليه بينة شرعية، فأحضر شاهدين تطابقت شهادتهما مع دعوى المدعى عليه، وزيادة للتأكيد عيّن القاضي عمران الخالدي مقيد المحكمة للكشف على المحلات المرقومة والمعاينة لذلك بحضور الطرفين وسماع شهادة الشاهدين هناك، وبعد الكشف والمعاينة شهد الشاهدان بطبق دعوى المدعى عليه فحكم القاضي الشرعي بثبوت حصة حشمة وسارة الثابتة لشقيقهن عبد الحميد..."[٣٣].

أما النوع الثاني من البينات فهو الشهود ، وقد جاءت مشروعية الشهادة من قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً[٣٤]﴾.

وعرّفت مجلة الأحكام العدلية بأنها "الإخبار بلفظ الشهادة يعني بقول بإثبات حق واحد في ذمة الآخر في حضور الحاكم ومواجهة الخصمين؟[٣٥].

ويشترط في الشاهد أن يكون عدلاً، لأن الشهادة خبر والخبر يحمل الصدق والكذب والحجة هي الخبر الصدق وبالعدالة تترجح جهة الصدق[٣٦]، كما يُشترط أيضاً أن

يكون أميناً وصادقاً ويتمتع بسمعة حسنة وبأخلاق حميدة[٣٧]. وينبغي أن تكون الشهادة مطابقة للدعوى إلا ردها القاضي، وعندئذٍ يعرفه القاضي بأنه ليس له على المدعى عليه سوى حلف اليمين الشرعي، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها مصطفى ابن محمد على مصطفى بن قاسم مدعياً عليه أنه أخذ منه خمس ليرات ذهب على أن يخلصه من الخدمة العسكرية، وقد تم ذلك على سطح دار المعدي وبحضور كل من حمد بن حماد وعبد الهادي بن عبد السلام، واستطرد في دعواه أن المدعى عليه لم يخلصه من الخدمة العسكرية فيطلب إعادة المبلغ له، ولدى سؤال القاضي المدعى عليه عن ذلك أجاب الإنكار، فطلب من المدعي بينة شرعية تثبت صحة دعواه فأحضر كل من حمد بن حماد وعبد الهادي بن عبد السلام، وجاءت شهادة الشاهد الأول مطابقة تماماً لدعوى المدعي عليه، بينما اختلفت شهادة الشاهد الثاني حيث جاء فيها "أنه بالعام الماضي بحضوره دفع المدعي للمدعى عليه مبلغ خمس ليرات عثمانية لأجل أن يخلصه من الخدمة العسكرية وذلك على سطح دار المدعى عليه مصطفى من غير حضور أحد سواه والمدعي والمدعى عليه فقط". فعندئذٍ بين القاضي للمدعي عليه بأن شهادة عبد الهادي غير موافقة لدعواه وأنه ليس له على المدعى عليه سوى اليمين الشرعي[٣٨].

وفي بعض الأحيان يتراجع المدعى عليه عن إنكاره ومطالبة المدعي بإقامة البينة الشرعية على دعواه فيقر بصحة الدعوى المقامة عليه، ويظهر ذلك من الحجة التالية: "ادعى تايه بن أحمد بن تايه على سلامة بن سالم ولد سلامة وكلاهما من أهالي قرية دير دبوان"[٣٩]... وقال في تقرير دعواه عليه أن له بذمته مبلغاً قدره وبيانه... سُئل المدعى عليه المزبور فأجاب بالإنكار، لذلك كله طلبنا من المدعي البيان الشرعي على ذلك فغاب وحضر وأحضر معه للشهادة وأدائها جناب السيد محمد كمال الدين أبو السعود فشهد بوجه المدعى عليه بطبق الدعوى فطلب منه شاهداً آخر فغاب وحضر هو والمدعى عليه وأقر واعترف المدعى عليه بالمبلغ"[٤٠].

وفي حال مطابقة شهادة الشهود المدعي لدعواه وإنكار المدعى عليه ذلك مرة أخرى بعد إنكاره صحة دعوى المدعي لدى تلاوتها في المحكمة في المرة الأولى، يطلب من المدعي عليه بينة شرعية على ذلك وإذا لم تطابق شهادة الشهود الذي يحضرهم المدعى عليه يعطيه القاضي الفرصة لإحضار غيرهم، فإذا عجز عن ذلك يصدر قرار القاضي حكمه بناءً على صحة دعوى المدعي، ويظهر ذلك من الدعوى التي أقامها يوسف بن الحاج حمدان من أهالي قرية حجة[٤١] على كل من أحمد بن مصطفى الحوتري وعبد الحافظ بن ابراهيم الحمدان وعوض بن عبد الغافر أبو جابر ومحمد ابن مصطفى الحوتري وجميعهم من القرية نفسها، وذكر في دعواه عليهم أنهم بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م، اعتدوا على ابنه عبد القادر بالضرب بالحجارة والعصي مما أدى إلى وفاته في اليوم التالي وذلك على أثر إصابته بجرح عميق من حجرين ضربه إياهما أحمد الحوتري، ولدى سؤال القاضي المدعى عليهم عن ذلك أجابوا جميعهم بالإنكار، فطلب القاضي من المدعي بينة شرعية على دعواه فأحضر كلاً من عيسى محمود الدعاس وخليل عبد الله الحاج وكلاهما من قرية حجة وشهدا بوجه المدعى عليهم بصحة دعوى المدعي فجاءت شهادتهما مطابقة تماماً لدعواه، غير أن محمد الحوتري طعن بشهادتهما مشيراً إلى أنهما "ولدا عم المدعي المرقوم، وأنه من مدة خمسة أشهر حبسهما بنابلس هما وأولاد عم المدعي حيث إنهم عقروا بقرة ثم أطلقوا من الحبس بسبب أنه يثبت عليهم ذلك ولم يلتمس يمينهم إذ ذاك" غير أن الشاهدين والمدعي أنكروا ذلك فطلب القاضي من محمد الحوتري بأن يحضر بينة شرعية على ما قرره، والمدعي المهلة ثم أحضر أربعة شهود ولم توافق شهادتهم دعواه، فطلب منه غيرهم فعجز عن ذلك، عندئذٍ طلب القاضي من المدعي تزكية شاهديه فأحضر كلاً من العبد بن عبد المجيد والعبد بن عبد الهادي وكلاهما من قرية حجة وعبد الرحمن بن عبد الحافظ الأشقر من خربة كفر تل[٤٢] وصالح بن العبد أيوب من قرية جينصافوط[٤٣] وزكوا شاهدي المدعي فقبلت شهادتهما بذلك القبول

الشرعي وعندها حكم القاضي على أحمد الحوتري بأنه القاتل وأن موجب ذلك دفع الدية المغلظة وقيمتها عشرة آلاف درهم، أما الآخرون فحكم عليهم "بالتعزيز الشديد اللائق بحالهم الرادع لهم ولأمثالهم عن قبيح فعالهم" حيث "لم يثبت عليهم سوى الضرب والجرحين الخفيفين غير المثخنين"(٤٤).

يظهر من خلال هذه القضية حرص القاضي على ضرورة مطابقة الشهادة وموافقتها للدعوى، وقد بينت ذلك المادتان ١٧٠٦ و ١٧٠٧ من أحكام المجلة، فقد جاء في المادة ١٧٠٦ أنه "يجب أن تكون الشهادة موافقة للدعوى نوعاً وكماً وكيفاً ومكاناً وزماناً وفعلاً وانفعالاً ووصفاً وملكاً ونسبة"(٤٥). وأضافت المادة ١٧٠٦ بأن موافقة الشهادة للدعوى تكون إما بصورة مطابقتها لها بالتمام أو يكون المشهود به أقل من المدعي به(٤٦). وقد تبين من خلال القضية السابقة كما أوردتها الحجة الشرعية أن شهادة الشهود الذين أحضرهم المدعي كانت مطابقة تماماً لدعواه من حيث النوع والكم والكيف والمكان والزمان والفعل والانفعال والوصف والنسبة، وبالنظر لأهمية ذلك فقد وجد أنه من المناسب أن ننقل ما ورد في الدعوى فيما يتعلق بوصف المدعي بطريقة الاعتداء، ووصف الشهود لذلك بالرغم من تكرار الوصفين، مما يدل على أن القاضي الشرعي كان يبدي اهتمامه بسماع التفاصيل الدقيقة للقضية، فقد ذكر المدعي بأنه "قبل العصر بنصف ساعة من يوم السبت الواقع في السابع من جمادى الثانية سنة إحدى وثمانين ومايتين وألف، كان ولده عبد القادر المذكور متوجهاً من جامع قرية حجة المزبورة لأجل أن يملأ إبريقه ماء من مضافتها، فلما وصل قريباً من باب المضافة بالطريق الواقعة بين المضافة والجامع المعلومين هناك بالعلم الشرعي لاقاه المدعى عليهم المزبورون فأحدهم هو محمد الحوتري المذكور، مسكه وضربه هوايتين بيده على أنفه وسال الدم من ذلك، ثم أخذ عوض المذكور الإبريق الفخار من يد ولدي عبد القادر وهو ملآن ماء وضربه في وسط رأسه وجرح من ذلك جرحاً خفيفاً غير مثخن، وذلك بسبب أن محمد الحوتري المرقوم ذلك اليوم، تشاجر مع حسين بن أحمد الحسين

بخصوص دعوة بد، ثم هرب عبد القادر المذكور من المدعى عليهم ووقف على حائط سطح بدّ جبرا الشرقية الواقع البد المذكور قبلي المضافة المرقومة قريباً منها المعلوم ذلك بين المتداعيين وفي محله العالم الشرعي، ثم لحقه أحمد الحوتري وعبد الحافظ ابراهيم المرقومين، فأحمد الحوتري المرقوم ضرب عبد القادر المرقوم وهو على الحائط المرقومة بحجرين صغيرين مكببين وزن كل حجر نحو ثلاث أواق أصاباه بقفا رأسه وجرح من ذلك جرحاً مثخناً مهلكاً لا يتوهم العيش بعده حتى ظهر مخه من ذلك، وبالحال وقع على أرض سطح البد مغشياً عليه وصار الدم ينزف من ذلك ثم بعد ذلك ضربه عبد الحافظ المرقوم بعود حطب مبروم كان معه على ضلعه الأيسر ضربتين خفيفتين غير مهلكتين وأن ذلك كله كان عمداً، وقد صار عبد القادر المذكور صاحب فراش وفي الساعة الرابعة من ليلة الأحد الثامن من جمادى الثانية سنة إحدى وثمانين ومايتين وألف المرقومة مات عبد القادر المذكور متأثراً بسبب الجرح المثخن الذي جرحه إياه أحمد الحوتري المرقوم بالحجرين المزبورين"[٤٧].

أما شهادة الشاهدين فجاءت مطابقة تماماً للدعوى السابقة حيث جاء فيها "قبل العصر بنصف ساعة من يوم السبت السابع من جمادى الثانية سنة إحدى وثمانين ومايتين وألف كان عبد القادر ولد يوسف الحاج حمدان المذكور متوجهاً من الجامع ليملأ إبريقه ماء من المضافة، فعند قرب باب المضافة بالطريق الواقعة بين الجامع والمضافة لاقاه المدعى عليهم المزبورون وأن محمد الحوتري مسكه وضربه بيده هوايتين على أنفه وسال الدم من ذلك ثم أخذ عوض الإبريق المذكور من يد عبد القادر وهو ملآن وضربه في وسط رأسه وجرح من ذلك جرحاً خفيفاً غير مثخن وذلك للسبب المرقوم، ثم هرب منهم عبد القادر ووقف على حائط سطح بد جبرا الشرقية، ثم لحقه أحمد الحوتري وعبد الحافظ الابراهيم المرقومين فأحمد الحوتري ضربه بحجرين صغيرين مكببين وزن كل حجر نحو ثلاث أواق، أصابه بقفا رأسه وجرح من ذلك جرحاً مثخناً مهلكاً مزهقاً لا يتوهم العيش بعده حتى ظهر مخه من

ذلك، وبالحال وقع على أرض سطح البد مغشياً عليه وصار الدم ينزف من ذلك، ثم بعد ذلك ضربه عبد الحافظ بعود حطب مبروم كان معه على ضلعه الأيسر ضربتين خفيفتين غير مهلكتين، وأن كل ذلك كان عمداً من المدعى عليهم وقد صار عبد القادر صاحب فراش وفي الساعة الرابعة من ليلة الأحد الثامن من جمادى الثانية سنة إحدى وثمانين مايتين وألف مات عبد القادر متأثراً بسبب الجرح المثخن الذي جرحه إياه أحمد الحوتري.."[٤٨].

ويتضح أن كلاً من الدعوى والشهادة في هذه القضية كانتا متطابقتين تماماً، غير أنه من اللافت للنظر أن والد المقتول وهو المدعي لم يكن حاضراً وقت الحادث وبالتالي فمن الواضح أنه اعتمد في روايته على وصف الشاهدين لذلك، فجاءت تفاصيل الدعوى وفقاً لما سمعه من الشاهدين مما يعني مسبقاً مطابقة الدعوى للشهادة.

ومن جهة أخرى فقد اتضح عدم مطابقة شهادة الشاهدين اللذين أحضرهما أحمد الحوتري لدعواه مما جعل القاضي يرفض شهادتهما ويعطيه المجال لإحضار شهود غيرهم فعجز عن ذلك، ويظهر ذلك مدى حرص القاضي الشرعي على التحقق من ملابسات القضية قبل إصدار الحكم بشأنها.

وبالرغم من أن القاضي يقوم بالتحقق في حال اتهام أحد الطرفين للشهود بعدائهم له وأنه سبق أن اشتكى عليهم وتم حبسهم، فالقاضي في هذه الحالة يتحقق من الأمر وذلك بأن يبعث بمذكرة إلى الجهات المسؤولة كمحكمة الجزاء أو الادعاء العام للاستفسار عن ذلك لمراجعة الملفات والقيود للتأكد من ذلك[٤٩]. غير أنه في القضية السابقة لم يقم بذلك بالرغم من طعن أحمد الحوتري بشاهدي المدعي مشيراً إلى أنه سبق أن اشتكى عليهم وتم حبسهم في سجن نابلس، ولعل عدم قيام القاضي التحقق من ذلك أن الحوتري اعترف بأن الشاهدين خرجا من السجن لعدم ثبوت التهمة عليهم، ولذلك فلا ضرورة هنا بأن يقوم القاضي بالتحقق نظراً لبراءة الشاهدين باعتراف المدعى عليه.

وفي حالة تعذر وجود الشاهد في المحكمة لأسباب مختلفة يقتنع بها القاضي كوجوده بالخدمة العسكرية في مناطق بعيدة عن مكان وجود المحكمة، فيحق له أن يوكل من ينوب عنه لأداء الشهادة، وفي هذه الحالة يعرف الشاهد الموكل باسم شاهد الأصل بينما يعرف الشاهد الموكل له باسم شاهد الفرع، وتوضح الحجة التالية ذلك "حضر لمجلس الشرع الشريف كل واحد من أحمد بن محمد من أهالي حماة الجاويش بالبلوك الثاني من الطليعة الثالثة ومحدين ولد رمون من أهالي أورفة النفر بالبلوك المذكور المقيمين مع بلوكهما بالقدس الشريف وهما شاهدا أصل وحضر بحضورهما كل واحد من حسين آغا بن أحمد بن حسن آغا من محلة العقيبة من محلات الشام، وعبد الكريم الداغستاني من محلة مأذنة الشحم، من محلات الشام، وهما شاهدا فرع وحمل كل من شاهدي الأصل شهادته الآتي ذكرها لشاهدي الفرع المرقومين قائلين: إنه عندما كنا نحن في الشام بالعام الماضي أقر لنا السيد مصطفى أفندي بن أحمد من أهالي ديار بكر الكاتب الأول بالكمرك بدمشق الشام بقوله عندي وبذمتي دين شرعي عشر ليرات ذهب عثماني إلى ابراهيم بن محمد اليوزباشي بالبلوك المذكور الباعث هذا الكتاب المحضر معهما ونحن نشهد على إقراره إلا أنه الآن وبسبب وجودنا بالقدس بالمأمورية وبُعد الشام لا يمكن لنا أن نذهب ونشهد عليه، حملت عليكما شهادتنا هذه فأنتما اشهدا بشهادتنا هذه هناك، فقبل المرقومان الشهادة المرقومة وتعهدا بأدائها على طريق الشهادة تعهداً شرعياً..."(٥٠).

ويُلاحظ أن الشهادة لم تكن مقتصرة على أشخاص من طائفة واحدة حتى ولو كان طرفا الدعوى من الطائفة نفسها، إذ يمكن للمسلمين أن يشهدوا مع المسيحيين واليهود والعكس، ويظهر ذلك التسامح الديني في مدينة القدس والعلاقات الحسنة السائدة بين مختلف الطوائف الدينية، ومثال ذلك الدعوى التي أقامها رشيد بن علي بن نجم الوكيل الشرعي عن بكري نسيبة وشقيقه سليم على رهبان الإفرنج بدير العامود بالقدس والمتضمنة ما للموكلين من حكر سنوي يبلغ ستة وعشرين قرشاً على محل بيد

الرهبان، وقد استدعى الرهبان للشهادة الحاج محمد علي أفندي الخالدي نائب الشرع بالمحكمة الشرعية بالقدس، وجاءت شهادته لصالح الرهبان"[٥١].

وقد زكّى مسلم شهادة مسيحي، ويظهر ذلك في الدعوى التي أقامها حنا بن أنطون فليفل اللاتيني على يوسف بن طلماس اللاتيني حول شراء المدعى عليه من المدعي جملة أغراض لم يقم بدفع ثمنها، وقد أحضر المدعي شاهدين على دعواه هما خليل بن خليل الأعمى اللاتيني وعبد الله بن جبرائيل فراعة اللاتيني وقد قبلت شهادتهما بعد أن زكاهما بالسر كل من سعيد البطارسة وخليل بن أندريه البطارسة ومحمد حسين الفاعوري[٥٢].

التزكية بالسر:

إذا أقر المدعى عليه بصدق الشهود وعدالتهم، فيكون بذلك أقرّ بالمشهود به أو المدعى به، وعندئذٍ يصدر القاضي حكمه بناءً على إقرار المدعى عليه، وفي مثل هذه الحالة لا ضرورة لتزكية الشهود[٥٣]. أما إذا طعن المدعى عليه بعدالة الشهود فعلى القاضي أن يتحقق من نزاهتهم عن طريق تزكيتهم سراً وعلناً وتُعرف التزكية السرية باسم "الرقعة المستورة" وبموجبها يقوم القاضي بتحرير ورقة يكتب عليها اسم المدعي والمدعى عليه به وأسماء الشهود وشهرتهم وصنعتهم وأشكالهم ومحالهم وأسماءهم، وأحياناً يكتفي بأسمائهم وشهرتهم إن كانوا مشهورين ويضعها في ظرف مختوم وتُرسل إلى من تم تعيينهم للتزكية السرية بوساطة محضر المحكمة[٥٤]. وغالباً ما يكون هؤلاء الأشخاص من مخاتير القرية أو المحلة التي يقطن فيها الشهود، أو من الأشخاص المعروفين بالصدق والأمانة[٥٥]. فإذا كان فالشهود عدولاً يكتب المزكي تحت اسم كل منهم عبارة عدل ومقبول الشهادة، غير أن المزكي إذا علم قبل ترشيحه للتزكية السرية بأن دعوى المدعي باطلة أو أن الشهود أوهموا في بعض الشهادة فينبغي عليه أن يبين للقاضي ما صحّ عنده من عدالة الشهود وإيهامهم في بعض

الشهادة أو بطلان دعوى المدعي وفي هذه الحالة ينبغي أن يتفحص القاضي عما أخبر به المزكي فإذا تبين له حقيقة ما أخبره به المزكي رد شهادة الشهود وإن لم يتبين له قبلها[٥٦].

أما إذا لم يكن عدولاً فيكتب المزكي بأنهم ليسوا بعدول ويمضي تحت شهادته ويغلف الظرف ويختمه ويعيده مع محضر المحكمة دون أن يعلم المحضر مضمون الشهادة[٥٧]. وإذا لم يكتب المزكي ما يفيد بأن الشهود عدول مقبولو الشهادة يكتب كلاماً يفيد الجرح صراحة أو دلالة بأنهم غير مقبولي الشهادة أو ليسوا بعدول، أو لا علم به بحالهم، أو أنهم مجهولوا الأحوال، أو الله أعلم، ففي هذه الحالة لا يقبل القاضي بشهادة الشهود دون القول للمدعي بأن شهوده جرحوا بل يطلب منه إحضار غيرهم[٥٨]. وإذ عدل بعض المزكين الشهود وجرحهم بعضهم يرجح جانب الجرح ولا يحكم القاضي بشهادة أولئك الشهود[٥٩]. وإذا ثبتت عدالتهم بالتزكية ثم شهدوا بدعوى أخرى بحضور القاضي نفسه خلال ستة أشهر من تزكيتهم في المرة الأولى فالقاضي يقبل بشهادتهم دون أن يعرضها على مزكيين[٦٠].

وبعد إتمام التزكية السرية تجري التزكية العلنية بأن يحضر المزكون أمام القاضي بحضور طرفي القضية وتتم تزكية الشهود علناً من شخصين آخرين، وإذا لم يحضر الطرف الذي طعن بشهادة الشهود للمحكمة لإتمام المحاكمة وإنهاء القضية بعد تبليغه من قِبل محضر المحكمة ثلاث مرات بأيام متفاوتة يصدر القاضي حكمه مستنداً في ذلك إلى المادة ١٨٣٠ من أحكام المجلة[٦١].

وقد أوردت سجلات المحكمة الشرعية الكثير من القضايا التي طعن فيها أحد الطرفين بشهود الطرف الآخر، مدعياً أن شهادتهم غير مقبولة وأنهم متحيزون للطرف الآخر، كأن يدعي بأن يوجد بينه وبين هؤلاء الشهود عداوة قديمة، أو أن لهم مصلحة في الشهادة أن يتهمهم بتقاضي الرشوة[٦٢]. فتذكر إحدى الحجج مثلاً أن كلاً من عبد اللطيف بن عثمان ويوسف بن مصطفى المصري وعلي بن محمود بن أحمد وعبد

الجليل بن عبد الرحمن عثمان وهم من أهالي قرية بالمدينة ومعرفتهما بالشهود لاسيما أن كلاً منهما ينتمي إلى قبيلة، ومن الممكن أن نتوصل من خلال هذه القضية إلى نتيجتين الأولى أن وجود الأطراف جميعها (المدعي والمدعى عليه والشهود والمزكين) بمدينة القدس خلال فترة إقامة الدعوى والبت فيها من قبل القاضي ربما كان لأغرض تجارية. أما النتيجة الثانية فهي أنه ربما طلب القاضي من الشهود بتزويده بأسماء مجموعة من الأشخاص لتزكيتهم وأماكن وجودهم، وكان المزكون من بين هذه الأسماء، ولما كانا موجودين في تلك الفترة بمدينة القدس ونظراً لصعوبة المواصلات في ذلك الوقت فقد وقع اختيار القاضي عليهما لتزكية الشهود.

وفي بعض الحالات التي يطعن فيها المزكون بعدالة الشهود، يطلب القاضي من الطرف الذي أحضرهم بأن يأتي بشهود آخرين، ثم يجري تحرير ورقة أخرى لتزكيتهم وترسل إلى نفس المزكين السابقين، وقد يحصل أن يطعن المزكون مرة أخرى بعدالة الشهود الجدد، عندئذٍ لم يبقَ أمام الطرف الذي جاء بالشهود إلا أن يحلف الطرف الآخر اليمين الشرعي، ويظهر ذلك في الدعوى التي أقامها حمدان بن أحمد محمد عادي على صبحة بنت صبح محمد زيدان وكلاهما من قرية بيت إكسا والمتعلقة بطلاقها منه، ولدى الطلب من المدعى عليها ببينة على دعواها بالطلاق من زوجها أحضرت ثلاثة شهود من القرية نفسها غير أن حمدان طعن بشهادتهم فأرسلت أسماؤهم للتزكية السرية لكل من حسن محمد ومحمد خليل مختاري القرية وكانت إجابتهما بأنهم غير مقبولي الشهادة، فطلب القاضي من المدعى عليها إحضار شهود آخرين فأحضرت ثلاثة شهود آخرين غير أن المدعي طعن بشهادتهم واتهمهم بتقاضي الرشوة، مما جعل القاضي يلجأ إلى تزكيتهم سراً فأرسلت أسماؤهم إلى مختاري القرية السابقتين وجاءت إجابتهما بأنهما غير مقبولي الشهادة"[٦٩].

وتشير السجلات إلى أن القاضي يتراجع في بعض الأحيان عما أصدره من حكم في قضية معينة بعد إقرار عدالة الشهود بموجب الرقعة المستورة، ويكون ذلك في ضوء

الكشف عن حقائق وأدلة جديدة لم تتوافر لدى القاضي لدى إصداره الحكم في القضية. ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها أحمد بن عبد الرحمن بن ذيب من قرية بني سهيلا[٧٠] قضاء غزة على عبد الحليم بن علي بن ياسين من قرية الطيرة[٧١] قضاء يافا، ومضمونها أن المدعي اشترى جملاً منذ خمس سنوات من سلام بن نصار الزريعي من عرب الترابين قضاء غزة بمبلغ ست ليرات فرنساوي وريال ومجيدي، وقد تمت عملية البيع في قرية بني سهيلا بحضور عدد من الشهود من القرية نفسها، فيما بعد فقد منه الجمل في قرية بئر صميل[٧٢] قضاء الخليل، ثم وجده لدى المدعى عليه، ولدى سؤال القاضي للمدعى عليه عن ذلك أجاب بأنه اشترى الجمل قبل ست سنوات من سليمان بن عيسى العقيلي بسوق اللد بمبلغ ثلاثين ريالاً مجيدياً، واستشهد بأحد عشر شاهداً من قريته، ولما كانت بينة المدعى عليه مرجعة على بينة المدعي لسبق دعواه الشراء طلب البينة الشرعية على دعواه، فأحضر شاهدين من قريته (الطيرة) وشهدا بصحة ما قاله، وتمت تزكيتهما سراً من مختاري قرية الطيرة وعلناً من شخصين آخرين، فأصدر القاضي حكمه بمنع المدعي من التعرض للمدعى عليه لثبوت سبق دعواه شراء الجمل[٧٣].

غير أنه وبعد أقل من أسبوعين على إصدار الحكم حضر لمحكمة القدس الشرعية سلامة بن نصار بن سويلم وادعى على عبد الحليم بن علي بن ياسين (المدعى عليه سابقاً) قائلاً: إن الجمل ملك له نتج عن ناقته منذ ثماني سنوات، وباعه منذ خمس سنوات بمبلغ ست ليرات وريال مجيدي لأحمد بن عبد الرحمن بن ذيب (المدعي في القضية السابقة)، ثم فقد الجمل قبل عام من صاحبه في قرية بئر صميل ثم وجده لدى عبد الحليم ياسين، غير أن المدعى عليه أنكر ذلك وأعاد ما قاله في القضية الأولى، عندئذٍ لجأ القاضي إلى التحقق من سن الجمل فأحضر اثنين من ذوي الخبرة والمعرفة، وبعد معاينتهم الجمل وفحص أسنانه ذكروا للقاضي بأن سنه حوالي ثماني سنوات، فطلب القاضي من عبد الحليم ياسين بينة شرعية تثبت صحة ما قاله فأحضر

شاهدين من قرية بني سهيلا شهدا بصدق دعواه ثم تمت تزكيته سراً من مختاري القرية فقبلت شهادتهما، وطلب القاضي من عبد الحليم ياسين الحضور للمحكمة من أجل إتمام المحاكمة وتزكية الشهود علناً فغاب من مجالس الحكم بعد أن أرسل له ثلاث مرات، عندئذٍ وبناءً على طلب سلامة الزريعي وتوفيقاً لأحكام المادة (١٨٣٠) من مجلة الأحكام العدلية عقد القاضي مجلساً شرعياً وتمت فيه تزكية الشاهدين علناً ثم صدر الحكم بثبوت ملك أحمد عبد الرحمن للجمل[٧٤].

ويُستنتج من هذه القضية أن الشهود في القضية الأولى لم يكونوا عدولاً بالرغم من تزكيتهم بموجب الرقعة المستورة، وعلى الأرجح أنهما تقاضيا الرشوة من عبد الحليم ياسين مقابل شهادتهم، أما فيما يتعلق بالمزكين سراً وهما مختارا قرية الطيرة التي يقيم فيها الشاهدان فلا نستطيع الجزم بأنهما أيضاً تقاضيا الرشوة من المدعى عليه، كما لا نجزم أيضاً بنزاهتهما في تزكيتهما الشاهدين، خاصة أن المزكين سراً في كثير من الأحيان يكونون من القرية نفسها التي يقيم فيها الشهود ولعل المخاتير كانوا من أكثر الأشخاص الذي يرشحون لتزكية الشهود سراً، وهذا يعني أن التزكية السرية في كثير من الأحيان لم تكن سرية معناها الدقيق.

تحليف المدعى عليه:

في حال إقرار المدعي بعجزه عن إقامة البينة الشعرية على دعواه، يطلب تحليف المدعى عليه، فالقاضي لا يوجه اليمين إلى المدعي عليه إلا بطلب من المدعي وتكون بتكليف من القاضي، فإذا حلف المدعي عليه بطلب من المدعي دون تكليف من القاضي فلا يكون يمينه معتبراً، وهذا ما أوضحته المادة (١٧٤٧) من المجلة حيث جاء فيها "إذا حلف المدعى عليه بطلب من الخصم قبل أن يكلفه الحاكم فلا يعتبر يمينه ويلزم أن يحلفه الحاكم مرة أخرى"[٧٥].

وجاءت مشروعية حلف اليمين من قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا

يزكيهم ولهم عذاب أليم[٧٦]﴾. وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم واحفظوا إيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون[٧٧]﴾. وقوله تعالى أيضاً: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون [٧٨]﴾.

غير أن اليمين لا يزيل الحق وإنما يقطع الخصومة، فحق المدعي لا يبطل بيمين المدعى عليه، إلا أنه ليس له أن يخاصمه بعد ذلك ما لم يقم البينة وفق دعواه فإن وجد بينة أقامها وقضي له بها[٧٩]. ويظهر ذلك في المثال التالي: "ادعى جريس بن عوض القبطي على يوسف بن لويس الفران اللاتيني قائلاً في تقرير دعواه عليه أن له بذمته مبلغاً قدره وبيانه... سُئل المدعى عليه عن ذلك فأجاب بالإنكار لذلك كله رأساً واحداً فعند ذلك طلب مولانا الحاكم الشرعي من المدعي المذكور بينة شرعية تشهد له بما ادعاه... فأجاب بالعجز عن البينة والتمس يمين المدعى عليه فعند ذلك حلّفه مولانا الحاكم الشرعي الحلف الشرعي ومنع جريس القبطي من دعواه المنع الشرعي منعاً شرعياً"[٨٠].

وتشير بعض الحجج الشرعية أنه في حال عجز المدعي عن إقامة البينة الشرعية لا يطلب تحليف المدعى عليه ويعفو عن يمينه. ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها سليمان موسى أبو خاطر على خليل بن عبد القادر أبو تايه وكلاهما من قرية سلوان، ولدى إنكار المدعى عليه الدعوى طلب من المدعي إقامة البينة الشرعية على دعواه فعجز عن ذلك "والتمس كل من الطرفين الحكم الشرعي في ذلك فعندها عرفنا المدعي المرقوم حيث عجزت عن إقامة البينة البيان الشرعي على دعواك المذكورة فليس لك على المدعى عليه سوى اليمين الشرعي فأبى عن تحليفه وعفا عن يمينه

فعند ذلك منعنا المدعي المرقوم من المعارضة للمدعى عليه المزبور بخصوص ذلك العجز عن البيان إيجاباً لشرع الشريف منعاً شرعياً"(٨١).

وتبين السجلات أنه في بعض الأحيان يكون المدعى عليه حراثاً عند شخص آخر، ويدعي آخر بأن الحيوان الذي يستخدمه الحراث هو ملكه وقد سرق منه، وفي هذه الحالة يطلب من المدعي بينة شرعية على ذلك فإذا عجز يجري تحليف الأجير بأنه يعمل بالأجرة، وأن الحيوان الذي يستخدمه ليس ملكه بل ملك الشخص الذي يعمل عنده، فذا حلف يطلب منه بينة شرعية تثبت ملكية معلمه للحيوان، والحجة التالية توضح ذلك: "ادعى يعقوب ولد ميناس الأرمني المرعشلي على محمد بن القادر من أهالي بيروت الحاضر معه بالمجلس الشرعي وقال في تقرير دعواه عليه أن الفرس الزرقة هي فرسه... وأنه من مدة سنة وشهرين فقدت من عنده والآن وجدها تحت المدعى عليه ويريد أخذها منه بالوجه الشرعي، سُئل المدعى عليه عن ذلك فأجاب بأن الفرس المرقومة... هي ملك سعد الدين ابن حوت من أهالي بيروت وأنه هو أجير مع الفرس المرقومة... طلبنا من الدعي المذكور بينة شرعية تشهد له على إقرار المدعى عليه المذكور فعجز عن إثبات ذلك والتمس فحلف اليمين الشرعي، فطلبنا أيضاً من محمد المدعى عليه بينة شرعية تشهد له أن الفرس المذكورة ملك سعد الدين المرقوم وأنه خادم عليها، فغاب وحضر وأحضر للشهادة وأدائها كل واحد من محمد ابن مصطفى المكوك من أهالي بيروت ومحمد بن حسن وهبة من أهالي صيدا فشهدا بوجه يعقوب المدعي ما أجاب به المدعى عليه فقبلت شهادتهما..."(٨٢).

وفي حالات أخرى قد يتراجع المدعي عن دعوته ويقر بأنها باطلة ولا حق له على المدعى عليه، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها أحمد حماد من قرية يالو(٨٣) على "فخر الأماجد الكرام الحاج مصطفى أبو غوش" ومضمونها أن المدعى عليه تعهد بكفالة "فخر المشايخ الكرام الشيخ اسماعيل بن الشيخ عبد الرحمن أبو غوش" الذي قام عام ١٢٥٧هـ /١٨٤١م بقتل أبي بكر بن حماد شقيق المدعي، وقد تعهد المدعى

عليه بكفالة القاتل بدفع دية المقتول غير أنه لم يلتزم بذلك، ولدى سؤال القاضي للمدعى عليه عن ذلك أجاب بالإنكار فطلب القاضي من أحمد حماد بأن يأتي ببينة شرعية على دعواه فعجز عن ذلك ثم حضر إلى المحكمة وأقر أمام القاضي أن دعواه باطلة ولا حق له على الحاج مصطفى أبو غوش"(٨٤).

ويتضح من هذه الحجة ومن خلال الألقاب التي خوطب لها كل من مصطفى أبو غوش واسماعيل أبو غوش الجاه والنفوذ اللذان كانا يتمتعان به وهو مستمد من قوة عائلة أبو غوش في منطقة جبل القدس التي كانت تعدُّ من أبرز العائلات الإقطاعية في ذلك الوقت وأكثرها نفوذاً وقوة، إذ كانت تتولى زعامة اليمنيين في جبل القدس ولعل المدعي اضطر لأن يتنازل عن دعواه أمام التهديد والقوة ولاسيما أن مصطفى أبو غوش كان يعدّ القائد السياسي والعسكري للحزب اليمني، وقد وصفه القنصل البريطاني في القدس بأنه "خص ذو حضور طاغ"(٨٥).

وفي حال اختلاف الطرفين (المدعي والمدعى عليه) حول قيمة الشيء المدعى به يطلب من المدعي البينة الشرعية على دعواه الزيادة في ثمن السلعة وإذا عجز عن ذلك يلتمس يمين المدعى عليه على ذلك، فإذا امتنع عن حلف اليمين يطلب منه البينة الشرعية على دعواه بالقيمة التي ذكرها، وإذا عجز عن إقامة البينة فله الحق بأن يلتمس يمين المدعي، وهذا ما توضحه الحجة التالية: "ادعى يعقوب بن ميخائيل بن جريس كتن... على يعقوب بن حنا قندلفت... قائلاً في تقرير دعواه عليه أنه في العام الماضي بعت المدعى عليه خمسة أرطال شمع قيمة كل رطل خمسة وأربعون قرشاً ولي بذمته ليرة إنكليزي وريال مجيدي من جهة القرض جملة المبلغين ٣٨٩٠٥ قرش، وأنكر الزيادة، أما بخصوص الليرة الأنجليزي فقد اشترى فيها حطباً للمدعي بحسب طلبه وسلمه له وأنكر أخذ الريال المجيدي... فطلب من المدعي البينة الشرعية على دعواه الزيادة... فعجز عن إقامة البينة... والتمس يمين المدعى عليه على ذلك، فامتنع المدعى عليه أن يحلف اليمين الشرعي ثم طلب من المدعى عليه البينة

الشرعية على دعواه الإذن من المدعي بشراء الحطب فعجز عن إقامة البينة... والتمس يمين المدعي... فحلف المدعي... فعند ذلك ألزم المدعى عليه بدفع مبلغ ٣٨٩,٥ قرشاً للمدعي لاعترافه بذلك ولعجزه عن إقامة البينة"[٨٦].

وتشير السجلات الشرعية إلى أنه في الحالات التي تكون فيها الدعوى متعلقة بالقتل، وإقامة الدعوى من قبل شخص آخر بناءً على اعتراف المدعى عليه لآخرين بالقتل المعتمد حسب ادعاء المدعي، ففي هذه الحالة يسأل القاضي المدعى عليه عن ذلك فإذا أنكر يطلب القاضي من المدعي إقامة البينة الشرعية على دعواه بالقتل المتعمد، وفي حال عجزه عن ذلك فله الحق في تحليف المدعى عليه عن ذلك، فإذا حلف يطلب القاضي بعد ذلك من المدعي البيان الشرعي على دعواه إقرار المدعى عليه بالقتل، وتكون البينة في هذه الحالة شهوداً فإذا تطابقت شهادة الشهود للدعوى بإقرار القاتل وقبول الشهادة فعندها يصدر القاضي حكمه على المدعى عليه بدفع دية القتيل لورثته، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها أحمد بن مصلح بن أحمد سمرين من قرية القباب[٨٧] بالأصالة عن نفسه وبالوكالة الشرعية عن والدته على أحمد بن شتات بن محمد عبد الله من القرية نفسها والمتضمنة قيام المدعى عليه بقتل شقيق المدعي محمد ابن مصلح بن أحمد سمرين قتلاً متعمداً بغير وجه حق، وأن المقتول قد صرح قبل وفاته بأن المدعى عليه هو الذي قام بإطلاق النار عليه وأضاف المدعي بأن علاقة القاتل بالمقتول كانت عدائية، وذكر أيضاً أن المدعى عليه القاتل أقر لشخصين مختلفين بأنه هو الذي قام بعملية القتل وبشكل متعمد وذلك بقوله لهما: "ما ارتحت حتى قتلت محمد مصلح"، ولدى سؤال القاضي للمدعى عليه أنكر ذلك عندئذٍ طلب القاضي من المدعي إقامة البينة الشرعية على دعواه القتل المتعمد، وبعد إمهاله فترة زمنية حضر للمحكمة وبيّن للقاضي بعجزه عن ذلك، وهنا يطلب المدعي تحليف المدعى عليه "فحلف اليمين الشرعي المتوجب عليه بالقتل المتعمد الحلف الشرعي"، وبعد ذلك طلب القاضي من المدعي البينة الشرعية على دعواه الإقرار المطلق لبعض

الأشخاص من قِبل المدعى عليه بقيامه بالقتل، فأحشر كلاً من محمد بن ابراهيم بن حسن وحسن بن حسين بن حسن كلاهما من القرية نفسها فهما الشخصان اللذان أقرّ لهما القاتل بذلك في المكانين المختلفين، وقد شهد كل منهما أمام القاضي بإقرار القاتل له بقتل محمد بن مصلح فجاءت شهادتهما لدعوى المدعي بالإقرار فقبلت شهادتهما بعد تزكيتهما وفرض القاضي على أحمد شتات بدفع الدية لورثة المقتول ومقدارها عشرة آلاف درهم(٨٨).

وفي قضية أخرى مشابهة في بعض حيثيتها للقضية السابقة، من حيث عدم وجود إقرار من قِبل المدعى عليه بقيامه بالقتل، ففي مثل هذه الحالة ينبغي على المدعي إقامة البينة الشرعية فإذا عجز عن ذلك، فليس له على المدعى عليه سوى اليمين الشرعي، وقد يرفض المدعي تحليف المدعى عليه وذلك نتيجة لقناعته بارتكاب المدعى عليه بعملية القتل بحكم العلاقات العدائية بين الطرفين غير أنه لا يوجد لديه ما يثبت قيام القاتل بعملية القتل فيرفض تحليف اليمين ريثما تتوافر لديه الأدلة يبرزها للقاضي في المستقبل لإثبات دعواه، ومن الأمثلة التي توضح ذلك الدعوى التي أقامها محمد بن محمود بن محمد قعدان من قرية مزارع بني زايد على كل من أحمد وسالم من القرية نفسها بأنهما قتلا شقيقه حمد قتلاً متعمداً، وذلك بأن أخذاه إلى قرة فرخة(٨٩) وكان بين شقيقه والمدعى عليهما خلاف على زيتون قام المدعى عليهما بأخذه من والد المدعي بالقوة والقهر، وبعد خمسة أيام وجدت جثة شقيقه بالقرب من أراضي قرية فرخة، ولدى سؤال القاضي للمدعى عليهما أجابا بالإنكار فطلب من المدعي البينة الشرعية على دعواه فعجز عن ذلك، ثم أمهله القاضي فترة لإقامة البينة فعجز مرة أخرى، عندئذٍ عرفه القاضي بأن ليس له على المدعى عليهما سوى اليمين الشرعي، غير أنه رفض ذلك دون أن يذكر بأنه عفا عن يمينيهما(٩٠).

النكول (الامتناع) عن اليمين:

يعرض القاضي على المدعي الذي يعجز عن إقامة البينة الشرعية على دعواه تحليف المدعى عليه لأن التحليف من حق المدعي، فإذا طلب ذلك يعرض القاضي على المدعى عليه حلف اليمين فإذا حلفها ترد الدعوى، وإذا أنكل يكرر القاضي عليه حلف اليمين مرتين متتاليتين وإذا أصر على نكوله عندئذٍ يأخذ القاضي بالنكول ويعتبره بينة كافية لإدانة المدعى عليه ويحكم بموجبه، وذلك لأن المدعى عليه بنكوله عن حلف اليمين يعطي دليلاً وإن لم يكن قاطعاً على أنه كاذب في إنكاره وإلا لما امتنع عن حلف اليمين[٩١]. وفي هذه الحالة لا ترد اليمين على المدعي[٩٢] وإذا تراجع المدعى عليه عن نكوله فلا يقبل منه ذلك، وقد وضحت ذلك المادة (١٨٥١) من أحكام المجلة التي نصت على "إذا عرض الحاكم اليمين على من توجهت عليه في الدعاوى المتعلقة بالمعاملات ونكل عنها صراحة بقوله: لا أحلف أو دلالة كسكوته بلا عذر حكم الحاكم بنكوله وإذا أراد أن يحلف بعد الحكم فلا يلتفت إليه ويبقى حكم الحاكم على حاله"[٩٣]. وتؤكد ذلك المادة (١٨٢٠) بالقول: "إذا نكل المدعى عليه عن اليمين حكم الحاكم بنكوله وإذا أراد بعد ذلك أن يحلف لا يلتفت إلى قوله"[٩٤].

وتشير سجلات المحكمة الشرعية إلى العديد من القضايا التي نكل فيها المدعى عليه عن حلف اليمين، ومثال ذلك الدعوى التي أقامها حنا فليفل أنطون اللاتيني على حنا عيسى الحبش اللاتيني وتضمنت دعواه بأنه باعه عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٤م مجموعة من قطع الصدف بمبلغ ألف وخمسمائة واثنين وتسعين قرشاً من ذلك تسع عشرة قطعة، مُسعّرة بثمانية وعشرين قرشاً، وإحدى عشرة قطعة مُسعّرة بخمسة عشر قرشاً، وإحدى عشر قطعة مُسعّرة بخمسة وثلاثين قرشاً، وقد أوصل المدعى عليه للمدعي من الثمن ثمانية وخمسين قرشاً وبقي له بذمته سبعمائة واثنان وأربعون قرشاً. غير أن المدعى عليه لدى سؤاله عن ذلك أجاب بأن القطع التي اشتراها كانت ثلاثاً وثلاثين قطعة بمبلغ تسعمائة وثمانية وستين قرشاً منها (١١) قطعة بقيمة مائتين وخمسة

وسبعين قرشاً و(١١) قطعة بقيمة ثلاثمائة وخمسة وثمانين قرشاً و(١١) قطعة بقيمة ثلاثمائة وثمانية قروش، وأنكر شراء ثمانية القطع الأخرى التي قيمتها مائتان وأربعة وعشرون قرشاً، وذكر بأنه شرّط على المدعي بعقد الشراء أنه كلما باع شيئاً دفع له ثمنه، وقد أوصله من المبلغ أربعمائة واثنين وتسعين قرشاً فبقي له بذمته أربعمائة وستة وسبعون قرشاً، غير أن المدعي أنكر ذلك، فطلب القاضي من المدعى عليه البيان على دعواه الشرط المرقوم وزيادة الإيصال، فعجز فطلب المدعى عليه من المدعي اليمين فحلف اليمين على ذلك، ثم طلب القاضي من المدعي البيان على دعواه بثمانية القطع الزيادة فعجز وطلب يمين المدعى عليه فرفض "حلف اليمين المتوجب عليه شرعاً غير أن عرض عليه ثلاثاً فعندها عرفنا المدعى عليه حنا الحبش المرقوم حيث إنك أبيت عن حلف اليمين على ثمانية القطع المذكورة وعجزت عن إثبات دعواك الشرط وزيادة الإيصال المرقوم. والتمست يمين المدعي وحلف لك على ذلك فيلزمك شرعاً الآن دفع مبلغ التسعمائة قرش واثنين وأربعين قرشاً للمدعي"[٩٥].

وفي حجة ثانية ادعى اسماعيل آغا بن ابراهيم الشاويش الأول في الطابور الواحد من العساكر الشاهانية بالقدس على محمد بن سليمان الأوزباشي في الطابور نفسه، وذكر في دعواه عليه بأنه أقرض المدعى عليه مبلغ ثلاث ليرات مجيدي وأربعة وسبعين قرشاً، غير أن المدعى عليه أنكر أنه أخذ منه ثلاث ليرات واعترف فقط بالأربعة والسبعين قرشاً، وادعى أيضاً بأن له على المدعي ليرة مجيدي إلا أن المدعي أنكر ذلك فطلب منه القاضي بينة على دعواه فأحضر شاهدين من الطابور نفسه وقبلت شهادتهم بعد تزكيتهم بالسر والعلانية من قبل عسكريين في الطابور نفسه، وبناءً على ذلك أصدر القاضي حكمه بثبوت ثلاث الليرات بذمة المدعى عليه، ثم طلب القاضي من المدعى عليه بينة تثبت صحة دعواه بالليرة فعجز، وطلب تحليف المدعي على ذلك فأبى عن حلف اليمين، فعند ذلك أصدر القاضي حكمه وفيه "عرفنا اسماعيل المرقوم حيث إنك أبيت عن اليمين فيلزمك شرعاً دفع الليرة المذكورة لمحمد المرقوم،

فامتثل لذلك وطلب تنزيل ذلك مما ثبت له، فعندها عرفنا حمد المزبور حيث الحال كذلك فيكون الباقي عليك للجاويش اسماعيل المرقوم بعد تنزيل الليرة المذكورة وهو ليرتان مجيدي وأربعة وسبعون قرشاً من محمد الزبور ودفعهم إلى اسماعيل إيجاباً للشرع الشريف"(٩٦).

تحليف المدعي:

في بعض الحالات التي تكون فيها الدعوى متعلقة بمال يجوز تحليف المدعي بناءً على طلب المدعى عليه بعد إنكاره الدعوى أو عجزه عن إقامة البينة الشرعية على إنكاره بعض حيثيات الدعوى وإقراره بالبعض الآخر، فإذا حلف المدعي اليمين يكون يمينه دليلاً على صدقه فهو أدرى من غيره بما دعاه، ويظهر ذلك في الدعوى التي أقامها الخواجة حاييم بن يعقوب زبلون السكناجي على محمد بن صالح شرف السلواني، والمتعلقة بأن له بذمته وذمة شريكه حسين زيادة تسع عشرة ليرة عثمانية ذهبية بكفالة بعضها البعض وبإذن كل منهما للآخر وذكر بأن المدعى عليه دفع من ذلك ليرتين ونصف عثماني وحوّله على ابراهيم المغربي اليهودي بليرتين فبقي له بذمته أربع عشرة ليرة ونصف، ولدى سؤال محمد السلواني اعترف بأخذه وشريكه زيادة المبلغ المذكور من حاييم وذكر بأنه أوصله إضافة إلى أربع الليرات السابقة خمس ليرات فأصبح مجموع المبلغ الواصل من المدعى عليه تسع ليرات ونصفاً، وما تبقى من المبلغ وهو النصف الآخر فهو بذمة شريكه حسين زيادة، غير أن حاييم بن يعقوب أنكر أنه قبض خمس الليرات، فعند ذلك طلب القاضي من محمد السلواني البيان على إيصاله خمس الليرات فعجز عن إثبات ذلك وطلب تحليف حاييم المدعي فحلف اليمين على أنه لم يتسلم خمس الليرات، وعند ذلك ألزم القاضي محمد السلواني بدفع عشرة ليرة ونصفاً ذهباً إلى حاييم يعقوب(٩٧).

وفي قضية ثانية ادعى خميس بن الحاج حسن التوتنجي على سالم بن أحمد اسويلم من قرية قلونية(٩٨) بأن له بذمته بطريف الدين الشرعي سبعمائة قرش سعر الوزري تسعة

قروش، وقد أقر له بذلك بموجب سند مؤرخ في ٣ رجب سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م مؤجل بذمته إلى مدة عشرة شهور، ولدى سؤال سالم بن أحمد عن ذلك أجاب معترفاً بذلك كما ذكر المدعي، غير أنه ذكر أن سعر الوزري سبعة قروش ونصف، فطلب القاضي منه البيان على ذلك فعجز عن الإثبات وطلب تحليف خميس التوتنجي. وبعد أن حلف اليمين "عرفنا المدعى عليه سالم المرقوم بأنه يلزمك دفع المبلغ سبعمائة قرش سعر الوزري تسعة قروش إلى خميس المذكور كما ذكر.."[٩٩].

وتشير السجلات الشرعية إلى حالات أخرى تم فيها دفع الدعوى، وتعرف مجلة الأحكام العدلية الدفع بأنه "أن يأتي المدعى عليه بدعوى المدعي... وإذا أثبت من ادعى دفع الدعوى دفعه تندفع دعوى المدعي وإلا يحلّف المدعي الأصلي بطلب صاحب الدفع فإن أنكل المدعي عن اليمين ثبت دفع المدعى عليه وإن حلف عادته دعواه الأصلية"[١٠٠]. وإذا ادعى شخص على آخر بأن له ديناً عليه وأجاب المدعى عليه بأنه أحاله بهذا المبلغ على شخص آخر وقبل كل من المدعي والمحال عليه الحوالة وأثبت ذلك بحضور المحال عليه فيكون المدعى عليه بذلك قد دفع دعوى المدعي وتخلص من مطالبته إياه بالمبلغ، وإذا لم يكن المحال عليه حاضراً فيكون دفع المدعي موقوفاً على حضور المحال عليه[١٠١]. أما إذا أقر المدعي والمدعى عليه بتحويل جزء من قيمة الدين إلى شخص آخر واختلفا على الجزء المتبقي ففي هذه الحالة لا ضرورة لحضور المحال عليه، كما لا تندفع دعوى المدعي على المحال[١٠٢].

يمين الاستظهار:

إذا كانت الدعوى على غائب أو ميت أو صغير أو وقف أو غير ذلك ممن لا يستطيع الدفاع عن نفسه، يلجأ القاضي في هذه الحالة إلى تحليف المدعي اليمين ولو كانت بينته مكتملة وتامة وذلك احتياطاً وتحرزاً، وتُعرف هذه اليمين بيمين القضاء لأنها توجه من القاضي، أو اليمين المتممة لأن القاضي يوجهها إلى المدعي تتميماً للبينة،

كما تسمى أيضاً بيمين الاستظهار وذلك لأن البينة شهدت لظاهر الأمر فيستظهر بيمين الطالب على باطن الأمر(١٠٣).

وتبين المادة ١٧٤٦ من أحكام المجلة الحالات التي تجري فيها يمين الاستظهار وهي:

١- إذا ادعى أحد على تركة متوفى حقاً وأثبته فيحلّفه القاضي بأنه لم يستوفِ هذا الحق لنفسه ولا لغيره من الميت بأي وجه من الوجوه ولا أبرأه منه ولا أحاله به على غيره ولا أوفاه أحد وليس للميت بهذا الحق رهن.

٢- إذا استحق رجل مالاً وأثبت دعواه، يحلّفه القاضي بأنه لم يبع هذا المال ولم يهبه لأحد ولم يخرجه عن ملكه بأي وجه من الوجوه.

٣- إذا أراد المشتري رد المبيع لعيبه فيحلّفه القاضي بأنه بعد اطلاعه على العيب لم يرضَ به قولاً أو دلالة كتصرفه تصرف الملاك.

٤- تحليف الشفيع عند الحكم بالشفعة بأنه لم يبطل شفعته أي لم يسقط حق شفعته بأي وجه من الوجوه(١٠٤).

وتشير سجلات المحكمة الشرعية إلى العديد من القضايا التي طلب فيها القاضي من المدعي حلف يمين الاستظهار، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامها عمر بن فتح الله الدقاق على ورثة سعيد نصر الله جاسر من قرية بيت حنينا. وذكر في دعواه بأن له على المتوفى مائة ذهب ليرة مجر جنزير، وحرر عليه بذلك سنداً وقد دفع له المتوفى في حياته ثلاثين مجراً فقط، وعندما سأل القاضي ورثة المتوفى أنكروا ذلك، فطلب من عمر الدقاق البينة الشرعية على ذلك، فأحضر شاهدين تطابقت شهادتهم مع دعواه، فقبلت بعد أن تمت تزكيتهم بالسر والعلانية، وبعد ذلك حلّف القاضي المشتكي يمين استظهار المتوجب عليه على السبعين مجراً المتبقية "فعندها عرفنا المدعى عليهم حيث ثبت ذلك بذمة المتوفى بالبينة الشرعية المزكاة وبعد الحلف الشرعي فيلزم دفع السبعين مجراً الباقية للمدعي"(١٠٥).

وفي حجة ثانية ادعى عبد العزيز عثمان سالم من قرية قطنة[١٠٦] على محمد جابر البواية من القرية نفسها بأن له بذمة شقيقه المتوفى حسن أربعمائة وسبعين قرشاً ونصف القرش مقابل خمسة أمداد وربع مد من السمسم[١٠٧] بسعر المد تسعين قرشاً، وانحصرت تركته بعد وفاته بزوجته وشقيقه المدعى عليه، وذكر في دعواه بأن شقيقه دفع عن ذلك مدّين شعيراً قيمتهما ثمانون قرشاً وبقي له بذمته ثلاثماية وسبع وتسعون قرشاً، غير أن محمد البواية أنكر ذلك واعترف بأن واضع يده على مخلفات شقيقه المتوفى، فطلب من عبد العزيز عثمان بينة شرعية تثبت صحة دعواه فأحضر شاهدين قبلت شهادتهما بعد تزكيتهما سراً وعلناً، ثم "حلف المدعي اليمين الشرعي المتوجب عليه شرعاً، فعندها حكمنا ثبوت قيمة المبلغ المذكور بذمة المتوفى المزبور وعرفنا المدعى عليه أن يلزمك شرعاً دفع ذلك إلى المدعي المرقوم لاعترافك بوضع يدك على مخلفات شقيقك تعريفاً شرعياً..."[١٠٨].

وفي قضية ثالثة ادعى نمر بن مطلق العيد من عرب الصقر على سلامة بن عميرة محمد من أهالي قرية دورا قضاء الخليل قائلاً إن "الفرس المحضرة بالمجلس الشرعي هي فرسه ملكه وملك خليل سمعان من الناصرة الغائب عن البلد مشاركة بالنصف" وأنها فقدت منه في عام ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م ووجدها بيد سلامة عميرة، ولدى سؤال القاضي له عن ذلك أجابه إن له بذمة بعض الأشخاص من عرب الصقر ديناً ولدى توجهه إلى مكان إقامة العرب للمطالبة بدينه وجد الفرس مربوطة أما بيوت العرب "فأخذها على سبيل الوساقة"[١٠٩]، وأنكر أن الفرس ملك المدعي وشريكه، فطلب من المدعي بينة على ذلك فأحضر شاهدين وقبلت شهادتهما بعد تزكيتهما، وعندئذٍ طلب القاضي من المدعي حلف يمين الاستظهار المتوجب عليه شرعاً، وبعد حلفه لليمين حكم القاضي بثبوت ملكيته وشريكه للفرس[١١٠]. ويظهر الفارق أيضاً في هذه القضية عن القضيتين السابقتين بأن المدعى عليه أنكر ملكيته المدعي للفرس غير أنه أقر بعدم ملكيته لها.

التحالف:

إذا اختلف البائع والمشتري في مقدار الثمن أو المبيع أو في مقدار كليهما أو في وصفهما أو في جنسهما يحكم القاضي لمن أقام منهما البينة، وإن أقام كلاهما البينة يحكم لمن أثبت الزيادة منهما، وإن عجز كلاهما عن الإثبات ولم يرضَ أحدهما بدعوى الآخر فعندئذٍ يحلف القاضي كل منهما على دعوى الآخر، إذ إن كليهما مدعياً ومنكراً في آن واحد فلا يستطيع القاضي إجراء الحكم لأن كلاً منهما له صفتان في الدعوى.

ويكون المشتري البادئ باليمين؛ لأن البائع يطالبه بالثمن وهو ينكره، فكان البادئ في الإنكار، أما إذا كان الاختلاف في المبيع فيبدأ بيمين البائع(١١١)، إذ إن الخلاف بين الطرفين يكون بوجوه عدة، إما على مقدار الثمن أو على نوع العملة المستخدمة، أو على مقدار البيع، أو على نوع المبيع، ومن الممكن أن يكون الخلاف ثمن المبيع ومقداره.

ومن الأمثلة على القضايا التي تحالف فيها الطرفان لكل منهما الدعوى التي أقامها الخواجة بنيامين بن شمويل السكناجي على عبد الله بن محمود سويلم من قرية شعفاط(١١٢)، قائلاً بأن له بذمة المشتكى عليه ديناً بقيمة ثلاث عشرة ليرة عثمانية واثنين وثلاثين قرشاً ونصف وبلغ إجمالي الدين ألفاً وتسعمائة وتسعين قرشاً ونصف، وذكر بأن المدعى عليه أقر له بذلك بموجب سندين، وقد أوصله المدعى عليه من ذلك إلى سبعمائة وأربعين قرشاً ونصف بما في ذلك ثمن الحنطة، وبقي له بذمته ألف ومائتان وثلاثة وأربعون قرشاً، ولدى سؤال عبد الله محمود عن ذلك أقر بقيمة الدين مبيناً أنه دفع للمدعي منها ألفاً وستماية وإحدى وستين قرشاً إضافة إلى ثمن الحنطة، وقد اعترف المدعي بأنه "عدا الواصل الذي ذكر أعلاه أخذ من المدعى عليه طبة ونصفاً حنطة بقيمة سبعة وثلاثين قرشاً ونصف كانت له بذمة المدعى عليه وأنه استأجر المدعى عليه مدة ثلاثة أيام في بئر له بثلاثين قرشاً أوصله ذلك وأنكر الزيادة

وقدرها ثمانمائة وثلاثة وثمانون قرشاً ونصفاً"، ثم طلب القاضي من الخواجة بنيامين البينة على دعواه السبعة والستين قرشاً ونصف وهي ثمن الحنطة وأجرة عمل المدعى عليه بالبئر وذلك لإنكار المدعى عليه ذلك غير أنه عجز عن ذلك، فطلب القاضي من المدعى عليه البينة على دعواه "زيادة الإيصال بعد الذي صار الإقرار به"، غير أن كلاً منهما عجز عن إثبات دعواه وإقامة البينة على ذلك، وطلبا يمين بعضهما فحلف كل منهما للآخر بذلك حلفاً شرعياً، وعندها ألزم القاضي " المدعى عليه بدفع المبلغ المتبقي بعد ذلك وقدره ألف ومائة وخمسة وسبعون قرشاً ونصف إلى المدعي لعجز كل منهما عن دعواه الزيادة الحلف الشرعي، ومنعناهما من المعارضة لبعضهما"(١١٣).

بطلان الدعوى:

كان القاضي أحياناً يرد الدعوى ويحكم ببطلانها؛ وذلك نظراً لمخالفتهما أحكام الشرع وفقاً للمذهب الحنفي أو بناءً على أنظمة الدولة وقوانينها، ويظهر ذلك في الدعاوي المتعلقة بالنزاع على حقوق التصرف بالأراضي، فقد اختلف الفقهاء في تحديد المدة التي تسمع بعدها الدعوى فجعله بعضهم ستاً وثلاثين سنة وبعضهم حددها بثلاث وثلاثين سنة في حين حددها البعض الآخر بثلاثين سنة(١١٤) غير أن الدولة العثمانية حددتها بخمس عشرة سنة وذلك بموجب أمر سلطاني نظراً لطول الفترات التي حددها الفقهاء. فإذا ادعى شخص ما على آخر كان يتصرف بأرض لمدة خمس عشرة سنة على مسمع ومرأى من المدعي الذي يدعي بأن تلك الأرض كانت بيده، فلا تسمع دعواه، وجاء ذلك منعاً للتزوير والتحايل، وبذلك يكون مرور الزمان مبنياً على أمرين هما: أمر اجتهادي حدده الفقهاء، وسلطاني يجب على القضاة تطبيقه لأنهم بمقتضاه ممنوعون من سماع دعوى مضى عليها خمس عشرة سنة دون عذر، ويعدّ القاضي وكيلاً عن السلطان والوكيل يستفيد من التصرف من موكله، غير أنه في الأمر الأول لا تسمع الدعوى ولو أمر السلطان بسماعها لأن ذلك مبني على منع الفقهاء، أما في

الأمر الثاني فسماع الدعوى أو عدم ذلك مبني على أمر السلطان، إذ يجوز سماع الدعوى بعد مرور خمس عشرة سنة بناءً على أمر سلطاني ولو تركت دون عذر إذ إن من نهى عن سماع الدعوى له أن يأمر بسماعها(١١٥). ولعل من بين الأعذار التي يسمح للقاضي النظر بموجبها بقضية مرّ عليها أكثر من خمس عشرة سنة التغلب والسيطرة على أرض بالقوة والقهر من آخرين شريطة أن قدّم المدعي بينة كافية تثبت دعواه بذلك.

ومن الأمثلة على رفض القاضي لقضية مرّ عليها خمس عشرة سنة، تتمثل في الدعوى التي أقامها كل من أحمد بن اسماعيل محيميد بالأصالة عن نفسه ومصطفى ابن حمدان محيميد الوكيل الشرعي عن والده وكلاهما من قرية واد فوكين(١١٦) عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م على كل من محمد بن ابراهيم الدمراوي الأصيل عن نفسه والوكيل الشرعي عن شقيقه عثمان من القرية نفسها، وتتمثل الدعوى بقيام والد المدعى عليهما عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م أي قبل عشرين عاماً بوضع يده بالقوة على ما هو مختلف عن محيميد جد كل من المدعي الأصيل والوكيل "وذلك جميع الحاكورة المشتملة على أشجار تين وجدران ومنافع وحقوق شرعية، وقد تم ذلك بدعم من نظّار ناحية بني عرقوب(١١٧) آنذاك وهم عثمان اللحام وابن أخيه مصطفى والشيخ عليان النحاليني، وذكر المدعيان أنهما لم يعترضا على تصرف المدعى عليهما بالأرض طول ذلك الفترة ولم يشتكيا عليهما وذلك خوفاً من أبناء اللحام، ولدى سؤال المدعى عليهما عن ذلك اعترفا بوضع يدهما على الأرض منذ عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٥٨م أي منذ ثلاثين سنة بطريق الملك وأن والدهما كان واضعاً يده عليهما من قبلهما بمشاهدة "المدعي الأصيل وبقية ورثة والده والموكل.

ولم يدّعو ولا مانع شرعي يمنعهم من الدعوى المدة المذكورة ولم يكن لهم قوة جبرية ولا مساندة من أولاد اللحام لمثل ذلك وهم أقل ضعفاً من المدعين... فلما تأمل الحاكم الشرعي كلام الطرفين وأمعن النظر فيه عرف المدعيان حيث إنهما اعترفا بأن

الأرض المذكورة تحت يد وتصرف المدعى عليهما مدة العشرين سنة بمشاهديهما ولم يدعيا وحيث لم يكن مانع شرعي يمنعهما من الدعوى فدعواهما غير مسموعة شرعاً للمنع السلطان المنفذ بالعون الرباني بعدم سماع دعوى مضى عليها خمس عشرة سنة قطعاً للأطماع الفاسدة وسد باب التزوير.."(١١٨).

ومهما كانت نتيجة الحكم، فإن هذه الحجة تبين مدى تسلط الزعامات المحلية على الأراضي بطريق القوة والقهر، فقد كانت عائلة اللحام وحليفتها عائلة النحاليني من أشهر العائلات المحلية في منطقة جبل القدس(١١٩). ويعدُّ عثمان اللحام من أبرز زعماء العائلة وكان يتمتع بسطوة ونفوذ كبير، ووصفه القنصل البريطاني جيمس فن James Finn بأنه "فلاح خشن ذو رأس يابس"(١٢٠). وقد أشرف عائلة اللحام على قرى ناحية العرقوب. أما الشيخ عليان النحاليني فقد ارتحل خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر من قرية نحالين واستقر في قرية بيت عطاب، وتبوأت عائلته مكانة متميزة من خلال امتلاكها أراضي في قرى بيت عطاب ونحالين ووادي فوكين وزكريا وسفلى، علاوة على مصاهرتها لعائلة اللحام(١٢١). غير أن مراكز السلطة المحلية أخذت منذ بداية الستينيات من القرن التاسع عشر تزداد ضعفاً، بعد أن تمكنت الدولة العثمانية من تجريد الزعماء المحليين ودمجهم في مراكز السلطة المحلية في الهياكل الإدارية الجديدة(١٢٢). فكان ذلك عاملاً مشجعاً للفلاحين ممن اغتصب أراضيهم بعرض قضاياهم على المحكمة الشرعية مطالبين باستعادة ما انتزع منهم بالقوة على أيدي الشيوخ والزعماء المحليين.

وفي قضية مماثلة ادعى مصطفى بن عودة من أهالي مزارع بني زيد بالوكالة الشرعية عن زوجته مريم بنت محمود على سليمان بن طه من أحالي القرية قائلاً في دعواه أنه منذ ثلاثين سنة وفي عهد ابراهيم باشا توفي محمود بن الشيخ محمود والد زوجته وانحصر إرثه الشرعي بأولاده عبد الله وعيشة ومريم ثم توفى عبد الله وانحصر إرثه الشرعي في شقيقيه المرقومين وابن عمه حمد بن أحمد الهبل بن الشيخ

محمد، وقد وضع سليمان طه يده على بيت المتوفى وقام بتجديده وسكن فيه بغير حق، وذكر بأن زوجته مريم لم تدّعِ عليه بذلك "حيث ما كان أحد من النساء ليطلب الذي ورثه من أبيه حسب عادة الفلاحين". وطالب مصطفى عودة بأن يسلم محمود سليمان ما يخص زوجته مريم في بيت أبيها ومقداره عشرة قراريط، غير أن المدعى عليه أنكر بأن البيت المذكور يخص والد بل آل له منذ ثلاثين عاماً شراءً من عبد اللطيف ابن أحمد ويتصرف به منذ ذلك الوقت دون معارض أو منازع بمشاهدة الموكلة وبقية الورثة ولم يكن هناك مانع شرعي يمنعهم من الدعوى عليه خلال تلك المدة؛ فعندئذٍ أصدر القاضي أمراً برفض الدعوى لأن المدعى عليه تصرف بالبيت لمدة ثلاثين عاماً دون أن يدعي عليه أي من ورثة المتوفى ولا يوجد ما يمنعهم من ذلك[١٢٣].

ومن الحالات الأخرى التي كان القاضي يرفض فيها إصدار حكم بالدعوى وعدم الاستماع إليها هي أن المدعى عليه سواء أكان أصيلاً أم وكيلاً ليس خصماً للمدعي، ويظهر ذلك في الدعوى التي أقامها عبد الوهاب عيسى من قرية بيت سواريك[١٢٤] على الشيخ محمد لصالح ابراهيم أبو غوش، وذكر في دعواه بأنه كان يتصرف بمزارعة أرض يوسف بن أحمد الحاج بعد أن دفع ٤٥٠ قرشاً لعبد الزراق الجمل حيث كانت مزارعة مرهونة له، وأن المدعى عليه وضع يدع عليها بالقوة، ولدى سؤال المدعى عليه عن ذلك اعترف بأنه وضع يده على مزارعة تلك الأرض بطريق الرهن من قبل يوسف الحاج مقابل ١٧٠٠ قرش وبقي يتصرف بها لمدة تسع سنوات، وقد توفي صاحب حق المزارعة يوسف قبل أن يدفع قيمة الرهن، ثم حضر ابن عمه محمد نصّار ودفع له ١٧٠٠ قرش وتسلم مزارعة الأرض ولم يعد للشيخ محمد الصالح أية علاقة بمزارعة الأرض، فعندها "عرفنا المدعي عبد الوهاب حيث الحال كذلك فدعواك المرقومة غير مسموعة شرعاً سيما أن المدعى عليه ليس بخصم شرعي كما شرح تعريفاً شرعياً ومنعنا المدعي من المعارضة للمدعى عليه بخصوص ذلك"[١٢٥].

وفي حال إقرار أحد الطرفين ببطلان دعواه وتراجع عنهما، كان القاضي يمتنع عن إصدار حكمه، ومثال ذلك في الدعوى التي أقامها ابراهيم بن سلامة على حسين بن محمود بدران وكلاهما من قرية بيت عور التحتا(١٢٦) حيث ذكر في دعواه بأن قد اتفق مع فاطمة بنت يوسف بدران الحاضرة المجلس الشرعي أن يتزوجها وقد وافقت فاطمة على ذلك بحضور الشهود، غير أن المدعى عليه يعارضه في ذلك ولدى سؤال المدعى عليه عن ذلك أقر بمعارضته بحجة أنه أيضاً قد طلب فاطمة ليتزوجها ووافقت على ذلك أمام شهود، غير أن فاطمة أنكرت دعوى المدعى عليه دعوى المدعي، فطلب القاضي من المدعي البيان الشرعي على دعواه فأحضر الشاهدين اللذين حضرا الاتفاق بينه وبين فاطمة على الزواج وجاءت شهادتهما مطابقة لدعوى المدعي "فعندها أقر المدعى عليه حسين المزبور طائعاً مختاراً أن لا نكاح له على فاطمة المزبورة أصلاً وأن ما ادعاه من الزواج لا أصل له لذلك وأنه مبطل لدعواه"(١٢٧).

وتشير السجلات إلى حالات أخرى كان القاضي لا يصدر أحكاماً فيها، وتتمثل في تلك الدعاوى التي يدخل الوسطاء والمصلحون فيها، محاولين حل الخلاف بين الطرفين قبل أن يصدر القاضي حكماً بذلك، وفي هذه الحالة تتم تبرئة المدعى عليه من القضية ولا ينظر فيها بعد ذلك من قبل القاضي، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي أقامتها رقية سليمان الكلوتة على شقيقها شحادة حول ما يخصها من تركة شقيقتها عيشة من أثاث وملابس وحلي وقيمة ذلك ألفان وثمانمائة وستة وعشرون قرشاً، واتهمته بأنه وضع يده على هذه المخلفات، غير أن المدعى عليه أنكر ذلك، فطلب منه القاضي بينة تثبت بأن المخلفات ليست لشقيقته المتوفاة ولكنه عجز عن ذلك وطلب تحليف شقيقته اليمين الشرعي على دعواها، وقد "طال الخصام والنزاع بينهما فعندها توسط المصلحون بالصلح الجائز شرعاً على أن يدفع المدعى عليه لشقيقته مبلغاً قدره

خمسمائة قرش وفي نظير ذلك تبرئ ذمته وتعفي عن يمينه بهذا الخصوص إبراءً عاماً كل من الطرفين ذلك بينهم"[١٢٨].

وفي قضية ثانية ادعت نصرة بنت ابراهيم قرة على حسن أحمد حجاج وكلاهما من غزة وذكرت بأن المدعى عليه ضربها على فمها عامداً متعمداً مما أدى إلى سقوط أحد أسنانها، ولذلك فهي تطلب منه أن يدفع "مايتين وخمسين درهم فضة عن ديّة السن المذكور"، غير أن المدعى عليه أنكر ذلك، وبعد أن طال النزاع بينهما توسط المصلحون بين الطرفين على أن يدفع حسن بن أحمد للمدعية خمسماية قرش مقابل إبراء ذمته من دعواها وتقرّ بأنه "لا حق لا بخصوص ذلك فرضي كل منهما، فدفع المبلغ وقبضته وأقرت أنها أبرأت ذمته من دعواها عليه"[١٢٩].

وفي قضية أخرى ادعى حسن بن أبي السعود الدجاني على الخواجة يوحنا بأنه تجاوز في البناء الذي أقامه على سطح الفرن المستحكر من قبله وإنشائه قوساً على زقاق دار المدعي، وبعد الكشف على ذلك من قبل لجنة كلفها القاضي، تبين أن الخواجة يوحنا لم يتجاوز في البناء، وأن إنشاء القوس ليس له ضرر على زقاق دار حسن الدجاني، وبعد ذلك توسط المصلحون بين الطرفين واتفق بأن يعطي الخواجة يوحنا لحسن الدجاني ثلاثة أذرع طولاً وذراعاً ونصفاً عرضاً من حاكورته لتوسيع دار المدعي[١٣٠].

عقد المجلس الشرعي خارج المحكمة:

بالرغم مما هو متعارف عليه في القضاء الشرعي بأن جلسات الحكم كانت تنعقد في المحكمة الشرعية، غير أن القاضي الشرعي كان يسمح أحياناً بعقد المجلس الشرعي خارج المحكمة بحسب الظروف التي تحيط ببعض الدعاوى، فقد كانت بعض القضايا تتطلب الاستماع لكثير من الشهود[١٣١]، أو لشهادة نساء طاعنات في السن لا يتمكنّ من الحضور إلى المحكمة[١٣٢]، أو لكشف عن مكان معين كأرض أو دار متنازع عليها ويحتاج إلى استكشاف ومعاينة[١٣٣]، وغالباً ما كان السجل الشرعي يوضح ذلك

في بداية الحجة، كأن يذكر "بعد تحقق عذر شرعي ملموس"(١٣٤) أو "بناءً على تحقق عذر شرعي بالالتماس"(١٣٥).

وعند انعقاد المجلس الشرعي خارج المحكمة كان القاضي ينيب عنه في معظم الأحيان باشكاتب المحكمة أو أحد الكتَبَة لعقد المجلس ويرافقهما لجنة تتكون من المحضرباشي أو المحضر وأحد الكتَبَة، وتشير السجلات إلى أعضاء اللجنة بـ "الأمناء المبعوثين"(١٣٦).

وكان المجلس الشرعي يعقد في بعض الأحيان في بيوت الوجهاء والمتنفذين وكبار المسؤولين، فقد عقد مجلساً شرعياً في بيت أحمد راسم أفندي رئيس محكمة تجارة القدس، وحضرت فيه والدته وشقيقته زينب ومحبوبة ووكلتا زهرة خانك بنت أفندي الكنج في بيع حصتهما في دار بمدينة اللاذقية(١٣٧). وعقد المجلس الشرعي بدار صاحب المكرمة موسى عمران الخالدي حيث وكلت فيه بهجة المخدرات رقية خانم كريمة محمد بن الحاج يحيى هداية العلم صاحب المكرمة عثمان نوري الخالدي في بيع الحصة التي تخصها بدار بمحلة الواد(١٣٨). وذكرت حجة ثانية أنه "بناءً على الالتماس أرسل الشرع الشريف مأذوناً في الخصوص الآتي الحاج محمد خورشيد أفندي الشهابي كاتب ثاني المحكمة الشرعية بالقدس الشريف والأمناء المبعوثين معه إلى دار ورثة موسى بدر أفندي الجاعوني الكائنة بالقدس بمحلة الشرف وعقد بأحد بيوتها مجلساً شرعياً حضرت فيه كل من السيدة أمينة والسيدة رابية بنتي موسى أفندي بدر الجاعوني وأقرت واعترفت وأشهدت على نفسها كل واحدة من الحاضرتين أمينة ورابعة... أنهن وكلن وأقمن مقام نفسيهما وعوضاً عن شخصيهما أحمد آغا قوجولي الحاضر معهما بالمجلس الشرعي المعقود في بيع ما هو لهما وجارٍ بملكهما وآيا إلى السيدة أمينة إرثاً عن أبيها موسى أفندي بدر وشقيقتها السيدة خديجة، وآيل إلى رابية إرثاً عن أبيها وأمها زينت وشقيقتها ساجدة وذلك جميع الحصة الشائعة وقدرها أربعة

آلاف وواحدة وثلاثون سهماً من أصل ثلاثمائة وستة عشر ألف سهم في جميع الدار المحدودة والموصوفة..."[١٣٩].

وأشارت السجلات إلى انعقاد المجلس في الزوايا، فقد عقد مجلس شرعي بالزاوية الأدهمية[١٤٠] لضبط تركة شيخها حيث توفى ولا وارث له سوى زوجته [١٤١]، وعقد المجلس الشرعي بالخانقاة الصلاحية[١٤٢] بمحلة النصارى[١٤٣]. وعقد المجلس الشرعي في المجلس الدور[١٤٤] والمضافات في القرى، فقد عقد مجلس شرعي في عليّة (مضافة) محمد مصطفى الجرن بقرية عابود[١٤٥]. وعقد المجلس الشرعي أيضاً بداخل بيوت الشعر، فتشير إحدى الحجج إلى عقد المجلس الشرعي في بيت الشعر العائد لسلام عبدالله الغوص مختار أول قرية أريحا بحضور عشرة أشخاص من عائلة الغوص ووكلوا بسام الغوص بفراغ ما هو لهم وجارٍ بمزارعتهم وتصرفهم وحيازتهم بالأرض الأميرية الواقعة بجدر قرية أريحا[١٤٦]، وعقد مجس شرعي في مصبنة عبد الرحمن حدوتة العلم برأس عقبة التكية القدس[١٤٧]، وانعقد مجلس شرعي في حاكورة راغب الحسيني بأريحا[١٤٨].

ولم يقتصر انعقاد المجلس الشرعي خارج المحكمة الشرعية على الأماكن الخاصة بالمسلمين، بل كان يعقد في دور أبناء الطوائف الأخرى وأماكن عبادتهم من أديرة وبطريركيات وكنائس، فأشارت السجلات إلى عقد المجلس الشرعي بدير القطمون حضر فيه جناب ذي الرتبة نيقوريموس بن أخريستو ديمتري العثماني بطريرك الروم بالديار القدسية وتوابعها وملحقاتها[١٤٩].

وعقد المجلس الشرعي في إحدى حجرات بطريقخانة الروم بالقدس[١٥٠]، وفي بطريركية الروم بمحلة النصارى[١٥١]، وعقد مجلس شرعي بإحدى الغرف على سطح كنيسة الروم بقرية عابود[١٥٢]، وفي حاكورة نخلة قرط الرومي بباب العامود[١٥٣]. وفي البستان الكائن أمام دار حنا فروتكر مدير شعبة البنك العثماني بباب العامود[١٥٤]. أما بالنسبة لليهود فقد انعقد المجلس الشرعي في دار هرنش بن يعقوب من طائفة

البروشيم(١٥٥). أما فيما يتعلق بالأجانب، فقد أشارت السجلات إلى انعقاد المجلس الشرعي في دار القنصل الأمريكي في القدس وكص بن توماس بن وليم(١٥٦).

وأشارت السجلات إلى ترؤس القاضي أحياناً المجلس الشرعي الذي ينعقد خارج المحكمة الشرعية وإن كان في حالات نادرة، فقد عقد القاضي الشرعي مجلساً شرعياً بالمدرسة الأمينية بالقدس التي كانت في الوقت نفسه سكناً للشيخ محمد أسعد الحسيني المفتي الشافعي بالمدينة، وإمام المسجد الأقصى، وذلك لتسجيل وقفيته(١٥٧). ويبدو أن ذلك جاء تقديراً واحتراماتً للمفتي.

الخاتمة:

وهكذا يتضح في خاتمة هذه الدراسة مدى حرص القاضي الشرعي على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وفقاً للمذهب الحنفي بهدف إقامة العدل وتطبيق العدالة بين الأهالي من مسلمين وغير مسلمين، إذ لم يكن يأخذ شهادة الشهود ولو تطابقت شهاداتهم مع دعوى المدعي بل يلجأ إلى تزكيتهم سراً من قبل أشخاص معروفين في مناطقهم، ومن ثم تزكيتهم علناً. فكانت التزكية وتطابق أقوال الشهود سنداً يرتكز عليه القاضي الشرعي في إصدار حكمه في القضية.

ولعل تحليف المدعى عليه اليمين يعدُّ آخر وسيلة يلجأ إليها القاضي بناء على طلب المدعي عندما يعجز المدعي عن إقامة البينة الشعرية على دعواه لإثباتها غير أن اليمين لم تنحصر في المدعى عليه فقط بل كان القاضي يطلب من المدعي أيضاً في حالات معينة حلف اليمين.

وأخيراً فقد ظهر أثر التنظيمات العثمانية الجديدة بشكل واضح، إذ استند القاضي في أحكامه إلى القواعد الفقهية التي اشتملت عليها مجلة الأحكام العدلية.

الهوامش

(١) قرية بيت اكسا: تقع شمال غرب مدينة القدس على مسافة ٧ كم. انظر: مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ١٠ أجزاء، كفر قرع، دار **الهدى**، ٢٠٠٢، ق٨، ج٢، ص ١٠٤.

(٢) سجل ٢٥٣، ١٣ جمادى الأولى، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، ص ٦٠.

(٣) سجل ٣٥٥، غرة شعبان، ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م، ص ١١٣.

(٤) قرية لفتا: وتبعد ١ كم إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م ٤، ص ٤٩.

(٥) سجل ٣٥٨، ٨ محرم، ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، ص ١١٥.

(٦) سجل ٣٥١، أوائل محرم، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، ص ٣٣٤.

(٧) قرية المالحة: تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة القدس، وتصلها بها طريق معبدة طولها نحو ٥ كم. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م ٤، ص ٧٣.

(٨) قرية سلوان: وهي مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية، ولا تبعد عنه سوى بضعة أمتار، وفيها عيون ماء مشهورة تسمى عيون سلوان، منها: عين أم الدرج وبركة سلوان والبركة التحتانية وعين اللوزة، **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م ٢، ص ٥٨٠.

(٩) سجل ٣٤٩، أواسط محرم، ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، ص ١٥٣.

(١٠) سجل ٣٤٦، أواخر رجب، ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، ص ١٢٨.

(١١) قرية بيت حنينا: تقع على مسافة ٨ كم شمال مدينة القدس، الدباغ، ج٨، ق ٢، ص ٨٨.

(١٢) سجل ٣٤٦، جمادى الأولى، ٧٩٨٣هـ/ ١٨٦٢م، ص ١٣٢.

(١٣) قرية خربثا المصباح: تقع غرب رام الله بانحراف قليل إلى الجنوب. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٣٧٦.

(١٤) ناحية بني مالك: إحدى نواحي جبل القدس وتشتمل على ٢٦ قرية وخربة وهي: العنب (أبو غوش)، بيت سوريك، قطنة، بيت لقيا، القبيبة، صوبا، بيت عنان، دقة، عجنجول، بيت عور التحتا، بيت عور الفوقا، بدو، بيت سيرا، بيت اجزا، خربثا، سلبيت، دير ياسين، الطيرة، قلونية، ساريس، لفتا، بين نقوبا، بيت محسير، القسطل، يالو، الردة، خربثا المصباح، انظر: أمين مسعود أبو بكر، **ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨-١٩١٨**، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦، ص ٢٤٣.

(١٥) سجل ٣٥٥، ١١ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٧٥.

(١٦) قرية الطور: تقع على جبل الزيتون إلى الشرق من مدينة القدس على مسافة نحو كيلومتر واحد. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ١٢٧.

(١٧) قرية العيزرية: أقيمت في الجنوب الشرقي من جبل الزيتون على بعد نحو ٢ كم للشرق من مدينة القدس. الدباغ، ج٨، ص٢، ص ١٤٢.

(١٨) سجل ٣٨٦، ٢٥ رجب، ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، ص ٢٦.

(١٩) سليم رستم باز اللبناني، **شرح المجلة**، جزأين، بيروت، دار الكتب العلمية، ج١، ص ٥٢.

(٢٠) سجل ٣٥٨، ١٠ شوال، ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، ص ١٤٧.

(٢١) قرية حزما: تقع شمال شرق مدينة القدس على بعد نحو ٨ كم. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٧٦.

(٢٢) الطبة: استخدمت لكيل الحبوب وبعض المواد الأخرى، ويختلف وزن الطبة من محصول لآخر، فطبة القمح تعادل ٤ صاعات أو ٣/١ ١٣ رطل، بينما تعادل طبة الشعير عشرة أرطال. انظر إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، ج٤، ١٩٧٥، ج٢، ص ٢٧٢.

(٢٣) سجل ٣٦٢، ١٠ ذي القعدة، ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، ص ٩٤.

(٢٤) **شرح المجلة**، م١، ص ٥١.

(٢٥) **سورة البقرة**، الآية ٢٨٢.

(٢٦) **شرح المجلة**، ج١، ص ٩٠٥.

(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٩٠٥.

(٢٨) عكرمة سعيد صبري، **اليمين في القضاء الإسلامي**، القدس، مطبعة الرسالة المقدسية، ١٩٩٩، ص ٥٠.

(٢٩) قرية بيتين: تقع شمال شرق مدينة رام الله على بعد نحو ٣كم. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٣٤٩.

(٣٠) سجل ٣٧٨، ٩ جمادى الثانية، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٤م، ص ١١٤.

(٣١) سجل ٣٧٨، ٢٠ ربيع الأول، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٤م، ص ١١٤.

(٣٢) قرية مزارع بني ويد: وتدعى أيضاً باسم مزارع النوباني، وتقع في الجهة الشمالية لمدينة رام الله، الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٢٧٣.

(٣٣) سجل ٣٥٥، ١٥ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨، ص ٨١.

(٣٤) **سورة الطلاق**، الآية ٢.

(٣٥) **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٠٢.

(٣٦) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٤١.

(٣٧) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٤١.

(٣٨) سجل ٣٥٥، ٢٥ جمادى الأولى، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٤١.

(٣٩) قرية دير ديوان: تقع على مسافة ٧ كم إلى الشرق من مدينة رام الله. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م ٢، ص ٤٢٦.

(٤٠) سجل ٣٥٤، ٤ ربيع الأول، ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، ص ٦.

(٤١) قرية حجة: تقع نحو الغرب من نابلس وعلى بعد ١٨ كم منها. الدباغ، ج٢، ق٢، ص ٣٧٢.

(٤٢) خربة كفر تل، وتقع جنوب غرب مدينة نابلس على مسافة ٤ كم. الدباغ، ج٢، ق٢، ص ٣٥٠.

(٤٣) قرية جينصافوط: وهي قرية صغيرة تقع في الجنوب الغربي من نابلس وعلى مسافة ١٦ كم عنها. الدباغ، ج٢، ق٢، ص ٣٧١.

(٤٤) سجل ٣٥١، ١٥ صفر، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، ص ٣٠٠.

(٤٥) **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٤٢.

(٤٦) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٤٢.

(٤٧) سجل ٣٥١، ١٥ صفر، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، ص ٣٣١.

(٤٨) سجل ٣٥١، ١٥ صفر، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، ص ٣٣٢.

(٤٩) سجل ٣٧٩، ٢٩ جمادى الأولى، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ١٤٣.

(٥٠) سجل ٣٤٧، ١١ صفر، ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، ص ١٦.

(٥١) سجل ٣٤٧، ١١ ذي القعدة، ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، ص ٢٥٣.

(٥٢) سجل ٣٥٥، ٢٥ ربيع الثاني، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٢٨.

(٥٣) **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٦٦.

(٥٤) سجل ٣٥٥، ١٤ رمضان، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١٣٠. **شرح المجلة**، ج٢، ص ١٠٦٧.

(٥٥) سجل ٣٥٣، ٢٤ صفر، ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، ص ٢٦٢. ونصت المادة ١٧١٧ من أحكام المجلة على "تزكى الشهود إن سراً وإن علناً من الجانب الذي ينسبون إليه فإن كانوا من طلبة العالم فيزكون من مدرس المدرسة التي يقيمون بها ومن عمدة أهاليها، وإن كانوا من العسكر فمن ضابط الطابور وكاتبه، وإن كانوا من الكتبة فمن ضابط قلمهم، وإن من التجار فمن معتبري التجار وإن كانوا من الأصناف فمن كتخدايهم ولجنتهم، وإن كانوا من سائر الصنوف فمن يؤتمن ويوثق به من أهالي محلتهم أو قريتهم". انظر: **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٦٧.

(٥٦) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٦٩.

(٥٧) سجل ٣٥٣، أوائل صفر، ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، ص ١٨٧. **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٦٩ .

(٥٨) **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٦٩ .

(٥٩) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٧٠ .

(٦٠) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١٠٧٠ .

(٦١) سجل ٣٨٣، ٢٧ ذي القعدة ، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م، ص ٤٥. من مجلة الأحكام العدلية على "يشترط حضور الخصمين حين الحكم، يعني أنه يلزم بعد المحاكمة مواجهة حضور الخصمين مجلس الحكم عند صدوره... ولكن لو ادعى واحد إلى الآخر شيئاً فأقر به المدعى عليه ثم غاب عن المجلس قبل الحكم كان للحاكم أن يحكم في غيابه بناءً على إقراره. وكذلك لو أنكر المدعى عليه فأقام المدعي البينة ثم مات المدعى عليه أو غاب عن مجلس الحكم قبل التزكية

والحكم كان للحاكم أن يزكي البينة ويحكم بها". انظر: **شرح المجلة**، م٢، ص ١١٨٣.

(٦٢) سجل ٣٦١، ٢٩ محرم، ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م، ص ٥٢.

(٦٣) قرية قلندية: تقع على مسافة ١١ كم شمال مدينة القدس. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٦٥.

(٦٤) قرية مخماس: تقع شمال مدينة القدس على بعد ٥ أميال. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٦٥.

(٦٥) مجلس الاختيارية: ويتكون من ٣-١٢ عضواً حسب نسبة عدد الأهالي في القرية ومن اختصاصاته النظر في الدعاوى التي تقع بين أفراد القرية والنظر في مصالح القرية والإشراف على تحصيل الأميرية فيها. انظر: عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤**. مصر، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ١٠٣.

(٦٦) قرية بيت حنينا: تقع على مسافة ٨ كم شمال مدينة القدس. الدباغ، ج٨، ق٢، ص٨٨.

(٦٧) سجل ٣٧٩، ٤ ربيع الأول، ١٣٠٨هـ/ ١٨٦٤٩٠م، ص ١١١.

(٦٨) سجل ٣٥٨، ٢٧ شعبان ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، ص ١٣٨.

(٦٩) سجل ٣٨٣، ٢١ ربيع الأول، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ص ٩١.

(٧٠) قرية بني سهيلا: تقع في الطرف الجنوبي لقطاع غزة وتبعد ٢ كم إلى الشرق من خان يونس وكيلومتراً واحداً إلى الشرق من طريق رفح – غزة. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م١، ص ٤٢٨.

(٧١) قرية الطيرة: يوجد في فلسطين تجمعات سكانية كثيرة باسم الطيرة، والمقصود بالطيرة هنا هي طيرة حيفا وتسمى أحياناً طيرة اللوز لكثرة أشجار

اللوز فيها، وتقع على مسافة ١٢ كم جنوب مدينة حيفا، وتصلها بالطريق الساحلية الرئيسية. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام/ م٣، ص ١٣٠.

(٧٢) قرية بئر صميل: وتعرف باسم صميل وتقع في أقصى الجهة الشمالية الشرقية لمنطقة غزة وعلى الحدود الفاصلة بينها وبين منطقة الخليل. الدباغ، ج١، ق٢، ص ٢٢٠.

(٧٣) سجل ٣٨٣، ٤ صفر، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ص ٥١.

(٧٤) سجل ٣٨٣، ١٧ صفر، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ص ٥٤.

(٧٥) **شرح المجلة**، م٢، ص ١١٠١.

(٧٦) **سورة آل عمران**، الآية ٧٧.

(٧٧) **سورة المائدة**، الآية ٨٩.

(٧٨) **سورة النحل**، الآية ٩١.

(٧٩) صبري، **اليمين في القضاء الإسلامي**، ص ٩٤.

(٨٠) سجل ٣٤٤، ١١ ذي القعدة، ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، ص ١١٧.

(٨١) سجل ٣٥٥، ٢٢ جمادى الثانية، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٧٠.

(٨٢) سجل ٣٤٧، ٢٦ ذي القعدة، ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، ص ٢٤٨.

(٨٣) قرية يالو: تقع جنوبي شرق الرملة وجنوبي غرب رام الله، كانت تابعة لقضاء الرملة ثم أصبحت بعد عام ١٩٤٨ تابعة لقضاء رام الله، هدمها الصهاينة بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م٤، ص ٦٢٢.

(٨٤) سجل ٣٤٧، ٢٣ ربيع الثاني، ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، ص ٤٩.

(٨٥) الكزامدار شولش، **تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢**، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٨، ص ٢٦٧.

(٨٦) سجل ٣٧٤، ١١ ذي القعدة، ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٣م، ص ١٥.

(٨٧) قرية القباب: تقع على بعد ١٠ كم جنوبي شرق مدينة الرملة، وعلى بعد ٣٤ كم شمالي غرب مدينة القدس، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى القباب التي يتخذها شكل سطح الأرض المحيطة بها. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م٣، ص ٤٩٨.

(٨٨) سجل ٣٥٥، ٢٥ جمادى الثانية، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٧٠.

(٨٩) قرية فرخة: وهي قرية صغيرة تقع جنوب غرب سلفيت على بعد ٥ كم منها. الدباغ، ج٢،ق٢، ص ٥٣٦.

(٩٠) سجل ٣٥٥، ٩ صفر، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٨.

(٩١) **شرح المجلة**، م٢، ص ١١٧٩.

(٩٢) يأخذ أبو حنيفة بالنكول ويعتبره بينة كافية لإدانة المدعى عليه (الناكل) ويحكم القاضي بموجبه، ولا يأخذ برد اليمين على المدعي. ويأخذ أيضاً أحمد بن حنبل بالنكول إذا كان موضوع الدعوى مالاً، كما يأخذ برد اليمين على المدعي فيما ليس بمال. أما الشافعي فيقول برد اليمين على المدعي بعد نكل المدعى عليه في كل موضع يجب فيه اليمين فإن حلف تكتمل البينة (أي النكول مع اليمين المردودة) وإن امتنع عن حلف اليمين المردودة يبطل حقه في الدعوى. ولا يأخذ الشافعي بالنكول وحده لأنمه لا يعتبره بينة كافية. أما مالك فيقول برد اليمين على المدعي بعد نكول المدعى عليه إذا كان المدعى به مالاً وما يؤول إلى المال. وما سوى ذلك لا ترد اليمين. انظر: صبري، **اليمين في القضاء**، ص٣٢٨.

(٩٣) **شرح المجلة**، م٢، ص ١١٠٦.

(٩٤) **المصدر نفسه**، م٢، ص ١١٧٩.

(٩٥) سجل ٣٥٥، ٢٩ رمضان، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١٥٤.

(٩٦) سجل ٣٥٥، ٧ جمادى الثانية، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٤٦.

(٩٧) سجل ٣٥٥، ٢١ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٨٨.

(٩٨) قرية قلونية: تبعد ٥ كم إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، ونظراً لأهمية موقعها الاستراتيجي كانت إحدى المستعمرات الرومانية التي أسسها بعد القواد الرومان على الطرق الرئيسية . **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م٣، ص ٤٩٥.

(٩٩) سجل ٣٥٥، ٢٣ جمادى الثانية، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٦١.

(١٠٠) **شرح المجلة**، م١، ص ٩٣١.

(١٠١) **المصدر نفسه**، ص ٩٣٢.

(١٠٢) سجل ٣٥٥، ٢١ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٨٨.

(١٠٣) صبري، **اليمين في القضاء الإسلامي**، ص ١٥٤.

(١٠٤) **شرح المجلة**، م٢، ص ١٠٩٩-١١٠٠.

(١٠٥) سجل ٣٥٥، ٥ شعبان، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١٠٣.

(١٠٦) قرية قطنة: تقع شمال غرب مدينة القدس. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ١٠٧.

(١٠٧) المد: استخدم لكيل الحبوب كالحنطة والسمسم والذرة، ويساوي نحو ٥٠كغم. انظر: فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠، ص٧٣.

(١٠٨) سجل ٣٥٥، ١٧ شعبان، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١١٢.

(١٠٩) الوساقة: من الفعل وسق، ووسق الإبل أي طردها فأطاعت، وسميت وسيقة لأن طاردها سيجمعها ولا يدعها تنتشر عليه فليحقها الطلب فيردها. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٩، ص ٣٠٤.

(١١٠) سجل ٣٥٥، ٣ ربيع الثاني، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١٤.

(١١١) **شرح المجلة**، م٢، ص ١١٥٦.

(١١٢) قرية شعفاط: تقع على مسافة ٥ كم شمال القدس. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٨٥.

(١١٣) سجل ٣٥٥، ٢١٩ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٨٥.

(١١٤) **شرح المجلة**، م١، ص ٩٨٣.

(١١٥) **المصدر نفسه**، م١، ص ٩٨٣-٩٨٤.

(١١٦) قرية واد فوكين: تقع إلى الغرب من مدينة بيت لحم. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م٤، ص ٥٦٦.

(١١٧) ناحية بني عرقوب: إحدى النواحي بجبل الخليل، وتزعمتها أسرة اللحام واتخذت من قرية بيت عطاب مركزاً لها. وتضم الناحية ٢١ قرية هي: بيت عطاب، علار، كفر سوم، واد فوكين، نحالين، الجبعة، بيت نتيف، حوسان، رأس أبو عمار، دير الشيخ، عقور، كسلا، دير الهوى، سفلى، عرتوف، اشوع، صرعا، دير ابان، جراش، بيت جمال، زكريا، ازر: أين أبو بكر، **ملكية الأراضي**، ص ٢٤٨.

(١١٨) سجل ٣٥٥، ١٣ جمادى الأولى، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٤٠.

(١١٩) شولش، **تحولات جذرية**، ص ٢٢٤.

(١٢٠) **المرجع نفسه**، ص ٢٦٩.

(١٢١) أمين أبو بكر، **ملكية الأراضي**، ص ٢٨١.

(١٢٢) شولش، **تحولات جذرية**، ص ٢٣٠.

(١٢٣) سجل ٣٥٥، ١٥ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٧٩.

(١٢٤) قرية بيت سوريك: تقع شمال غرب مدينة القدس حيث تشرف على الطريق التي تربط القدس مع السهل الساحلي. الدباغ، ج٨، ق٢،ص ١٠٦؛ **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، م١، ص ٤٥١.

(١٢٥) سجل ٣٥٥، ٢٩ شعبان، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١٢٥.

(١٢٦) قرية بيت عور: تقع غرب رام الله بانحراف قليل نحو الجنوب. الدباغ، ج٨، ق٢، ص ٩٩.

(١٢٧) سجل ٣٥٥، ٢١ رجب، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٨٨.

(١٢٨) سجل ٣٥٥، ١٧ ربيع الأول، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ١١٠.

(١٢٩) سجل ٣٥٥، ١٠ ربيع الثاني، ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ص ٩.

(١٣٠) سجل ٣٤٢، ١١ جمادى الثانية، ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م، ص ٤٠.

(١٣١) سجل ٣٧٣، غرة رجب، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص ٨٩.

(١٣٢) سجل ٣٧٤، ١٥ صفر، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، ص ٨٩.

(١٣٣) سجل ٣٦٠، ١١ شعبان، ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، ص ١٣٦.

(١٣٤) سجل ٣٧٨٤، ١٩ صفر، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، ص ٧٧.

(١٣٥) سجل ٣٧٩، ١٣ شعبان، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ١٦٩.

(١٣٦) سجل ٣٧٨، ٢٦ شوال، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، ص ١٥٧. سجل ٣٨٢، ٢٧ جمادى الثانية، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ٢٧. سجل ٣٨٣، ٦ صفر، ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ص ٣٢٢.

(١٣٧) سجل ٣٧٣، ٥ ذي القعدة، ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م، ص ١٠.

(١٣٨) سجل ٣٧٤، ١٥ صفر، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٤م، ص ٤٦.

(١٣٩) سجل ٣٧٤، ١٧ جمادى الثانية، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، ص ١١٣.

(١٤٠) الزاوية الأدهمية: تقع خارج سور البلدة القديمة بالقرب من باب الساهرة، عمّرها الأمير منجك نائب الشام نحو سنة ٧٦٠هـ. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، جزأين، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٩٥، ج٢، ص ٤٨؛ كامل العسلي، **معاهد العلم في بين المقدس**، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية،١٩٨١، ص ٣٥٥.

(١٤١) سجل ٣٧٩، ٦ ذي القعدة، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ١٥٥.

(١٤٢) الخانقاه الصلاحية: هي أقدم خوانق القدس، حلولها صلاح الدين الأيوبي إلى خانقاه سنة ٥٨٣هـ. وكانت من مراكز الصوفية الكبيرة في القدس، وكان مشيختها من المناصب الدينية الرفيعة في المدينة، العسلي، **معاهد العلم**، ص٢٣٤.

(١٤٣) سجل ٣٧٩، ١٠ رمضان، ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، ص ٤٤.

(١٤٤) سجل ٣٨٢، ٢١ ذي الحجة، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ٦٥.

(١٤٥) سجل ٣٨٣، ٩ شعبان، ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، ص ٣٨٧.

(١٤٦) سجل ٣٧٨، ٢٣ رجب، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، ص ١٣٧.

(١٤٧) سجل ٣٧٨، ٤ ذي الحجة، ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٣م، ص ٦١.

(١٤٨) سجل ٣٨٣، ٩ شعبان، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٢م، ص ١٤٧.

(١٤٩) سجل ٣٣٩، ٢٣ رمضان، ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، ص ٢٤.

(١٥٠) سجل ٣٧٤،٢ جمادى الأولى، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٤م، ص ٧٢.

(١٥١) سجل ٣٧٣، ٢٣ ذي الحجة، ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، ص ٢٣.

(١٥٢) سجل ٣٨٣، ١١ شعبان، ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥٣م، ص ٣٩١.

(١٥٣) سجل ٣٧٨، ١٩ صفر، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٤م، ص ٧٧.

(١٥٤) سجل ٣٧٩، ١٣ شعبان، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م، ص ١٦٩.

(١٥٥) سجل ١٧٤، ١٩ شعبان، ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٤م، ص ٩٩.

(١٥٦) سجل ٣٨٣٩، ٤ شعبان، ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م، ص ٢٦٩.

(١٥٧) سجل ٣٧٤، ١٩٣ شعبان، ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م، ص ٩٩.

الأمير عبد الله والفترة التجريبية في إدارة شرقي الأردن: نيسان – أيلول ١٩٢١

الدكتور محمد أحمد الصلاح

قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم والآداب

جامعة التكنولوجيا الأردنية

إربد- الأردن

الأمير عبد الله والفترة التجريبية في إدارة شرقي الأردن: نيسان - أيلول ١٩٢١

الدكتور محمد أحمد الصلاح

قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم والآداب

جامعة التكنولوجيا الأردنية

إربد- الأردن

ملخص:

طبقت بريطانية سياسة الحكم الذاتي في شرقي الأردن بعد انتهاء الحكم الفيصلي لسورية في أواخر شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠، غير أن الوصول المفاجئ للأمير عبد الله إلى معان في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠، ثم إلى عمّان في ٢ آذار (مارس) ١٩٢١ على رأس قوة صغيرة لتحرير سورية من الفرنسيين أدى إلى تعقد موقف بريطانية التي التزمت منع أي هجوم على سورية ينطلق من شرقي الأردن، فسارعت إلى دعوة الأمير إلى القدس والاتفاق معه في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٢١ على العمل على تطوير الإدارة المحلية في شرقي الأردن في فترى تجريبية مدتها ستة أشهر تبدأ من أول نيسان (إبريل) ١٩٢١، ومنع أي هجوم على فلسطين وسورية، مقابل أن تبذل مساعيها لإقناع الفرنسيين بتعيينه حاكماً على سورية.

سعى الأمير ومجلس المشاورين الذي شكّله من قادة حزب الاستقلال السوري في ١١ نيسان (إبريل) ١٩٢١، إلى توحيد مقاطعات شرقي الأردن تحت إدارة أمنية واحدة وفرض النظام والقانون وتأسيس المؤسسات الإدارية في العاصمة والمقاطعات.

وبالرغم من الصعوبات المالية بسبب قلة الموارد وضعف القوة العسكرية وعدم وضوح السياسة البريطانية التي واجهت الإدارة الناشئة فقد تمكن الأمير ومجلس مشاوريه من جعل الوضع المالي والإداري في شرقي الأردن أفضل مما كان عليه في السابق.

المقدمة:

اتجهت السياسة البريطانية في شرقي الأردن بعد انتهاء الحكم الفيصلي لسوية على يد الفرنسيين في أواخر شهر تموز (يوليو) ١٩٢١ إلى عدم الظهور بنفس المظهر الذي سار عليه الفرنسيون في سورية، فتجنّبت فكرة الاحتلال العسكري، كما تجنّبت فكرة ضمّ شرقي الأردن إلى إدارتها في فلسطين، وذلك حتى لا تعطي فرصة للقوميين العرب في تأليب الأهالي ضدها، بعد أن وجدت أن هناك رغبة منهم بالحصول على المشورة والمساعدة على أمن فلسطين وسورية.

رأت بريطانية أن أفضل طريقة لإدارة شرقي الأردن هي تطبيق سياسة الحكم الذاتي للمقاطعات من خلال إرسال أربعة أو خمسة من الضباط السياسيين إلى مقاطعات السلط والكرك وعجلون تكون مهمتهم تقديم المشورة للأهالي، ومساعدتهم على تشكيل هيئات محلية تشرف على الحكم الذاتي في كل مقاطعة، وحثّ الأهالي على التجارة مع فلسطين، مع التأكيد أن فلسطين هي المخرج الطبيعي لشرقي الأردن.

أرادت بريطانية بهذه السياسة من أهالي شرقي الأردن إدراك المنافع التي تمنحهم إياها الإدارة البريطانية، وعندها يصبح ضمّهم إلى إدارتها في فلسطين أكثر سهولة.

لقد نجح الضباط السياسيون في تشكيل حكومات محلية في كل من عجلون، والسلط، والكرك، غير أن هذه الحكومات عجزت عن حفظ الأمن والاستقرار في الداخل، والحدّ من شنّ الغارات على فلسطين وسورية في الخارج، ومع ذلك عاش شرقي الأردن في ظل هذه الحكومات فترة امتدت من آب ١٩٢٠ إلى نيسان ١٩٢١، وكان قد تخلّلها مجيء الأمير عبد الله بن الحسين من الحجاز إلى معان في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١، على رأس قوة عسكرية من أجل محاربة الفرنسيين وإخراجهم من سورية.

وجّه الأمير نداء من معان إلى أهالي سورية طالباً منهم الانضمام إليه في حركته ضد الفرنسيين، فلقي نداؤه حسن استجابة من بعض أهالي شرقي الأردن أدى إلى إحداث نوع من الاضطراب في الوضع السياسي العام لدى الحكومات المحلية، ودفع بريطانية إلى دعوة الأمير إلى القدس ومن ثم الاتفاق مع وزير المستعمرات البريطاني في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٢١ على أن يتسلم الأمن زمام الأمور في شرقي الأردن مدة ستة شهر فترة تجريبية تبدأ من أول نيسان ١٩٢١، ويتم بعدها تقويم الأمور وإقرار النتائج.

وبهدف إلقاء الضوء على صورة الأحداث التي مرّ بها شرقي الأردن خلال الفترة التجريبية الواقعة بين ١ نيسان (إبريل) و٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١، من إدارة الأمير عبد الله، رأيت من المناسب الإشارة إلى الوضع السياسي العام في شرقي الأردن، والأسباب التي دفعت بريطانية والأمير إلى القبول بتسوية مؤقتة للوضع، يتم بعدها الوصول إلى حل نهائي بشأن الشرق العربي الواقع تحت الانتداب.

كما توضح الدراسة جهود الأمير عبد الله لتنظيم توحيد البلاد تحت إدارة مدنية واحدة، وما قامت به الإدارة التي أنشأها في ١١نيسان من أعمال إدارية صادفت ألواناً من النجاح والعقبات كانت ذات آثار واضحة فيها في المرحلة التالية.

وتتناول الدراسة أيضاً موقف الفرنسيين في سورية من هذه الإدارة، وتوجهات السياسة البريطانية تجاه الأمير وشرقي الأردن التي تراوحت بين التفكير بانسحاب الأمير وضم شرقي الأردن إلى فلسطين أو إحدى الدول المجاورة، وبين لقاء الأمير وإعلان استقلال شرقي الأردن، وأخيراً استقرت هذه السياسة مؤقتاً بقدوم لورنس إلى شرقي الأردن مع نهاية الفترة التجريبية فأعطى الأمير دفعاً جديداً لإدارة دفة الحكم.

وتعتبر الوثائق البريطانية من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في إخراج هذا البحث، حيث إنها تتمتع بأهمية كبرى من الوجهة التاريخية، كما أمدتني مجموعة القوانين والأنظمة الصادرة سنة ١٩٢١ وبعض المؤلفات المنشورة بمعلومات دقيقة عن أحداث

هذه الفترة، وكلي أمل في أن يكون هذا البحث مساهمة مفيدة في دراسة تاريخ الأردن المعاصر.

مختصرات الوثائق الأجنبية المشار إليها في الهوامش:

- C.O.: Colonial Office
- F.O.: Foreign Office
- R.F.: Ruling Families
- R.J.: Records of Jordan
- R.H. D: Records of the Hashemite Dynasties

١- الوضع السياسي في الأردن في آذار ١٩٢١:

وصل الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠، وأعلن فور وصوله أنه نائب عن أخيه الملك فيصل الذي أخرجه الفرنسيون من سورية، وأنه يدعو جميع أهالي سورية إلى حمل السلاح لتحرير وضمّهم من الفرنسيين، وأرسل إلى عمّان بالشريفين محمد علي البدوي وعلي بن الحسين الحارثي حيث حملا لواء دعوة أهالي شرقي الأردن التي كانت ضمن مناطق النفوذ البريطاني إلى الانضمام لحركة الأمير[١].

لقيت حركة الأمير حسن استجابة من أهالي شرقي الأردن، حيث رحّب أهالي عمّان بالشريفين، وغدت عمّان كأنها قاعدة عمليات حربية ضدّ الفرنسيين، فرفعت فيها الرايات وعلا صوت الأناشيد الوطنية، والهتافات التي تنادي بسقوط الفرنسيين[٢].
كانت سياسة الأمير تجاه الأردن والحكومة البريطانية وهو في معان تقوم على عدم التدخل في شؤون الحكومات المحلية التي شكّلتها بريطانية، أو إجبار الأهالي على الاعتراف به رسمياً، أو القيام بأي عمل من شأنه التأثير على الأمن العام في البلاد،

أو القيام بأي عمل عدائي ضد الممثلين البريطانيين في شرقي الأردن وحكومة فلسطين[٣]، لأنه لا يريد الدخول في مواجهة مع السياسة البريطانية على أمل تحقيق أهدافه في إقامة مملكة عربية تضمّ سورية وشرقي الأردن إذا ما وجدت أن سياسته متفقة مع سياستها[٤].

سارعت بريطانية على أثر احتجاج الفرنسيين على حركة الأمير التي ستهاجمهم من أراضٍ تتبع النفوذ البريطاني إلى الاتصال بالأمير فيصل طالبة منه تهدئة أخيه ومنعه من القيام بأي عمل عدائي ضد الفرنسيين، لأنها ستبحث موضوع القضية العربية مجدداً من خلال مؤتمر سيدعو له وزير المستعمرات البريطاني، وسيعقد في القاهرة، ويعيد النظر في وضع البلاد العربة الواقعة تحت الانتداب البريطاني[٥]. بموجب قرارات مؤتمر سان ريمو (San Remo)، الذي عقد في الفترة من ١٩–٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٢٠، وهذه البلاد هي فلسطين والعراق دون ذكر شرقي الأردن التي كانت كما ذكر لورنس جزءاً من مملكة فيصل لن يتناولها مؤتمر سان ريمو[٦].

طلب فيصل من صبحي الخضرا وزير داخليته السابق في حكومة دمشق، والمقيم في فلسطين استخدام نفوذه لتهدئة الأوضاع[٧]، وبالفعل أعلن الأمير عبد الله الذي وصل إلى عمان في ٢ آذار (مارس) ١٩٢١، بأنه لن يقوم بأي عمل ضد الفرنسيين في سورية حتى تظهر نتيجة مؤتمر الشرق الأوسط، كما أعلن في الوقت نفسه أنه جاء إلى عمان بقصد الراحة بعد أن أصابته الحمى في معان، وأنه لن يتدخل بشؤون الحكومات المحلية، وطلب من الأهالي الامتثال لتعليمات الممثلين البريطانيين وحكوماتهم المحلية[٨].

انعقد مؤتمرَ القاهرة وافتتحت أعماله في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢١، وجرى خلال المؤتمر بحث مسألة شرقي الأردن، فاتفق المؤتمرون على تسليم الأمير عبد الله زمام الأمور فيها[٩]، فوجهت للأمير في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢١، دعوة من المندوب السامي البريطاني في فلسطين لمقابلة تشرشل (Churchill)، وزير المستعمرات

البريطاني في مقرّ الحكومة في القدس، فلبّى الدعوة ووصل القدس في ٢٧ آذار وسط ترحيب أهالي فلسطين، الذين تجمعوا لاستقباله في أريحا حيث ألقى فيهم خطاباً شكرهم فيه على حسن الاستقبال وقال: "إنه جاء ضيفاً على حكومة صاحب الجلالة لزيارة المندوب السامي، وأن كل شيء سوف يكون لصالح العرب"[١٠].

وفي ٢٨ آذار (مارس) ١٩٢١، عقد الاجتماع الأول الذي حضره كل من: ونستون تشرشل وهربرت صموئيل، وديدز، ولورنس، ويونغ، والأمير عبد الله، وعوني عبد الهادي، حيث تبع هذا الاجتماع اجتماعات أخرى تم التوصل من خلالها إلى الاتفاق على ما يلي[١١]:

١- يتحمل الأمير عبد الله مسؤولية حكم شرقي الأردن لفترة تجريبية مدتها ستة أشهر، تحت إشراف المندوب السامي في فلسطين، وبمساعدة عدد من الممثلين البريطانيين.

٢- على الأمير أن يبذل قصارى جهده لإقامة النظام وتوطيد الأمن والاستقرار وتنظيم القوات المحلية تحت قيادة ضباط بريطانيين.

٣- على الأمير أن يعمل على تطوير الإدارة المحلية الموجودة في الأردن.

٤- على الأمير أن يمنع أي هجوم ينطلق من شرقي الأردن إلى منطقة الانتداب الفرنسي، أو فلسطين.

٥- تقدم بريطانية منحة مالية شخصية للأمير، وأخرى لإدارته.

٦- تتعهد بريطانية بتحسين علاقات الأمير مع الفرنسيين، لتسليمه زمام الأمور في سورية.

لقد كان هناك توجه بريطاني لإقامة إدارة عربية في منطقة شرقي الأردن قبل قدوم الأمير عبد الله إليها بدليل أنها طبقت سياسة الحكم الذاتي شرقي الأردن، خلال الفترة من آب (أغسطس) ١٩٢٠ إلى آذار (مارس) ١٩٢١، ثم عقدت اتفاقاً مع الأمير عبد

الله في نهاية آذار (مارس) ١٩٢١، نصّ على قيام الأمير عبد الله بمسؤولية الحكم في شرقي الأردن لفترة تدريبية مدتها ستة أشهر تحت إشراف المندوب السامي في فلسطين، وبمساعدة عدد من الممثلين البريطانيين، وبالتالي لم تفكر باحتلال البلاد عسكرياً، أو ضمه إلى إدارتها في فلسطين. وذلك بسبب أنها وجدت سياستها منتقدة من قبل البعض في حالة الاحتلال العسكري الذي سيؤكد فكرة نيتها في عدم إيجاد أي نوع من الاستقلال العربي، وفي الوقت نفسه أدركت أن سياستها أيضاً منتقدة بعد أن تركت المنطقة بلا حكومة وفي حالة فوضى لما لذلك من أثر على الأمن واضطرابه في فلسطين وسورية. لذا فإن سياستها المفضلة هي تجنّب هاتين الفكرتين، واتباع سياسة من شأنها أن تسوّغ وتبرهن عدم قبولها لمثل هذه المفاهيم، وبناء عليه كانت سياسة الحكم الذاتي أولاً، ثم الاتفاق مع الأمير في المرحلة الثانية(١٢).

إن اتفاق بريطانية مع الأمير جاء في وقت بدأت فيه بريطانية تعيد النظر في سياستها في المنطقة العربية، وتتطلع إلى الوفاء بوعودها للشريف حسين بن علي بتأسيس حكومات عربية قومية في بعض المناطق العربية، والتي ستكون شرقي الأردن واحدة منها، ولاسيّما أنها رأت العالم الإسلامي مهتماً بالقرارات التي تم التوصل إليها فيما يتعلق بالمناطق التي تم فصلها عن تركية بعد الحرب، وإن إنشاء حكومة وطنية في شرقي الأردن وإن كانت صغيرة وغير مهتمة ستحظى بالاهتمام نفسه من قبل العالم الإسلامي(١٣).

لقد كانت آثار هذه السياسة واضحة في ردّ الحكومة البريطانية على مندوبها السامي في فلسطين عندما اقترح عليها بعد أسبوعين من انتهاء الحكم الفيصلي في سورية، بالاحتلال العسكري لشرقي الأردن، حيث طلبت منه تقديم مساعدة بريطانية لإدارة محلية في البلاد من خلال عدد قليل من الضباط السياسيين للإشراف على الحكم الذاتي للمناطق وهي الكرك، والسلط، وعجلون، لأنها لا تريد أن تظهر بمظهر المستغل

للبلاد كما فعل الفرنسيون في سورية، الذين احتلوا عسكرياً، وقضوا على الحكم الوطني فيها[١٤].

ومن وضوح هذه السياسة أيضاً عودة تشرشل في لقاء القدس، إلى التعهدات التي قدمتها بريطانية للعرب خلال الحرب العالمية الأولى، ومن ثم محاولته التوصل معهم إلى تسوية مرضية تمحو نكران الجميل عن بريطانية، وتمنح العرب نوعاً من الحرية والاستقلال[١٥]. وإن حكومة عربية في شرقي الأردن ستعوضهم عن خيبة أملهم في بلاد عربية أخرى[١٦]، علماً بأن تشرشل وعد الأمير عبد الله بأن حكومة صاحب الجلالة سوف تستخدم أقصى جهودها لإقناع الفرنسيين بتعيينه حاكماً على سورية[١٧]، لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

رأت بريطانية في الأمير عبد الله وسيلتها لتنفيذ سياستها، وذلك لما كان يتمتع به من أهمية ومكانة عظيمة في نفوس أهالي شرقي الأردن[١٨]، فكان أن اتفقت معه على إنشاء إدارة مستقلة في شرقي الأردن، وأخذت منه وعداً في أن يبذل قصارى جهده لمنع أية أعمال عدائية ضدّ فرنسة في سورية، ولاسيّما أنها أدركت ما لديه من قوة قادرة على خلق فوضى كبيرة في سورية وفلسطين[١٩]، فهي بهذا الاتفاق لم تمنعه من تنفيذ حملته ضد الفرنسيين فقط، بل عملت على أن يقوم بخطوات عملية لإبطال آثار سياسته السابقة[٢٠].

عاد الأمير إلى عمّان في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٢١، وشرع من الأول من شهر نيسان (إبريل) ١٩٢١، في بناء الإدارة المركزية لأول مرة في شرقي الأردن، ومنحه اتفاقه مع تشرشل صلاحيات واسعة في إنجاز مهمته، التي اعتبرت غير رسمية، لأنه بحسب الاتفاق سيتم فيما بعد تسليم الإدارة إلى حاكم محلي أقل مرتبة منه، ولعل بريطانية كانت تقدر مهمة الأمير الصعبة التي يتعين عليه إنجازها وهي إنشاء إدارة محلية بمساعدة بريطانية تكون قادرة على وقف أي أعمال عدوانية ضد الفرنسيين في سورية، وضد بريطانية في فلسطين[٢١].

لقد كانت شرقي الأردن تعاني من انعدام الأمن والاستقرار بسبب غارات القبائل المستمرة على الفلاحين بهدف السلب والنهب، كما أنها كانت تعاني من ضعف الإدارة المحلية في كل مقاطعة من مقاطعاتها، فالحكومات المحلية، التي شكّلتها بريطانية كانت عاجزة عن فرض سلطاتها وهيبتها في المناطق التي أنشئت فيها، وأضف إلى ذلك قلة الخبرة الإدارية المحلية التي يمكن الاعتماد عليها في الإدارة الجديدة، ومع ذلك فقد استطاع الأمير في ١١ نيسان (إبريل) ١٩٢١، تشكيل هيئة مشاوريه[٢٢]، من الأشخاص الذين لديهم خبرة في الإدارة ويتبنون أفكاره وطموحاته في حكم سورية، وكان معظمهم من السوريين وبالتحديد من أعضاء حزب الاستقلال، وذلك لعدم توافر كفاءات من أهل البلاد، ومع ذلك فقد ضمّ مجلس المشاورين أردنياً واحداً هو علي خلقي الشرايري، الذي كان يشغل منصب رئيس حكومة عجلون في عهد الحكومات المحلية، وكان من أعضاء حزب الاستقلال، اتهمته فرنسة بتشجيع الثوار على مهاجمتهم في سورية[٢٣]، ولذلك طلب تشرشل من الأمير عبد الله نقل الشرايري من إربد إلى منطقة بعيدة عن الحدود السورية فعيّنه مشاوراً للأمن والانضباط وعضواً في مجلس المشاورين[٢٤].

وكان وزير المستعمرات البريطاني قد أوضح للمندوب السامي في ٢نيسان (إبريل) ١٩٢١، الإجراءات التي يتعيّن عليه اتخاذها في شرقي الأردن خلال الفترة التجريبية، التي بدأت في ١٢ نيسان (إبريل) وهي[٢٥]:

١- إدراك مدى الصعوبات التي سيواجهها الأمير في شرقي الأردن، وبناء على ذلك يجب عدم تصديق أية شكاوى ضده سواء كانت من شرقي الأردن أو من الفرنسيين.
٢- الرجوع إلى وزير المستعمرات قبل الاحتجاج على أي عمل يقوم به الأمير.
٣- تعيين الكابت كلايتون (Clayton) مستشار للأمير وبأقصى سرعة.
٤- تغطية نفقات الإدارة من حصة عائدات شرقي الأردن من جمارك فلسطين.

٥- ترك الأمير حراً في النفقات، وسيتم تزويده بالاعتمادات المالية اللازمة بعد التصويت عليها في مجلس العموم.

٦- العمل على تطوير إيرادات الأهالي فإن ذلك سيعتبر مفخرة لوزارة المستعمرات.

٧- تقديم منحة مالية للأمير مقدارها خمسة آلاف جنيه إسترليني لنفقاته الخاصة.

وفي ١٠ نيسان (إبريل) ١٩٢١، كتب هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني على فلسطين إلى حكومته مبيّناً مكان الأمير وهيبته بين أهالي شرقي الأردن، وهذا من شأنه سيساعد الأمير على استقرار الأمور في البلاد، وستتمكن إدارته من جباية الضرائب حتى إن بعض الأهالي قد دفعوا ضريبة المواشي عن طيب خاطر، وأن الأمير يعتقد جازماً بأن حكومة صاحب الجلالة تقف إلى جانبه، وهولن يقوم بأي عمل ضد الفرنسيين وأن البلاد تتمتع بالأمن بشكل جيد، وأن الجرائم والشكايات قليلة[٢٦].

٢- الإجراءات الإدارية في شرقي الأردن خلال الفترة التجريبية:

١- تشكيل الإدارة المركزية الأولى:

عهد الأمير عبد الله في ١١ نيسان (إبريل) ١٩٢١، بإدارة منطقة شرقي الأردن إلى مجلس مشاورين تألف من: رئيس المجلس، الذي لقّب بالكاتب الإداري، ونائب العشائر ومعاونه، ومشاور الداخلية، ومشاور العدلية والصحة والمعارف، ومشاور الأمن والانضباط، وقاضي القضاة، ومشاور المالية[٢٧].

وفي ٩ تموز (يوليو) ١٩٢١، قرّر مجلس شؤون المشاورين تعديل تشكيل الإدارة المركزية على النحو التالي[١٨]:

١- إبدال اسم الكاتب الإداري الذي أطلق على رئيس مجلس المشاورين بلقب رئيس مجلس المستشارين، وإبدال اسم المشاور باسم المستشار.

٢- استبدال وظيفة مفتش المعارف بوظيفة مدير المعارف ويرتبط برئيس المستشارين.

٣- إحداث وظيفة مدير الصحة ويرتبط برئيس المستشارين.

٤- إلغاء وظيفة مفتش الزراعة والحراج وإناطة أمورها إلى الحكام الإداريين في المقاطعات.

٥- إحداث مديرية البرق والبريد العامة.

٦- إبدال أسماء لبعض الكتبة الإداريين، وإحداث وإلغاء بعض الوظائف الإدارية في الدوائر المركزية.

وتألف مجلس المشاورين عند صدور هذا القرار من رشيد طليع رئيس المجلس والمشاور الملكي، والشريف شاكر بن زيد نائب العشائر، ومظهر بك رسلان المشاور المالي، ورشدي بك الصفدي مشاور الأمن والانضباط ، وأحمد بك مريود معاون نائب العشائر، وغالب بك الشعلان مستشار القيادة العامة، والشيخ محمد الخضر الشنقيطي قاضي القضاة(٢٩).

٢- **تنظيم العمل الإداري بين الحكومة المركزية والمقاطعات:**

سعى مجلس المشاورين إلى تنظيم العمل الإداري بين الحكومة المركزية في العاصمة والمقاطعات فأصدر القرار رقم (٣) في ١٥ نيسان (إبريل) ١٩٢١، والذي تضمّن ما يلي(٣٠):

١- تقسيم شرقي الأردن إلى ثلاث مقاطعات هي: السلط، والكرك، وعجلون، وتقسيم مقاطعة إلى قائمقامات ومديريات بحسب اللزوم.

٢- يقوم المتصرفون بالأعمال التالية:

أ. رئاسة جميع الدوائر في المقاطعة.

ب. حفظ الأمن داخل المقاطعة.

ج- إجراء التحقيقات الخاصة بالعسكريين، والموظفين المدنيين في مقاطعاتهم، وكفّ أيديهم عن العمل إذا اقتضى الأمر، وإخبار مرجعهم بذلك.

٣- مرجع المتصرفين المشاور الملكي في العاصمة، ويجوز مخابرة المشاورين الآخرين.

٤- يقوم القائمقامون بالأعمال التالية:

أ- رئاسة جميع الدوائر في القضاء.

ب- حفظ الأمن داخل مناطقهم.

ج- مرجع القائمقام متصرف المقاطعة.

٥- وظائف مجالس الإدارة في المقاطعة والقضاء هي:

أ- النظر في محاسبات صناديق المنافع العمومية وإدارة الأموال الحكومية.

ب- اتخاذ التدابير المتعلقة بالصحة العامة.

ج- إصلاح الطرق العامة.

أصدر المجلس في ٢٧ نيسان (إبريل)، قراراً بتسمية نفسه باسم "الهيئة المركزية" كما وضع قانوناً بيّن فيه اختصاصات أعضائه، وجعل رئيسه مسؤولاً أمام الأمير، ومرجعاً للمشاورين جميعاً فيما يتعلق بوظائفهم،واعتبار كل مشاور مرجعاً للدوائر الداخلة ضمن اختصاصه[٣١].

لا شك أن هذه المواد القانونية قد نظّمت علاقة موظفي المقاطعة بعضهم مع بعض، متبعة نظام التسلسل الإداري، كما ربطت المقاطعات بالحكومة المركزية في عمّان، وقيدت المقاطعة بتعليمات الحكومة التي تصدر من العاصمة، فوثّقت بذلك أواصر تبعية الحكام الإداريين للحكومة المركزية، ونظّمت إدارة المقاطعة على نحو يكفل لها الهيمنة على كل فروع العمل الحكومي وكان هذا لأول مرة يجري تحقيقه في شرقي الأردن.

إن تقسيم شرقي الأردن إلى ثلاث مقاطعات هو أمر ليس بالجديد، لأن هذا التقسيم كان متبعاً ومعمولاً به منذ العهد العثماني وكان آخره هو تشكيل حكومة محلية في كل مقاطعة في الفترة من آب ١٩٢٠ إلى آذار ١٩٢١، إن الجديد في هذا القانون هو ربط المقاطعات الثلاث بعضها مع بعض لتتشكل منها دولة واحدة في إطار تقسيم الشرق العربية، الذي فرضته معاهدة سايكس – بيكو، وخلقت منه دولاً عدة.

وكان المندوب السامي البريطاني في فلسطين قد قام بزيارة رسمية إلى عمّان في ١٧ نيسان (إبريل)، يرافقه سكرتيره المدني السيد وندهام ديدز (W. Deeds). ابرامسون (Abramson) ولورنس (Lawrence) من أجل المشاركة في إنشاء الإدارة في شرقي الأردن، فعيّن ابرامسون رئيساً للممثلين البريطانيين كما عيّن سبعة من المستشارين السياسيين البريطانيين لمساعدة الأمير في الإشراف على سير الإدارة[٣٢]، ومتابعة سياسة ونشاطات الأمير، وليكونوا أداة اتصال بين الأمير والمندوب السامي، ويتأكدوا من وفاء الأمير بالتزاماته[٣٣].

٣- تنظيم عمل المؤسسات الإدارية:

استطاعت الهيئة المركزية أو مجلس المشاورين وبمساعدة رئيس الممثلين البريطانيين خلال الفترة التجريبية، أن تنظم عمل المؤسسات الإدارية من خلال تطبيق القوانين العثمانية بعد تعديلها بما يتناسب والمرحلة الجديدة ومن القوانين التي أصدرتها[٣٤]:

١- قانون تشكيل العدلية:

صدر هذا القانون في ٣ أيار (مايو) ١٩٢١، وصيغ في (٣١) مادة تناولت تنظيم إدارة المحاكم النظامية والشرعية وبيان اختصاص كل منها، وتأليف محكمة استئناف عليا للنظر في الدعاوى التي ترفع إليها بطرق الاستئناف والتمييز من قبل المحاكم النظامية والشرعية، وتدقيقها والمصادقة عليها وألغي بموجب هذا القانون جميع المواد القانونية المخالفة له.

٢- قانون توظيف الضباط في السلك النظامي:

تمت الموافقة على هذا القانون في ٤ أيار (مايو) ١٩٢١، وصبغ في ثلاث مواد تضمنت تشكيل لجنة برئاسة رئيس الأركان الحربية من أجل التدقيق في انتخاب الضباط للقطاعات العسكرية من خريجي المدرسة الحربية العثمانية، والمدرسة الحربية العربية، وانتخاب ضباط الدرك من خريجي مدرسة الدرك العثمانية والمدرستين الحربيتين العثمانية والعربية.

٣- قانون إحداث مشاورية شرعية:

صدر هذا القانون في ٩ تموز (يوليو) ١٩٢١، وصيغ في ثماني مواد تناولت إحداث وظيفة مستشار الأمور الشرعية، وتحديد اختصاصاته، وتعديل بعض المواد من قانون تشكيلات المحاكم العثمانية.

٤- قانون تشكيل حاكمية عسكرية في الكورة تابعة لعمان الصادر في ٥ تموز (يوليو) ١٩٢١:

تألفت الحاكمية من حاكم عسكري ومدير المال وأمين للصندوق وقاضٍ للشرع، ومجلس تأديبي لرؤية الدعاوى الجزائية، مؤلف من الحاكم العسكري والقاضي وشخص معيّن من الأهالي، وجاء تشكيل الحاكمية في أعقاب عصيان الكورة الذي تعود بعض أسبابه إلى رفض التنظيمات الإدارية الجديدة، التي نفذتها الحكومة وأصبحت الكورة بموجبها تتبع متصرف إربد، فطالب الأهالي أن ترتبط الكورة بالحكومة المركزية في عمّان، وبعد رفض الحكومة الطلب تطور الأمر إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين انتهت باستسلام القوة العسكرية الحكومية في ١٥ أيار ١٩٢١[٣٥].

٥- قانون رسم التأشير على جوازات السفر:

صدر هذا القانون بناءً على مذكرة المستشار المالي المؤرخة في ٢٧ آب (أغسطس) ١٩٢١، المتضمنة استيفاء خمسين قرشاً سورياً لحساب الخزينة عن ورقة إجازة السفر التي تمنحها الحكومة لمن يريد السفر إلى خارج البلاد[٣٦].

٦- قانون بشأن قبول مطالب الملتزمين المتحققة عند الزراع من أصل بدلات الالتزام:

صدر هذا القانون في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١، وتناولت مطالب الملتزمين التي تحققت لهم عند الزراع سنة ١٩٢٠، حيث اعتبرت ديناً للخزينة بعد طرحها من أصل بدلات الالتزام المطلوبة من الملتزمين، وتأليف لجنة لحسم الخلاف الواقع بين المزارعين والملتزمين، واستيفاء مصاريف نفقات التخمين وبدلات الالتزام من الملتزمين والمزارعين وفقاً لقانون تحصيل الأموال العمومية العثماني[٣٧].

٧- قانون يقضي باستيفاء رسم معيّن عن الطرود المحزومة:

صدر هذا القانون في ٢٨ أيلول(سبتمبر) ١٩٢١، ونصّ على تخصيص ستة قروش سورية بمنفعة صناديق البلديات عن كل طرد محزوم وثلاثة قروش سورية عن الطرد غير المحزوم من البضائع التجارية، التي يزيد وزنها على خمسة عشر رطلاً، واستيفاء ثلاثة قروش سورية عن كل صندوق من المأكولات من غير الخضار والفواكه[٣٨].

٤- تنظيم القوة العسكرية:

لإنشاء وتنظيم القوة العسكرية التي تساعد الحكومة على تنفيذ أوامرها، وتمكنها من جمع الضرائب، ونشر الأمن، وقد بحثها الأمير مع المندوب السامي عند زيارته لعمّان في ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٢١، واتفق على تشكيل قوة مؤلفة من (٧٥٠) جندياً وضابطاً مزودين بأربع سيارات مصفحة وطائرات، بحيث تتحمل بريطانية نفقاتهم

المقدرة بمائة ألف جنيه إسترليني سنوياً[٣٩]، إلا أن الاتفاق لم ينفّذ من قبل بريطانية التي اعتلّت بفداحة المصاريف، فاضطرت الحكومة إلى الاعتماد على الرجال المتطوعين وشيوخ القبائل والنفوذ الشخصي للأمير وتابعيه في الحفاظ على الأمن وتنفيذ أوامرها[٤٠]، بالإضافة إلى ضمّ القوات التي جاءت مع الأمير من معان والمؤلفة من (٣٠) ضابطاً وما ئتي جندي[٤١]، إلى القوات الموجودة في البلاد في عهد الحكومات المحلية وهي قوة الدرك الثابتة والقوة الاحتياطية والكتيبة النظامية، إلا أن ذلك لم يساعد على استتباب الأمن وتنفيذ أوامر الحكومة، إذ إن هذه القوة كان يعوزها التدريب الحسن والسلاح، بسبب قلة المال، وقد ثبت عدم فعاليتها في تمرّد الكورة على الحكومة في شهر أيار (مايو) ١٩٢١، وألحق بها خسائر فادحة، كان من نتائجها أن طلبت الحكومة من بريطانية إعادة تنظيمها وتدريبها[٤٢].

وافقت بريطانية على طلب الحكومة، وبدأت في خريف ١٩٢١، بإنشاء قوة مؤلفة من (٧٥٠) رجلاً شريطة أن يتولى الكابتن بيك (Peake) الإشراف عليها بدلاً من مشاور الضرائب الأمن والانضباط، واستطاعت القوة فرض الأمن والنظام في البلاد وتأمين جباية الضرائب وإخضاع العشائر المتمردة في الكرك والطفيلية والكورة[٤٣].

٥- **تنظيم الشؤون المالية وإقالة مجلس المستشارين:**

وافق وزير المستعمرات البريطاني في لقاء القدس على تقديم معونة مالية لإدارة شرقي الأردن، وطلب في ٢ نيسان (إبريل) ١٩٢١، من المندوب السامي على فلسطين، تغطية نفقات الإدارة مؤقتاً من حصة عائدات شرقي الأردن من جمارك فلسطين، وإلى حين تزويده بالاعتمادات المالية اللازمة بعد التصويت عليها في مجلس العموم، ومعرباً عن أمله في سعي الإدارة إلى النهوض بالإيرادات المحلية كتلك الموجودة في فلسطين قادرة على تغطية المهام المدنية والعسكرية[٤٤].

وفي اجتماع الحكومة البريطانية المنعقد في لندن ٣١ أيار (مايو) ١٩٢١، عرض وزير المستعمرات موضوع الإدارة المقترح في شرقي الأردن، وصورة الوضع

المالي وصعوبته بالنسبة للأمير عبد الله الذي يحتاج إلى عشرة آلاف جنيه شهرياً، وأشار الوزير أنه لا توجد موازنة واضحة للإدارة، إلا أنه سيتم في المستقبل ترتيب موازنة بشكل أفضل بحيث تتناسب مع المصروفات المتوقعة والمشاريع الكبيرة المتعلقة بالجيش والإدارة[٤٥].

ولكن بالرغم مما سبق، فقد امتنعت حكومة فلسطين حتى شهر حزيران (يونيو) عن دفع حصة شرقي الأردن من عائدات الجمارك، كما أن بريطانية لم تقدم الدعم المالي المطلوب للإدارة، وواردات الضرائب كانت زهيدة، مما ترتب عليه سوء الوضع المالي وخلوّ الخزينة من المال، حتى إن قوات الأمن والموظفين لم يتلقوا رواتبهم منذ عدة أشهر، فاضطر مشاور المالية إلى تقديم استقالته، كما استقال أيضاً مشاور الأمن والانضباط، ثم رئيس المشاورين والمشاورين الآخرين وكان ذلك في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٢١.

تصادف تقديم مجلس المشاورين استقالاتهم إلى الأمير مع زيارة السكرتير المدني لحكومة فلسطين وندهام ديدز، الذي وصل إلى عمان يوم ٢٤ حيران (يونيو) ١٩٢١، ورافقه الأمير ورئيس مجلس المشاورين إلى الكرك، فطلب منه الأمير التوسط لدى رئيس مجلس المشاورين للعدول عن استقالته، وقد قام بذلك حيث أبلغه الرئيس عن سبب استقالته وهي أن حكومة صاحب الجلالة قد خصصت لإدارة شرقي الأردن (٧٥,٠٠٠) ألف جنيه من أصل (١٨٠,٠٠٠) ألف جنيه، تم الاتفاق عليها مع وزارة المستعمرات، وإن هذا دليل على أن بريطانية تحاول حجب المساعدة الفاعلة عنا، وردّ عليه ديدز بتوضيح الأسلوب الذي تم فيه إقرار الحصة بحيث تركه في موقف لا يستطيع أن يقول شيئاً، ثم مارس عليه ضغوطاً من أجل أن يتعاون مع رئيس الممثلين، فوعد بالعمل على ذلك[٤٦].

وفي ٥ تموز (يوليو) ١٩٢١، أُعيد تأليف مجلس المشاورين بعد أن أجري تعديل عليه، ثم سافر رئيسه والمستشار المالي إلى القدس حيث تمكنا من الحصول على مبلغ من المال على حساب حصة شرقي الأردن من عائدات الجمارك في فلسطين[٤٧].

على أن حادث الاعتداء على الجنرال غورو (G. Gourud) المندوب السامي الفرنسي في سورية في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٢١، واتهام الفرنسيين لموظفين كبار في شرقي الأردن منهم رشيد طليع رئيس مجلس المشاورين، جعل بريطانية تطلب من الأمير إقصاء طليع من منصبه واستبداله برجل آخر، وفي حالة عدم تغييره فإنها في حلٍّ من التزاماتها تجاه الأمير، وإنها ستقوم بقطع الإعانة المالية، فعهد الأمير في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٢١، برئاسة المجلس إلى مظهر رسلان وخمسة من المستشارين كانوا من فلسطين وسورية والعراق، ولم يكن بينهم أي أردني[٤٨].

٦- فصل المصارف الزراعية في شرقي الأردن عن دمشق:

أصدر مجلس المستشارين في ٢٤ أيار (مايو) ١٩٢١، قراراً يقضي بفصل المصارف الزراعية في شرقي الأردن عن دمشق، وذلك بعد أن تبيّن للمجلس كما جاء في صيغة القرار أن منطقة شرقي الأردن منفصلة عن منطقة دمشق تمام الانفصال، وأن رأسمال المصارف في شرقي الأردن يرجع إلى حصة المنافع والأرباح الناتجة عن القروض الممنوحة للمزارعين، وهذه تعتبر ملكاً بحكم الطبيعة[٤٩].

وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١، وافق المجلس على أن تقبل المصارف الزراعية في حالة حجز على الأرض الزراعية العائدة للأهالي، والجواهر والحلي بعد تقدير أثمانها كضمان للقروض الممنوحة لهم، وذلك أسوة بالحالة المتبعة في إدارة مركز المصرف الزراعي بدمشق[٥٠].

ويذكر أن المصارف الزراعية أنشأتها الدولة العثمانية سنة ١٨٨٧، من أجل حماية الفلاحين من جشع المرابين، وتحسين الأحوال الزراعية في الولايات[٥١]، وبلغ مجموع القروض التي منحتها هذه المصارف للفلاحين في شرقي الأردن، وقامت

الحكومة الأردنية بشطبها في ٢١ أتشرين أول (أكتوبر) ١٩٢٨، نحو ٤٢٩٩ جنيهاً فلسطينياً، أي ما يعادل ٤٨٩٩ ليرة عثمانية، حيث كانت قيمة الليرة العثمانية إلى الجنيه الفلسطيني تساوي ٨٧,٧٥ قرشاً[٥٢].

٧- تطبيق قانون الضميمة على بعض الضرائب والرسوم الصادر وزمن الحكومة السورية:

صدر هذا القانون في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠، ونصّ على ضمّ ضرائب إضافية إلى بعض الضرائب والرسوم المفروضة في العهد العثماني، التي ظلت مطبقة في العهد الفيصلي، وطبقتها حكومة شرقي الأردن بعد تأسيسها، وبموجب هذا القانون تم إضافة ٥٠% على الضريبة المفروضة على العقارات المعدة للإيجار، و٢٥% على ضريبة السكن، و١٠٠% على رسوم التمتع ورسوم بدل الطريق، و٥٠% على رسوم الأغنام والإبل[٥٣].

٣- موقف الفرنسيين من إدارة الأمير عبد الله والاعتداء على غورو:

أرسل تشرشل وزير المستعمرات البريطاني في ٣١ آذار (مارس) ١٩٢١، رسالة إلى الجنرال غورو المندوب السامي في سورية، أبلغه فيها اهتمامه بتفعيل الأمن في شرقي الأردن، ومنع أي غارات أو اضطرابات تأتي من شرقي الأردن إلى منطقة النفوذ الفرنسي، وأنه في سبيل ذلك اتفق مع الأمير عبد الله على تسليمه الإدارة في شرقي الأردن، وبعد تعهده باستخدام أقصى جهوده لمنع أي اضطرابات تنطلق من شرقي الأردن إلى منطقة الانتداب الفرنسي، كما سيعمل على تطوير الإدارة المحلية بمساعدة بريطانية.

وطلب تشرشل من غورو مساعدته في هذا الموضوع، وتقدير مهمة الأمير الصعبة التي تتمثل في قضية المنفيين السوريين المقيمين في شرقي الأردن، والذي من الممكن إصدار عفو عام عنهم لما لهذا العفو من أثر كبير في تهدئة الأوضاع في شرقي

الأردن، وتسهيل مهمة الأمير، وحماية منطقة النفوذ الفرنسي من الفوضى التي تأتي من هذه الزاوية[٥٤].

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الأمير عبد الله قَبِلَ بهذا الاتفاق بعد تعهّد تشرشل بالعمل على تحسين علاقته مع الفرنسيين، وبذل مساعيه لتعيينه حاكماً على سورية، إلا أن الفرنسيين لم يعترفوا للأمير بأي موقع للسلطة في دمشق، بل أعلنوا أسفهم على السياسة البريطانية المتبعة بشأن فيصل وعبد الله، مؤكدين على أنهم لا يستطيعون المشاركة فيها[٥٥].

وخلال اللقاء الذي جرى بين المندوب البريطاني في فلسطين هربرت صموئيل (H. Samuel) والمندوب السامي الفرنسي في سورية الجنرال غورو في بيروت بتاريخ ٢٧ أيار (مايو) ١٩٢١، تم بحث مسألة شرقي الأردن حيث أشار صموئيل أن لديه أسبابه التي تجعله يعتقد أن الأمير عبد الله يرحّب بتفاهم مع الفرنسيين، علماً بأنه لم يتحدث إليه حول هذا الموضوع، وأن بريطانية معنية بهذا الموضع بالنظر لما كانت قد تعهدت به للعرب خلال الحرب بالحرية والاستقلال، فردّ غورو قائلاً: "إن تجربة الفرنسيين مع فيصل جعلت من المستحيل التعامل مع أمراء العائلة الشريفية، لأن أية تسوية معهم لن تكون مقبولة لديهم سواء في سورية أو شرقي الأردن أو العراق، وأنهم في جميع الأحوال سيشعرون بالظلم والخديعة من قبل الحلفاء، وأي اتفاق معهم بعيد عن وحدة أقطار المشرق العربي لا يمكن عبد الله وأتباعه من إحداث الاضطرابات في سورية، خاصة أن عبد الله أحاط نفسه بمجلس مشاورين مؤلف من قادة حزب الاستقلال المعادي لفرنسة[٥٦].

سوّغ صموئيل اختيار عبد الله للمشاورين بقوله: "إن هؤلاء الأشخاص سيكونون أقل تسبباً للمشاكل إذا كانوا تحت سيطرة عبد الله، وأن الأمير عبد الله وعَدَ وعْدْ شرف أنه خلال الفترة التجريبية التي مدتها ستة أشهر لن يتخذ موقفاً معادياً لفرنسة، فأجابه غورو إن الفرنسيين لا يحملون لعبد الله شخصياً أي عداء، ويسرهم إقامة علاقات

صداقة معه كجيران، وإذا ما سنحت الفرصة فإنه سيرسل الضابط السياسي الفرنسي في درعا للتباحث معه، وفي جميع الأحوال فإن فرنسة لن تقبل به حاكماً لدمشق، وإذا ما حاول الهجوم علينا من إربد، فإننا سنرسل قوات فرنسية إلى إربد لتسوية المسألة، وإن احتاج الأمر فسنرسل ثلاثين طائرة إلى عمان لتتعامل معه، وسيتم هذا كله تحت مظلة القانون الدولي(٥٧).

وبعد وقوع حادث الاعتداء على الجنرال غورو أثناء مروره إلى القنيطرة، أرسل غورو ثلاثة من ضباطه إلى القدس في ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٢١، يحملون رسالة منه، يشرح فيها محاولة الاغتيال، مع أدلة كافية لإثبات واقعة الادعاء ضدّ سبعة عشر شخصاً متهمين بالهجوم وهم مقيمون في شرقي الأردن، وأشار غورو في رسالته إلى إدارة عبد الله تسعى إلى تحرير سورية، ولم يكفّ عن هذه السياسة التي أدت في نهاية المطاف إلى هذا الهجوم المدبّر من قبل موظفين كبار تحت قيادة عبد الله، والبريطانيون يسمحون لهم بالعيش بسلام ويحتفظون بمراكزهم، كما أشار إلى التمرّد الذي قام به أسعد الأطرش ضد الفرنسيين، ورفعه علم الأشراف في السويداء عاصمة جبل الدروز في الأول من آب ١٩٢١(٥٨).

طلب صموئيل من الأمير عبد الله اعتقال المتهمين، كما كتب إلى حكومته يبلّغها بالاعتداء معرباً عن شكّه في قيام عبد الله باعتقال المتهمين، لأن موظفيه السوريين سيعرقلون أمر الاعتقال، لذلك اقترح على حكومته توجيه دعوة للأمير عبد الله بزيارة لندن ليتمكن من اعتقال المتهمين أثناء فترة غيابه، علماً بأنه متأكد بأن الهجوم كان بتخطيط من موظفيه(٥٩).

طلب رئيس الممثلين البريطانيين في عمّان من الأمير توضيحاً للإجراءات التي ينوي اتخاذها ضد المتهمين قبل أن يقوم بتسليمه قائمة الأسماء خشية أن يقوم بإخفائهم، فرّد عليه الأمير بقوله: "إنه يشجب الاعتداء لكنه في الوقت نفسه كان يخشى أن يؤدي تسليم المتهمين للفرنسيين من إثارة الرأي العام" وأضاف قائلاً: "كيف تعرفون أنهم

موجودون في شرقي الأردن"[٦٠]. ثم كتب في ٢٥ ذي الحجة ١٣٣٩هـ / ١٩٢١م، إلى صموئيل يخبره عن موافقته على أن يقوم رئيس الممثلين باتخاذ إجراءات فورية بحق المسؤولين عن الهجوم[٦١]، وفي الوقت نفسه وجدناه يقول لمدبري الهجوم "مريود وجماعته في حمايتي وحماية البلد ولن نسلمهم للفرنسيين مهما كانت النتائج"[٦٢].

ويشير تقرير الاستخبارات الفرنسية المؤرخ في ١٦ آب (أغسطس) ١٩٢١، إلى أن الأمير عبد الله مسؤول مسؤولة مباشرة عن الهجوم ، وهو يركز كل طاقته لتنفيذ حملات دعائية نشطة ضد الفرنسيين في سورية، وأنه اختار بطانته من المناوئين للفرنسيين، ثم كانت هذه النتيجة المتوقعة[٦٣].

نفى البريطانيون أن تكون هناك أدنى علاقة للأمير بالهجوم لأنه ملتزم بما وعدهم به في القدس، ومن الطبيعي أن يعزو الفرنسيون أي نشاط معادي لهم في سورية للأمير لعداوته لهم، وأن الأمير استخدم نفوذه لمنع مثل هذه الاعتداءات، وفي جميع الأحوال فإن منع السوريين من ذلك هي مهمة صعبة، والهجمات سواء كانت بمشاركة أو بعدمها، فإن المهاجمين دائماً يختارون أن يكونوا شركاء، وما اختيار عبد الله موظفيه السوريين إلا لخبرتهم الإدارية، ومحاولة منه إلى صرفهم عن الأعمال العدائية في سورية من خلال تحميلهم أعباء الإدارة والأمير ليس مسؤولاً عن أية أعمال فردية ضد الفرنسيين بما فيها الهجوم على غورو، وهو يشجب بقوة مثل هذه الأعمال، وأقصى رشيد طليع، وعلي خلقي، عن مراكزهم موظفين[٦٤]، وبناءً عليه فإنه تم التفكير بطرد السوريين، يجب أن يتم الطرد عند غياب الأمير في الخارج، وأن يقوم بذلك ممن يقوم مقامه في الحكم وبدعم من الممثلين البريطانيين[٦٥].

واستمر حادث الهجوم بين أخذ وردّ بين الفرنسيين، والبريطانيين، والأمير، إلى ما بعد انتهاء الفترة التجريبية بأكثر من سنة، وكان له أثره على توجهات السياسة البريطانية تجاه شرقي الأردن والأمير خلال الفترة التجريبية، ذلك أنه لم تكن هناك أي محاولة

جادة من الأمير عبد الله للقبض على المهاجمين، بالرغم من أنهم كانوا معروفين ويتحركون بحرية داخل البلاد، وحسب رأي الكولونيل لورنس فإن الأمير لا يرغب في القبض عليهم ولو كان باستطاعته ذلك، فإذا كان القبض على ابراهيم هنانو الذي دخل إلى فلسطين عن طريق شرقي الأردن من قبل السلطات البريطانية وتسليمه إلى الفرنسيين قد أدى إلى حدوث الكثير من الاضطرابات والتهيج في عمان(٦٦)، فكيف سيكون الحال فيما لو تم اعتقال المتهمين بالهجوم على غورو.

النتائج:

جاء اتفاق عبد الله تشرشل على إنشاء إدارة غربية في شرقي الأردن لفترة تجريبية لتضمن بريطانية تحقيق الآتي:

١- تنفيذ الاتفاق لويد جورج (Lioyed George) رئيس وزراء بريطانية مع كليمنصو (Clemanceau) رئيس وزراء فرنسة الذي تم في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩١٩، وتضمن تحديد وضع الدولتين في الشرق العربي في ضوء اتفاقية سايكس- بيكو، حيث اعترفت فرنسة بالانتداب البريطاني على العراق وفلسطين، وإبقاء شرقي الأردن التي كنت جزءاً من سورية تحت الاحتلال البريطاني؛ لتتمكن بريطانية من خلاله مراقبة النشاط الفرنسي في سورية، ومدّ خط أنابيب بترول العراق من أراضيه إلى فلسطين، كما أن شرقي الأردن يمثل حلقة الوصل بين المصالح البريطانية في العراق والخليج العربي في الشرق ومصالحها في فلسطين وقناة السويس ومصر في الغرب، واعترفت بريطانية بالانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، وأقرّ ذلك المجلس الأعلى للحلفاء في مؤتمر سان ريمو (San Remo) في ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٢٠، شريطة قيام بريطانية لتنفيذ وعد بلفور الذي نص على إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين(٦٧).

وجاء اتفاق عبد الله – تشرشل بعد تنفيذ مقررات سان ريمو على أرض الواقع حيث دخلت القوات الفرنسية دمشق وأنهت الحكم الفيصلي في تموز (يوليو) ١٩٢٠، وأصبحت شرقي الأردن مركزاً لتنظيم الحركات المسلحة ضد الفرنسيين في سورية، ثم كانت حملة الأمير التي قدمت من الحجاز إلى شرقي الأردن لتحرير سورية، وخطر الغارات التي كانت تنطلق من شرقي الأردن إلى فلسطين على خلفية العداء للصهيونية وإنشاء الوطن القومي اليهودي فيها. كما جاء في رسالة تشرشل إلى غورو المندوب السامي الفرنسي على سورية، إن الاتفاق مع الأمير عبد الله تضمن "... ترتيبات تمنع وقوع أية اضطرابات في منطقة النفوذ الفرنسي تنطلق من شرقي الأردن، وأنه سوف يعمل على تنظيم القوات المحلية تحت قيادة ضباط بريطانيين، وسيطوّر الإدارة المحلية الموجودة، ويوظف سلاح الجو لدعم القوات المحلية..."[٦٨].

٢- العمل على إبقاء الأمور في شرقي الأردن خلال الفترة التجريبية ومن خلال الممثلين البريطانيين والمندوب السامي على فلسطين عائمة وغير واضحة، واتباع سياسة المماطلة والتأجيل وضياع الوقت، كما جاء على لسان أبرامسون، من أجل تهدئة حماس الأمير[٦٩]، وبناء على ذلك أُسست للأمير إدارة محددة، وأكثرت من إرسال لكتابة التقارير ووضع المقترحات التي تلخصها بالآتي:

١- اعتبار مسألة سورية مسألة داخلية بين عبد الله والفرنسيين، وهي غير مخولة للتدخل فيها[٧٠].

٢- إنهاء حكم الأمير عبد الله وحكومته لتحل محلها الإدارة البريطانية، بسبب عجزهم في إدارة البلاد، والممثلين البريطانيين لا يستطيعون ممارسة أعمالهم.

٣- إنشاء إدارة فعالة وحديثة يرأسها موظفون عرب، وتفضيل السكان المحليين في إدارة المقاطعات على غيرهم.

٤- أن يقوم رئيس الممثلين ومساعديه بالمساعدة على تحسين الإدارة.

٥- دعم القوة المسلحة بأدوات مساندة مثل سيارات مسلحة وطائرات لحماية حدود فلسطين.

٦- دعم الوحدة الطبيعية بين فلسطين وشرقي الأردن، وتأسيس مجلس تشريعي مشترك في القدس(٧١)، من خلال اتحاد كونفدرالي يتم التوصل إليه بعد ترسيخ النظام المؤقت في شرقي الأردن، أو محاول ضمّها إلى واحد من جيرانها الأربعة بالقوة أو برغبة أهلها(٧٢).

وأدرك الأمير عبد الله أن بريطانية تستخدمه أداة مؤقتة لحفظ الأمن والاستقرار في شرقي الأردن(٧٣)، وبناءً عليه كانت مشاركته في شؤون الإدارة قليلة، والتوجيه الذي يمارسه على موظفيه سطحياً(٧٤)، فهو ينوي ترك المنطقة بطريقة منظمة وبأسلوب مقنع، لأنه غير راضٍ عن توجيهات السياسة البريطانية سواء بتلك المتعلقة بمساعدته في حكم سورية، أو بإذلال حكومته المحلية في تسليم ابراهيم هنانو للفرنسيين، وإسقاط حكومة رشيد طليع، إضافة إلى أنه كان متألماً بسبب إدراكه وتفسيره لرأي السلطات البريطانية بأن شرقي الأردن جزء لا يتجزأ من فلسطين(٧٥).

٣- التدخل المباشر لصموئيل المندوب السامي على فلسطين وابرامسون رئيس الممثلين البريطانيين في إدارة شرقي الأردن لإثبات فشل الأمير عبد الله في الإدارة خلال الفترة التجريبية، حيث كانا شديدي الحرص على إبراز نقاط ضعف إدارة الأمير لدى وزارة المستعمرات من أجل ضمّ شرقي الأردن إلى فلسطين، وهذا ما كشف عنه جون فيلبي بعد تعيينه كبيراً للمثلين البريطانيين في بداية سنة ١٩٢٢، خلفاً لابرامسون حيث أشار إلى أن فشل الأمير خلال الفترة التجريبية يعود إلى سيطرة حكومة فلسطين على الإدارة في شرقي الأردن، وأن صموئيل لم يكن راضياً عن إعلان تشرشل بفصل شرقي الأردن عن فلسطين.

كانت النتيجة التي توصّل إليها صموئيل هي عدم رضاه عن الأمور الإدارية والمالية خلال الفترة التجريبية، فاقترح على الحكومة البريطانية دعوة الأمير إلى لندن، ليتمكن

من استبدال النظام بإدارة يرأسها موظفون عرب(٧٦)، ويفهم من خلال التفاهم بين صموئيل، وتشرشل، أن الأمير، هو الذي كان راغباً في التخلي عن شرقي الأردن، وأن زيارته للندن ما هي إلا وسيلة للانسحاب، أما صموئيل فكان يرى أن زيادة الأمير للندن تمكّن بريطانية من اعتقال الأشخاص غير المرغوب فيهم، دون توريط الأمير شخصياً بمثل هذه المسؤولية، وأما عن شكل النظام الذي سيتّبع إذا ما غادر الأمير، فترى بريطانية أنه يجب أن يكون تابعاً من مصالح شرقي الأردن وفلسطين والتزامات الانتداب البريطاني، مفضلين ذلك على علاقاتهم الخارجية مع فرنسة في سورية(٧٧).

إلا أن بريطانية عادت وأرسلت لورنس إلى عمان في أوائل تشرين أول (أكتوبر) ١٩٢١، لبحث مسألة شرقي الأردن، فاكتشف أنه لا يوجد رجل قادر على أن يحلّ محل الأمير عبد الله في الإدارة المدنية وجمع العائدات المالية(٧٨)، ولهذا أوصى باتباع السياسة التالية(٧٩).

١- استمرار إدارة الأمير في الوقت الحالي.

٢- إلغاء القوانين السورية.

٣- تخفيض المساعدات المالية.

٤- الضغط على الأمير لاتخاذ خطوات فعالة من أجل إلقاء القبض على المتهمين بالاعتداء على الجنرال غورو.

٥- دعوة الأمير لزيارة لندن بعد انتهاء فصل الشتاء.

وهكذا بدّد لورنس وجهات النظر الخاطئة تجاه سياسة بريطانية حول شرقي الأردن والأمير عبد الله، وأعطى الأمير عقداً جديداً للإدارة والحكم مدة سنة تبدأ من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١، وتنتهي بنهاية شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢(٨٠).

الهوامش

(1) Documents on British policy, Edited by Bury and Battler, Vol.13, No.347, P.314, and No.409, P.411.

(2) F.o. 371/5290, No.2 15.

(3) Documents, vol.13, No.347, F.O. 371/5290.

(4) Ruling Families of Arabia, Jordan: The Royal Family of Al-Hashim, Edited by A. del. Rush, Vol. 1, p.[45].

(٥) علي محافظة، **تاريخ الأردن المعاصر**، عمان، مطبعة القوات المسلحة الأردنية، الطبعة الأولى، ١٩٧٣، ص ١٧.

(٦) ممدوح الروسان، **التوجه البريطاني لإقامة إدارة عربية في شرقي الأردن ١٩١٥-١٩٢٠**، مجلة أبحاث اليرموك، جامع اليرموك، مجلد ١٧، عدد ١، ٢٠٠١، ص ١٥٦.

(7) F.o. 371/5290, No.2 15.

(8) C.o. 733/2, Extract from Report on political Situation In T.J. March 1921. P.20.

(9) Records of the Hashemite Dynasties (R.H.D), Edited by A.del Rush, London, 1995, Vol. 6, P.84.

(10) C.O. 733/2, Extract, P.21.

(11) (R.H.D) vol.6, P.94-101.

(12) (R.H.D) P.194, NO.32D/POL.

(13) (R.H.D) P.294, NO.32D/POL.

(14) Document, PP.337-338, No.305.

(15) Personal Papers, H. Samuel Papers, By J. Philby Memorandum on Trans Jordan and other Near East Problems, 26th June 1924, file No.15. P.18.

(16) (R.H.D) P.114, No.93.

(17) Personal Paper, Philby, P./8.

(18) (R.H.D) P.111, No.72.

(19) F.O, 371/6342.

(20) F.O, 371/6343.
(21) F.o 371/6343.

(٢٢) المشاور الملكي والعدلي، دفتر عقود زواج بلا رقم، ص ٣، سجلات محكمة السلطة الشرعية.

(23) Document, vol.13, no.345. P.410; Marry Wilson, King Abdullah and the making of Jordan, Cambridge Univ. Press, 1987, p. 62.
(24) F.o. 371/6342.
(25) (R.H.D),P. 111.
(26) F.o 371/6343.

(٢٧) منيب الماضي وسليمان الموسى، **تاريخ الأردن في القرن العشرين**، الطبعة الأولى، ١٩٥٩، ص ١٤٩.

(٢٨) مجلس المشاورين، قرار رقم ٥، تاريخ ٩ تموز ١٩٢١، **حكومة الشرق العربي**، مجموعة قوانين وأنظمة سنة ١٩٢١، عمان، المطبعة الأميرية، ص ١٠.

(٢٩) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها، محمد الصلاح، **الإدارة في إمارة شرقي الأردن ١٩٢١-١٩٤٦**، إربد، دار الملاحي للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ص ٤١١.

(٣٠) مجلس المشاورين، مواد قانونية في توسيع صلاحية المتصرفين والقائمقامين، سجل بلا رقم، دفتر عقود زواج، ص ٤٠، محكمة السلط الشرعية.

(٣١) منيب الماضي وسليمان موسى، ص ١٥٢.

(32) (R.H.D) Vol.6, P.114, No.93.

علي محافظة، تاريخ الأردن، ص ٢٥.

(33) F.O 371/6372; Marry Wilson, King Abdullah, p. 50.

(٣٤) حكومة الشرق العربي، **مجموعة قوانين وأنظمة سنة ١٩٢١**، عمان، الطبعة الأميرية، ص ٢-١٧.

(٣٥) منيب الماضي وسليمان موسى، ص ١٥٦.

(٣٦) حكومة الشرق العربي، **مجموعة قوانين وأنظمة سنة ١٩٢١**، ص ١٤

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٧.

(39) (R.H.D) P.114, No.93.
(40) (R.H.D) P.188, No.32D/POL.
(41) C.O.737/2.

(٤٢) علي محافظة، تاريخ الأردن، ص ٣٩.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(44) F.O. 371/6343.
(45) (R.H.D) Vol.6, P.131, Cabinet No.45/21.
(46) R.F. Vol.1, p.[48]

(٤٧) منيب الماضي وسليمان موسى، ص ١٦٦.

(48) (R.H.D) VOL, P.187, NO.32D/POL.

– خير الدين الزركلي، عامان في عمان، **مذكرات عامين في عمان**، يوسف البستاني، مصر، ١٩٢٥، ص ١٤٠. ومظهر رسلان هو من أصل سوري ومن مواليد حمص، كان متصرفاً في السلط في عهد الحكومة الفيصلية، ورئيساً لحكومة السلط في عهد الحكومات المحلية من شهر آب (أغسطس) ١٩٢٠ –آذار (مارس) ١٩٢١، وعيّن مساوراً للعدلية والصحة والمعارف في حكومة رشيد طليع الأولى، ثم مستشاراً للمالية في حكومته الثانية، ثم رئيساً لمجلس المستشارين وكان مرتاباً من السياسة البريطانية، وموظفاً كفؤاً وسديد الرأي، وذا عقلية اقتصادية، محباً لعمله لا لشيء بل لأجل العمل نفسه، لذلك كان يفتخر عند إنجاز أي شيء وصفه برانتون

الممثل البريطاني لدى حكومة الكرك المحلية بأنه رجل مؤهل للإدارة وذو شعبية كبيرة، ويحترمه الأهالي، لعدم تحيزه في التعامل معهم.

-R.H.D, Vol. 6, p. 187, No. 32d/pol; Personal Papers, C.D. Branton, No. 2/4, Es Salt, 3rd Sep. 1920.

(٤٩) مجلس المشاورين، قرار رقم ٥٤، تاريخ ٢٤ أيار ١٩٢١، **مجموعة القوانين والأنظمة سنة ١٩١٨- ١٩٣١**، جمعها ورتبها توفيق سنو، عمان، المطبعة الوطنية، ص ٢١٨.

(٥٠) مجلس المستشارين، قرار رقم ٢١٨، تاريخ ٢ تشرين الأول ١٩٢١، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٥١) عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤-١٩١٤**، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢٤٢، ويذكر أن الدولة العثمانية اهتمت بإقراض فلاحي المناطق الزراعية في عجلون والزبداني وحوران، لأنهم كانوا يتعرضون لجشع المرابين أكثر من غيرهم حيث بلغت الفائدة ٦٠% من قيمة القرض. عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية**، ص ٢٤٣.

(٥٢) **مجموعة القوانين والأنظمة** من سنة ١٩١٨-١٩٣١، ص ٢١٩.

تعاملت الحكومة الأردنية بالليرة السورية والقرش السوري منذ تأسيسها حتى صدور أول قانون للنقد في شرقي الأردن في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٢٣، حيث حل القرش والجنيه المصري في التعامل في جميع معاملات الدولة الرسمية، وكانت الليرة السورية تساوي ٠,٨ من قيمة الجنيه الإنكليزي. الشرق العربي، عمان عدد ٣، ١١ حزيران ١٩٢٣، ص ٢.

(٥٣) **مجموعة القوانين والأنظمة** من سنة ١٩١٨-١٩٣١، ص ٣١٥؛ والضميمة هي من الضمّ أي قبض شيء إلى شيء، وضمّه إليه بمعنى جمعه، القاموس

المحيط، للفيروز آبادي، مادة ضمم.

- بلغت قيمة ضريبة العقارات المعدة للإيجار في العهد العثماني عشرة آلاف من قيمتها، وقيمة ضريبة الدور السكنية خمسة في الألف وثمانية في الألف.
- ضريبة التمتع: فرضت على الأطباء والمهندسين وأصحاب الرواتب في العهد العثماني، وتبدأ من خمسة عشر قرشاً إلى ثلاثمائة قرش في السنة، ودفع أصحاب المحلات التجارية والصناعية ضريبة تبدأ من ٨% إلى ٢٠% من الإيراد غير الصافي المقدر على المحل، في حين دفع أصحاب الرواتب الشهرية ٣% من مجموع الإيراد السنوي.
- رسوم بدل الطريق: تم تحصيل هذا الرسم بموجب نظام المعابر العثماني الصادر في سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، حيث دفع الذكور في العهد لعصماني ممن تتراوح أعمارهم بين ١٦-١٨ سنة رسماً تراوح بين ٢٠-٣٠ قرشاً في السنة.
- بلغت رسوم المواشي في العهد العثماني ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن أو الماعز، وعشرين قرشاً عن كل رأس من الإبل. انظر: عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية**، ص ١٧١-١٧٥.

(54) F.O 371/6342.
(55) F.O 371/6455.
(56) F.O. 371/6455.
(57) F.O 371/6455.
(58) Records Of Jordan ((R.J)), Edited by John Prestland, Edition 1995, Vol. 1, P.438-440, No.347.
(59) (R.J) Vol.1, P.349-440.
(60) (R.H.D) Vo16, P.158.
(61) (R.H.D) From Abdullah To High Commissioner For Palestine, P.156.
(٦٢) منيب الماضي وسليمان موسى، ص ١٧١.

(63) (R.J), C.O, P. 450.
(64) (R.J), C.O., PP.450-452.
(65) f.O., 371/6372, No. 290.
(66) (R.H.D) P. 193, NO. 320/POL

(٦٧) عمر عبد العزيز، **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥، ص ٦٥٢-٦٥٥، ممدوح الروسان، **التوجه البريطاني**، ص ١٦٣.

(68) F.O. 371/6342, Letter from Mr. Churchill to General Gourud, Dated 31st March 1921.
(69) R.F. Enclosure No. 4 to Mediterranean , Letter No. 15 16/6001/45, of 7th June, 1921, p.46-47.
(70) F.O, 371/6455.
(71) (R.F.), W. deeds, P.54-56.
(72) F.O, 371/6372. No.290.
(73) (R.H.D), P.175.
(74) (R.F.), W. Deeds. P.48.
(75) (R.H.D), P.175.
(76) (R.J)., P. 439, No.347, and Pp.461, Copl.
(77) (R.F.), F.O. To Under Secretary Of State-Colonial Office, 20th Sep. 1921. P.57.
(78) (R.J)., P.461, Cop.1.
(79) (R.H.D), PP.183-184. No.436.
(80) Personal Papers, Philby, P.7.

Directeur de la Revue	**Dr. Wael Mualla** Recteur de l'Université de Damas
Directeur de la Redaction	Abdul Karim Ali



DIRASAT TARIKHIYYAH



No. / 97- 98 / March - June / 2007 - 1428

DIRASAT TARIKHIYYAH

REVUE HISTORIQUE TRAIMESTRIELLE
S'INTERESSE A L'HISTORIRE DES ARABES

سعر العدد ٥٠ ل.س

مطبعة جامعة دمشق